الأب ألفونس غوتمان

الفرح

صورة الله في الإنسان

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع
٢

الفرح

صورة الله في الإنسان

الأب ألفونس غوتمان

لجنة التعريب في حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة
في أبرشيّة دمشق

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م.م.

صدرت الطبعة الأصليّة من هذا الكتاب باللغة الفرنسيّة بعنوان:
«La Joie: Visage de Dieu dans l'homme»

رسالة هذا الكتاب والتعليم الموجود فيه موضوعان موضع التطبيق في مركز بيتاني «Béthanie» عبر جلسات ولقاءات. وهناك مجلّة تصدر كلّ ثلاثة أشهر للمرافقة إلى قلب التجربة الروحيّة، وعنوانها الطريق «Le Chemin».

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
© جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١٤.

أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر كانون الأوّل ٢٠١٤

سلسلة "الإيمان والإنسان"

يكشف لنا الكتاب المقدّس أنّ العالم هو الخليقة الحسنة للإله الذي جعل الإنسان مسؤولاً عن صنيعته بشكل شخصيّ. ليست الخليقة مجرّد وهم، وليست قناعًا لمطلقٍ مبهم. ولئن أخضعها الإنسان للبطلان والفساد، فإنّ الله قد ذهب وراء خليقته، وأنقذها بتجسّده ونزوله إلى أحشائها، مقيمًا فيها عرسًا سرّيًّا، فصحًا مضيئًا، يملأ الكلّ نورًا: السماء والأرض وما تحت الثرى. وألغى الازدواجيّة التي تجعل من الأرض منفى ومن الجسد قبرًا، وأظهر الخليقة حاملة وعود الإشراق، وأوضح أنظمتها الطبيعيّة مختومة بالحكمة الإلهيّة وتستحقّ تاليًا الدراسة. «لأنّ أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركةً بالمصنوعات قدرته السرمديّة ولاهوته» (رومية ١: ٢٠).

في هذا الخطّ نفهم أنّ «المعرفة العلميّة دائمًا مطهّرة. وإذا ثبتت فإنّها حقيقة من الله ثابتة في خلقه»[١]، تكشف الثورات العلميّة والفنّيّة بشكل أو بآخر حضور السيّد في الكون. ففي عالم يزداد فيه التعقيد وتكثر فيه التحدّيات يجب على القداسة أن تتّخذ أشكالاً جديدة، أشكالاً لا تكون غريبة عن البحث الموضوعيّ والتقنيّ، وعن حلول للصعوبات التي يواجهها الإنسان في هذا العصر.

يعتقد اللاهوتيّ الرومانيّ الكبير الأب دوميترو ستانيلواي أنّ

[١] كما يقول المطران جورج (خضر)، لو حكيت مسرى الطفولة، دار النهار.

الإشكاليّة الأهمّ في اللاهوت الأرثوذكسيّ اليوم هي مصالحة رؤية الآباء للكون مع الرؤية النابتة من أرضيّة العلوم الطبيعيّة[٢]. وإذا كان الإنسان كونًا صغيرًا، «أرضيًّا وسماويًّا»[٣]، فهذه الإشكاليّة تنطبق أيضًا على العلوم الإنسانيّة، وإن بصعوبة كبرى، لأنّ كبرياء الاختزاليّة تهدّد كلّ رؤية من داخلها. فالإنسان شخص على صورة الله، والشخص سرّ لا يختزل فهو «متنوّع بشكل لا ينتهي، خلاّق، غير متوقّع ومتجاوز لنفسه»[٤]. غير أنّ تلمّس قصد الله وكلمته الخلاّقة في الآليّات الفيزيائيّة والكيمائيّة والبيولوجيّة التي تنحت كوننا وتنحتنا، وكيف يستدخلها سرّ الشخص في كهنوت ملوكيّ، يجذب قوى الطبيعة ويقدّمها ذبيحة تسبيح على مذبح الربّ، لهو تتبّع العاشق آثار معشوقه في كلّ صنائع يديه والزوايا التي مسّتها قدماه. في مسعانا إلى مقاربة لاهوت الشخص، كما يشرح المطران كاليستوس (وير)، علينا أن نستعمل إيجابيًّا الحدس الذي تقدّمه لنا علوم الإنسان المعاصرة. وفي هذا المجال لدينا الكثير لنتعلّمه، وإن بكثير من التمييز. لاحظ بول إفدوكيموف الحاجة الطارئة التي تحرث اللاهوت المعاصر من داخله، وهي «تفجير محدوديّته وتهوئة حقله باستدخال كلّ النتائج الإيجابيّة الآتية من الأبحاث العلميّة في علوم الأنتروبولوجيا والنفس والاجتماع

---

[2] Cosmic Priesthood and the Human Animal. Speaking of Man and the Natural World in a scientific age. Elizabeth Theokritoff. In Thinking Modernity. Balamand Theological conferences 1

[٣] القدّيس غريغوريوس النازينزيّ. أنظر: بحث في اللاهوت الصوفيّ لكنيسة الشرق. فلاديمير لوسكي. منشورات النور.

[4] Bishop Kallistos (Ware). The Ecumenical Review Volume 52, Issue 1, pages 46–56, January 2000 The witness of the Orthodox Church.

والتاريخ استدخالاً كنسيًّا. والاستدخال ليس مجرّد إضافة»[5]، بل معموديّة. إنّ استئثار كلّ فكر من أفكار العلوم الحديثة إلى فكر المسيح (٢كورنثوس ١٠: ٤) وتقديمه خبزًا للجائعين إلى الله لهو من التحدّيات الكبرى لجماعة المؤمنين اليوم.

إذا كانت السماء والأرض تذيعان مجد الله، كما يقول المزمور، فكم بالأحرى قلب الإنسان وآليّاته النفسيّة ووظائفه البيولوجيّة تتّضح، لمن صفت رؤيته، مواضع تمجيد ومعرفة لقدرة الله ولاهوته. فالإله الحيّ الذي «خلق السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها، لم يترك نفسه بلا شاهد، وهو يفعل خيرًا يعطينا من السماء أمطارًا وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعامًا وسرورًا» (أعمال الرسل ١٤: ١٧) وتجلّيات لا تحصى لحركات النفس. تذكّرنا هذه الرؤية بأنّ هيكليّة الإنسان النفسيّة معدّة في جذورها للقاء الله، وبأنّ تجلّيها يندرج في التجلّي الكامل للإنسان، وبأنّ معرفتها معرفة علميّة دقيقة التزام لهذا التجلّي. تغدو هذه الرؤية مصدرًا يوميًّا «للمعرفة والنور والغذاء الروحيّ الحقّ»[6]، كما عبّر الأب إلياس (مرقص) عند قراءته أطروحة د. كوستي بندلي التي افتتحت حوارًا وتبادلاً غنيًّا بين علوم الإنسان والأدب النسكيّ الأرثوذكسيّ حول تأثير الصور الوالديّة في علاقة الإنسان بالإيمان.

كيف تسكن كلمة الله بغنى في إنسان اليوم؟ هذا ما تحاول تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع طرحه في سلسلة «الإيمان والإنسان»، عبر مقاربات عديدة تبحث في الإشكاليّات

[5] Paul Evdokimov. La femme et le Salut du monde. Desclée de Brouwer

[6] Freudisme et Religion. Images Parentales et attitudes religieuses. Dialogue avec Freud. Costi Bendaly. An Nour COOP.

المتنوّعة التي يواجهها الإنسان المعاصر، على ضوء التراث الغنيّ الذي يحرّكه الروح القدس في كنيسته. فالسؤال هو كيف يصبح الله إلهك أنت اليوم، بما أنت عليه من خصوصيّة شخصيّتك، حتّى تصير الكلمة هي حقًّا فيك، أي ضمن تركيبتك البشريّة وطبائعك ولغتك. فلا يعود من غربة بين كلمة الله والإنسان في مستويات وجوده المختلفة وكثافة واقعه البشريّ الذي يحياه في انفعالاته وهواجسه وأفراحه وأحزانه وأشواقه اليوميّة. همّ هذه السلسلة أن تكشف أنّ مظاهر الحياة اليوميّة البسيطة هي بالحقيقة هبة حبٍّ من الله لا تقدّر، وتهجئة للملكوت الموعود به لكلّ من طلب أوّلاً ملكوت الله وبرّه، مأخوذًا بسرّ تجسّد ابن الله، الكلمة الذي صار جسدًا حتّى يصير الجسد كلمة.

مقدّمة لجنة التعريب

يسرّ لجنة التعريب في حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة، في أبرشيّة دمشق، أن تقدّم إلى قرّائها الأعزّاء أوّل إنتاج لها مطبوع تحت عنوان «الفرح: صورة الله في الإنسان»، لمؤلّفه الأب ألفونس غوتمان. مضمون هذا الكتاب جذّاب وذلك لثلاثة أسباب: الأوّل لأنّ الفرح، بحسب الأب ألفونس، هوكلمة الإنجيل الأولى والأخيرة، وتاليًا هو مضمون المسيحيّة الأساس وجوهر بشارتها، ولا بدّ إذًا من أن تتركّز الكتابات حوله. الثاني هو أنّه قلّما نجد مؤلّفات في هذا الشرق المسيحيّ تتناول الفرح كمادّة أساسيّة لها، لدرجة أنّنا نكاد نظنّه مهمّشًا أو منسيًّا بالنسبة إلى الكتابات النسكيّة، أو تلك التي تتحدّث عن الجهاد الروحيّ الذي يجب أن يخوضه المؤمن. وفي الحقيقيّة توجد في الحياة المسيحيّة مظاهر كثيرة تجعل الانطباع الأوّل الذي يكوّنه المرء عنها هو أنّها حياة ألم وليست حياة فرح، كلباس رجال الدين الأسود والأصوام المتكرّرة والتقليل من الحجم الذي تأخذه المتع في الحياة اليوميّة. وهنا يأتي دور كتاب يحاكي هذا الذي بين يدينا، لكي يوضّح لنا أنّ مظاهر الابتعاد عن الفرح هذه هي بالحقيقيّة ابتعاد عن فرح وقتيّ غير أصليّ يزول بزوال مسبّباته، وأنّ غايتها أن نحفر عميقًا في داخلنا حتّى نصل إلى جذور الفرح الحقيقيّ؛ ذلك الفرح الذي وضعه الثالوث في جينات خلايانا عندما خلقنا، على حدّ تعبير الأب ألفونس. هذا الفرح حقيقيّ وثابت إزاء كلّ الظروف

والأحداث التي قد نواجهها، وغير مشروط بالحالة الوقتيّة التي نعيشها. إنّه فرح ثالوثيّ إلهيّ فائق الوصف لا يمكن لأيّ شيء ولا لأيّ أحد أن ينتزعه. والسبب الثالث هو أنّ انجراف المجتمع في وقتنا الراهن نحو التركيز على المادّيّات وتهميش الإله، يجعل حياتنا مفعمة بالحزن والكآبة الناتجين من زوال المتع الوقتيّة التي نعيشها. لذا فالفرح المسيحيّ هو أنجع حلّ لمعالجة هذه الأزمة. وفي الواقع، سبقنا الغرب بمراحل تغيّر المجتمع وانفتاحه وسيطرة وسائل الاتّصال وثقافة الجسد بدلاً من ثقافة الروح عليه، وما رافق ذلك من أمراض نفسيّة كالكآبة والانطواء والابتعاد عن الآخر، لذا أخذت الكتابات المسيحيّة هناك منحًى تعالج فيه هذه المعضلات، ويجب على الكنيستين الأرثوذكسيّتين الشرقيّة والغربيّة أن تستفيد كلّ واحدة من تجارب الأخرى.

يصطحبنا الأب ألفونس، عبر هذا الكتاب، في طريق نتعلّم منه كيف نصل إلى جذور هذا الفرح الثالوثيّ الكامن فينا.

ونودّ أن نشير إلى أنّنا تحاشينا في التعريب استخدام كلمة الله واعتمدنا كلمة الإله، وذلك بأنّ لهاتين الكلمتين المرادف ذاته في الفرنسيّة، وكذلك في باقي اللغات التي لها الجذر ذاته كالإنكليزيّة واليونانيّة واللاتينيّة. ولا عجب في ذلك، إذ إنّ الكلمة ذاتها استخدمت للدلالة على الألوهة في النسخة اليونانيّة الأصليّة لدستور الإيمان، في عبارتي أؤمن بإله واحد Πιστεύω εἰς ἕνα Θεόν, وابن الله الوحيد τὸν Υἱὸν τοῦ Θεοῦ τὸν μονογενῆ. وهكذا، فعبارة والدة الإله بالفرنسيّة هي La Mère de Dieu وكلمة الله هي La Parole de Dieu وابن الله Le Fils de

Dieu. أي أنّ الفرنسيّة تستخدم الكلمة ذاتها Dieu للدلالة على الإله الآب وعلى الإله الابن. أمّا في الكتابات المسيحيّة العربيّة وبخاصّة في الليتورجيا، فالغالب هو أن نستخدم كلمة الله عند الحديث عن الآب، وكلمة إله عند الحديث عن يسوع المسيح وعن الروح القدس. يخلق هذا التمييز بتكراره مرّات عدّة تراتبيّة بين الأقانيم في لاوعي المؤمن غير المتعمّق باللاهوت، ذلك بأنّ كلمة الله مستخدمة بكثرة في حياة المسيحيّ العربيّ اليوميّة، وعندما نقرنها كثيرًا بشخص الآب فقط من دون شخصي الابن والروح القدس، فقد يجعل هذا من الآب إلهًا أسمى من الابن والروح القدوس، وفي ذلك انحراف عن العقيدة المسيحيّة التي تنادي بالجوهر الواحد لأشخاص الثالوث الثلاثة.

لذا تبعنا في تعريبنا هذا الأسلوب الفرنسيّ واستخدمنا كلمة إله للدلالة على أيّ شخص من أشخاص الثالوث القدّوس. واخترنا كلمة الإله بدلاً من كلمة الله لأسباب عديدة. فكلمة إله يمكن استخدامها في النكرة وفي التعريف ما يعطيها ليونة أكثر في الحديث عن الجوهر الواحد وعن التثليث الشخصانيّ في الثالوث القدّوس، ولأنّها أوضح في الكثير من العبارات، كتلك التي نتحدّث فيها عن علاقة الأقانيم بعضها ببعض كأن نقول مثلاً: أرسل الإله الآب ابنه الإله الابن مولودًا من الإله الروح القدس ومن مريم العذراء، فإذا أعدنا صوغ هذه الجملة باستخدام كلمة الله بدلاً من كلمة الإله سيحصل لغط، إذ إنّ الله هو اسم علم يصعب أن يُقرن بثلاثة أشخاص متمايزين. بالإضافة إلى ذلك، توجد عبارات كثيرة لا يمكن استخدام كلمة

اللـه فيهـا كعبـارات المخاطبـة مثـل عبـارة: خلّصنـا يـا إلهنـا، أو يـا إلهـي يسـوع المسـيح ارحمنـي أنـا الخاطـئ.

كـما نـودّ أن نشـير إلى أنّنـا تبعنـا المؤلّـف في تمييـز الكلـمات التـي لا يُقصـد بهـا معناهـا المبـاشر، بـل معناهـا الضمنـيّ الإلهـيّ والتـي تعـود غالبًـا إلى يسـوع المسـيح. ففـي الكتـاب الأصليّ وردت هـذه الكلـمات مبتدئـة بحـرف كبـير وأشرنـا إليهـا في التعريـب باللـون الداكـن. وهكـذا هنـاك اختـلاف بـين معنـى الجملتـين: «عـلى الإنسـان أن يجـد طريقـه» و«عـلى الإنسـان أن يجـد **طريقـه**»، فـالأولى تعنـي أن يجـد عملـه ومـكان إقامتـه المناسـبين وغـير ذلـك مـن متطلّباتـه الحياتيّـة، أمّـا الثانيـة فتعنـي أن يجـد المسـيح الـذي هـو الطريـق والحـقّ والحيـاة.

إهداء بفرح

أهدي هذا الكتاب إليك يا راشل، يا زوجتي الحبيبة،

لم تريدي أن توقّعي اسمك عليه، رغم أنّه آت منك كما يتدفّق الغدير من النبع...

لذا أهديه إليك كشكر يُرفع إليك في آخر حياتنا...

فرحك بالحياة، وصيحات الفرح التي تطلقينها أحيانًا عندما تكونين منكبّةً على الكتاب المقدّس، أو عندما تقابلين وجهًا محبّبًا، أظهرت لي أنّ في أعماقي أيضًا نشوة وفرحًا جنونيّين، ينبغي لي قبل كلّ شيء إعادة التواصل معهما، إذا أردت أن أعيش ملء حياتي معك.

«تعلّمت منك كلّ شيء»، حتّى إنّه يمكن أن نبكي ونضحك في آن واحد، أن نعاني بشكل يفوق التصوّر و«نعيش بفرح لا يُنزع منّا» (يوحنّا ١٦، ٢٢). كلمة «حتّى» هذه، التي هي سرّ جذورك اليهوديّة، وسّعت محدوديّتنا المغلقة وجعلت جدران الشروط التي نخضع لها شفّافةً، لأنّه «حتّى» عندما لم يكن أيّ شيء يسير على ما يرام، كنت تناديني باسمي، وكان ذلك غناء حبّ وفرح...

لذا أحسست أنّ هذا الفرح، هو بالنسبة إليك **شخص** تعيشين **معه** وتكتشفين **حضوره** في وجهي الذي تحاولين فيه الاتّحاد بي... لكي يدوم **فرحنا!**

ألفونس

مقدّمة

من المؤلم جدًّا أن نرفض كتابة مقدّمة طلبها صديق. إذ منعني جدول أعمالي من قراءة أيّ كتاب في الأشهر القادمة. ولكن، للصداقة قدراتها غير المتوقّعة أو جنونها الخاصّ!

لم أقرأ كتابك يا ألفونس. بل تأمّلته بصمت. جعلته خبز صلواتي وعسل أفكاري. إذ أكّد لي صحّة بضعة أمور بدهيّة أعتبرها قيّمة جدًّا، ولكنّ ضعف إيماني جعلها هشّة.

أنهيت للتوّ قراءة كتاب يتحفّظ تجاه المسيحيّة، وجاء فيه: «السعادة المسيحيّة هي في الماضي أو المستقبل، في الحنين أو الأمل، ولكنّها ليست أبدًا في الحاضر... عدد قليل من الأديان، ركّز كما الكنيسة الكاثوليكيّة على الإثم البشريّ، وأظهر ساديّة بارزة في الورع» (L'Euphorie perpétuelle، «النشوة الدائمة» Pascal Bruckner). أجابني مؤلّفه الذي أخبرته بتعجّبي: «لم أجد قطّ إنجيلاً فيه فرح عند الكاثوليك أو البروتستانت أو الأرثوذكس».

تذكّرت عبر هذه القراءة كم هزّتني في شبابي اتّهامات نيتشه[٧]: «يتوجّب عليهم أن يرتّلوا تراتيل فضلى. يتوجّب أن يبدوا كمخلّصين لكي أقدر على أن أؤمن **بمخلّصهم**».

---

[٧] فيلسوف ألمانيّ (١٨٤٤-١٩٠٠)، نقد المسيحيّة ومجمل منظومة الأخلاق الغربيّة، التي اعتبرها «أخلاق عبيد». أسّس فلسفة «إرادة القوّة»، ليس بالضرورة القوّة إزاء الآخر بل أيضًا إزاء الذات، ووفق هذه الفلسفة يتمّ التطوّر بسبب الصراع بين الموت والحياة، وبسعي الإنسان للوصول إلى «الإنسان الأسمى» أي الحرّ والمسيطر على أهوائه والقادر دومًا على خلق أخلاق تناسبه (المعرّب).

كيف لا نضيع في أيّامنا الحاضرة، التي فيها يُشَكّ في كلّ شيء وتختلط المعايير وتُتّهم المعتقدات؟

تعجبني عبارة كلوديل[٨]: «حيث يكون الفرح أكثر تكون الحقيقة كبرى». ولكن عن أيّ فرح يتحدّث؟

كان صديقي موريس كلافيل يقول: «أكثر ما أكره هو كلمة «متفتّح» أو «مبتهج».

الفرح الذي تُحدّثنا عنه، يا ألفونس العزيز، هو فرح يمكن أن يتزامن مع مآسي الطبيعة البشريّة، ويأتي من إله مصلوب، وليس فرحًا سببه الصحّة الجيّدة أو المزاج السعيد.

قالت إحدى شخصيّات مارغريت يورسينار[٩]: «رؤية الناس السعداء تجعلنا نشمئزّ من الفرح». ولكن يجب بسبب ذلك ألاّ نقلّل من شأن الفرح البشريّ. لقد وُلد الإنسان من فيض فرح إلهيّ. قال بيرجسون[١٠]: «الفرح هو علامة نجاح الحياة».

لا تجد الكلمة العبريّة آشري، التي تتكرّر نحو ستّين مرّة في الكتاب المقدّس، كلّ نكهتها في كلمة «مغتبط» أو كلمة «سعيد». إنّها تعني السير إلى الأمام، واكتمال الإنسان النهائيّ. تخلو السعادة الحقيقيّة من أيّة مظاهر سطحيّة[١١].

---

[٨] كاتب مسرحيّ ودبلوماسيّ وشاعر فرنسيّ (١٨٦٨-١٩٥٥). كان تأثير المسيحيّة واضحًا في أعماله. أظهر في كتاباته أنّ الإنسان لا يتجاوز الصراع بين الجسد والروح إلاّ إذا آمن بحبّ الإله المخلّص. من أهمّ أعماله مسرحيّة «الحذاء الحريريّ» ذات البعد المسكونيّ الشامل التي تقع في أربعة فصول ويستغرق تمثيلها إحدى عشرة ساعة، و«بشارة مريم» (المعرّب).

[٩] كاتبة فرنسيّة (١٩٠٣-١٩٨٧) هي أوّل امرأة انتُخبت عضوًا في الأكاديميّة الفرنسيّة.

[١٠] فيلسوف فرنسيّ (١٨٥٩-١٩٤١)، أكثرهم تأثيرًا في مطلع القرن العشرين، بنى فلسفة مستندة إلى ما هو واقعيّ أكان معاشًا أو شيئًا، حاز جائزة نوبل في الآداب، كان معجبًا بشدّة بالمسيحيّة رغم أنّه لم يعتنقها (المعرّب).

[١١] هناك تشابه أدبيّ جميل في الفرنسيّة بين كلمتي تطويبة «Béatitude» وسعادة سطحيّة «Béat» (المعرّب).

قال أنطوان دو سانت إكزوبيري[١٢]: «نصير سعداء فقط عندما نعي دورنا». ليس الفرح حالةً نفسيّةً يجب البحث عنها، إنّه نتيجة. الفرح هو كالأثر الذي تتركه السفينة عندما تتقدّم. الفرح المصطنع، الفرح الكاذب أو الجاذب، هذه كلّها أساليب تقتل الفرح. يجب دومًا أن نضاعف حذرنا ممّا هو مزيّف.

أحيانًا يكون الفرح غائبًا عن جماعاتنا المسيحيّة. وقد نعتقد أنّ المسيح قال: «من تجهّمكم يعرفونكم». بينما الحقيقة هي أنّه قال: «بالمحبّة يعرفونكم». والأثر الذي يتركه الحبّ هو الفرح.

من يسعى لأن يحبّ على طريقة يسوع «باسمه»، سيجد الفرح كنتيجة لهذا الحبّ. من يبحث عن الفرح لا يجده. من يقول جملة كلوديل: «واجبنا الوحيد هو الفرح»، عليه بالأحرى ألاّ ينسى ذلك. «أطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه. والباقي يُزاد لكم».

وددت يا ألفونس لو أكتب عشر صفحات عن كتابك. لقد سطّرت قرابة مئة مقطع خاطبوني بعمق. وجدت فيه فرح أصدقائي غير العاديّ كأوليفييه كليمان، ميشيل إيفدوكيموف، الأب ستيفان وكثيرين غيرهم. وجدت فيه كُتّابًا عظماء كنيقولاوس كاباسيلاس، المعلّم إيكارت، ألكسندر شميمان...

أعرف منذ أربعين عامًا قضيتها في الاستماع إلى شباب يعيشون في صراع روحيّ، وهم يذهبون إلى حيث يوجد حبّ

---

[١٢] كاتب وطيّار فرنسيّ (١٩٠٠-١٩٤٤) من أشهر قصصه Le petit Prince، «الأمير الصغير»، الذي صار عملاً كرتونيًّا للأطفال، نُقل إلى العربيّة بعنوان «الرحّالة الصغير».

أكبر وفرح أكبر. عندك لهؤلاء عبارات ربّما تقدر على أن تقيم الموتى:

«لا تقدّم الأبديّة ذاتها إلاّ لذاك الذي يكون بالكامل حاضرًا في الحاضر».

«سرّ الحياة هو أن نقدّم ذاتنا ونتلقّى ذاتنا».

«الكلّ مسكون بعلّيقة مشتعلة».

لا أريد أن أفسد متعة قراءة هذا الكتاب بل فقط أن أفتح شهيّة القارئ. إنّه كتاب يتطلّب ألاّ يُقرأ بالعينين بل بالقلب، في الصمت العميق الذي به يتبادل فيه الأشخاص الإلهيّون عبارتهم الأزليّة «أُحِبُكَ».

ستان روجييه،

أحد الفصح، نيسان ٢٠٠٠.

مفتاح السعادة

قلتَ يا ربّي: «فرحي هو سعادتك».
دعني أشارك في فرحك اليوم.
ستان روجييه[١٣]

تظهر أجمل صورة ليسوع في التطويبات. ولكن عندما عاش يسوع بنفسه بموجبها، كشف لنا عن سلوك الإله. وفي الوقت عينه، تشبه هذه الحِكم الثماني درجات سلّم ينزل به الإله إلى الإنسان ويدعوه إلى أن يأتي إليه بواسطته. يقول يسوع: أنا **الطريق**، التطويبات إذًا هي يسوع.

هدف هذا **الطريق** هو أن يصبح الإنسان «مغبوطًا» كالإله. كان هذا الفرح الفائق الوصف - لكونه إلهيًّا- معلنًا باستمرار في العهد القديم. من قبل أن يظهر الإله وجهه بالكامل بمجيء الماسيّا، قدّمه إلى شعبه طالبًا منه أن ينهل من هذا النبع: أيّها العطاش جميعًا هلمّوا إلى المياه (إشعياء ٥٥، ١)... وأفرّحهم (إشعياء ٥٦، ٧). ولكنّ ذلك مجرّد إعلان وتمهيد لفرح آخر مختلف تمامًا، لدرجة أنّه لا يُستوعب ولا ينتزع من قلوب الناس هتافات وصيحات: ومفديّو الربّ يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم، وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح

[١٣] العبارات المستشهد بها في مطلع كلّ فصل مأخوذة من كتاب ستان روجييه Aimes et tu vivras، «أحبب فتحيا»، منشورات Cana.

يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهّد (إشعياء ١٠، ٣٥)... ترنّمي أيّتها السماوات... اهتفي يا أسافل الأرض، أشيدي أيّتها الجبال ترنّمًا... (إشعياء ٤٤، ٢٣). إنّه إعلان الماسيّا، الفرح شخصيًّا، وعندما سيأتي، فرسالته التي هي «الإنجيل» سيكون معناها «البشرى السارّة»، التي تهتف كلمتها الأولى والأخيرة: «**فرح**»: ذاك المعلن للرعاة عند ولادته (لوقا ٢، ١٠) وذاك الذي بدّل جذريًّا التلاميذ يوم صعوده (لوقا ٢٤، ٥٢). ولكن بينهما، التطويبات هي في قلب كلّ شيء: طوبى، طوبى، طوبى... إنّها تتكرّر باستمرار حتّى لا تتوقّف أبدًا. هنا يكمن ملء الأزمنة، وبالفرح نلجه.

نمط حياة فاضح وثوريّ

المميّز في هذا الفرح، هو أنّه الآن غير مشروط بأيّ شيء ولا يمكن لأيّ شيء، ولا لأيّ شخص أن ينتزعه منّا (يوحنّا ١٦، ٢٢). من الآن فصاعدًا، القرار عائد إلى كلّ شخص لكي يدخل فيه ويتوافق معه خطوة خطوة جاعلاً منه طريقه. إنّه الصبغة التي يصطبغ بها من يتبعه، سمة الإنسان الجديد الذي يتقدّم مرنّمًا، حتّى ولو كان ذلك نحو حلبة الاستشهاد والعذاب بكلّ أشكاله، كما يشهد لذلك المسيحيّون الأوائل في سفر أعمال الرسل.

يكون انقلاب القيم كاملاً. نمط الحياة الجديد الذي يعرضه المسيح فاضح وثوريّ، لدرجة أنّ معظم الذين يسلكونه لا يؤمنون به، ويظلّون متعثّرين بخطاهم على «الطريق نحو **الطريق**»، من دون أن يخاطروا إطلاقًا بالقفز نحو **الحقيقة**. إذ لا يوجد قدّيسون تعساء، ومعيار الإنسان الجديد ما عاد معيار هذا العالم: أن

يكـون غنيًّـا، ناجحًـا، بصحّـة جيـدة، عالمًـا، حائـزًا شـهادات، مثـيرًا للإعجـاب، يلتـفّ حولـه النـاس، بـل هـو عـلى العكـس تمامًـا مـن هـذا كلّه. يقـول يسـوع: طـوبى لكـم إن لم تحصلـوا عـلى أيّ شيء مـن هـذا، بـل حتّـى إذا حصـل لكـم عكـس هـذا؛ طـوبى لكـم إذا كنتـم فقـراء، بؤسـاء، محتقريـن، مظلومـين، أو مضطهديـن! أيكـون الإلـه سـاديًّا؟ أيجـب أن نكـون بؤسـاء لنكـون مغبوطـين؟

يدعونـا المسـيح بـكلّ بسـاطة إلى أن نحيـا مثلـه. عدنـا لا نعرف مـا هـو معنـى أن «نحيـا». هـو يعلّمنـا ذلـك: تعلّمـوا منّـي! (متّـى ١١، ٢٩). بـدلاً مـن أن نكـون محبوسـين في هـذا العـالم كـما نحن الآن، وعبيـدًا لحاجاتنـا ولتعلّقنـا بالأشـياء، جاعلـين حياتنا مشروطـةً بالكثير مـن الأمـور، يدخلنـا يسـوع في الحيـاة الإلهيّـة. يقـول لنـا إنّـه يمكـن أن نكـون في هـذا العـالم مـن دون أن نكـون مـن هـذا العـالم (يوحنّـا ١٧، ١٤-١٦)؛ وتوجـد طريقـة حيـاة حـرّة بالكامـل وغـير مشروطـة، وفي أصعـب الظـروف يمكـن أن يعيـش الإنسـان سـعادةً قصـوى. بـل هنـاك مـا هـو أكـثر بكثـير مـن هـذا: عندمـا لا يسـير أيّ شيء عـلى مـا يـرام، يصبـح المسـتحيل ذاتـه ممكنًـا. وفضـلاً عـن ذلـك، إذا مـضى الإنسـان حتّـى آخـر التطويبـات، فحتّـى المـوت لا يمكـن أن يصيبـه. والأغـرب هـو أنّ مـادّة هـذا التحـوّل هـي تعاسـتي الشـخصيّة.

أولى التطويبـات تحتويهـا جميعًـا، ولكـنّ كلّ واحـدة منهـا تعـبّر بطريقتهـا عـن أصالـة سرّ لا نهايـة لـه عـلى كلّ حـال. سـنجد، عـلى امتـداد هـذه الصفحـات، بعضًـا مـن أوجههـا المتعـدّدة. بـدءًا لنـدع أنفسـنا نولـد مـمّا هـو قاعـدة كلّ شيء: «الفقـر».

طوبى للفقراء بالروح لأنّ لهم ملكوت السماوات

أوّل كلام وجّهه الإله إلى الإنسان في التاريخ المكتوب كان لإبراهيم. يجب أن يكون هذا الكلام على أعلى قدر من الأهمّيّة، كما هو الحال دومًا في بدء أيّ شيء. في هذا الكلام الإلهيّ دعوة إلى ترك كلّ شيء وإلى الانسلاخ الكامل: أبرام، اذهب من أرضك (تكوين ١٢، ١)... طنّت هذه الدعوة عبر كلّ الكتاب المقدّس وأتت لتنغرس في قلب الشابّ الغنيّ في الإنجيل الذي قال له يسوع: «اذهب وبع أملاكك...» (متّى ١٩، ٢١). هذا الإنسان هو أنت، أنا، هو كلّ واحد منّا! ما من بدء لأيّ شخص من دون أن يكون فقيرًا من كلّ شيء. لا يأتي الإله مع أيّ شيء، أو طالما نحن مربوطون بأيّ شيء، أكان ذلك بخيط رفيع أو بحبل ثخين، كما يقول القدّيس يوحنّا الصليبيّ[١٤]، يكون التحليق مستحيلًا، ولا يحقّق الإنسان نفسه.

ليس الغنى بحدّ ذاته سيّئًا، إنّه حياديّ ككلّ الأشياء. ولكنّ العلاقة السيّئة معه هي التي تدخل الإنسان في تشتّت عظيم، وهي التي تقسّم النفس وترميها في التعدّديّة. هذه العلاقة السيّئة هي التي تجعل الغنيّ مشتّتًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة أي مشدودًا نحو الخارج، بلا توازن، من دون أيّ توجيه داخليّ، يستحوذ عليه عالم الأشياء ويخنقه.

يمتلك أشياء ولكن في الحقيقة هي التي تمتلكه، هو مستحوذ عليه وكيانه مخنوق وغير قادر على النضوج، كما قال يسوع عن السنابل المخنوقة بالشوك (لوقا ٨، ١٤). ولكن

[١٤] قدّيس إسبانيّ (١٥٤٢-١٥٩١)، مصلح رهبانيّة الكرمل.

لا ننسى أنّه يمكن أن نغتني بالفقر، أي أن نعتبره أمرًا نمتلكه، ويمكن أيضًا أن نكون مكبّلين بالكامل برغباتنا، برغبة ما لا نملكه ونسقط في كره الأغنياء. ربّما تكون هذه الكراهية أعظم أنواع الغنى لأنّه ما من أمر يمكن أن يمتلكنا ويستحوذ علينا أكثر منها. إنّها جحيم والمتعة التي تعطينا إيّاها شيطانيّة.

حيث تكون رغبتك يكون إلهك

الفقر بالروح يعني الفقر حتّى أقصى أعماق النفس، حتّى تجاوز الأنا الصغيرة، هذا يعني تحرير الرغبة لإعادة اتّحادها بالإله كما في البدء. عند الخلق الأوّل بالحقيقة، وضع الإله في الإنسان رغبة وحيدة **للمرغوب به الوحيد** الذي هو الإله نفسه؛ ولكن بانقطاع الإنسان عن الإله، بسبب **السقوط**، صار يسعى إلى إرضاء رغبته في أمور أخرى، فتجزّأت رغبته في التعدّديّة وبحثت عمّا يروي عطشها إلى المطلق في أوجه النسبيّة التي لا تعدّ. لهذا فالرغبة هي المعبّر القويّ عن الأنا عندنا والمقياس الحقيقيّ لحياتنا الروحيّة. طالما أنّ مركز الرغبة ليس الإله وحده، تكون هي العدو الأساس **للطريق**. نحتاج إلى يقظة شديدة لمطاردتها بجميع الطرائق التي تتخفّى فيها ولنكشفها خلف كلّ أقنعتها، مترقّبةً دومًا إرضاء المتع بطرائق ملتوية. عندما فقد الإنسان الإله، صار يعيش حالة نقص دائمة.

ولكن من فهم بالتجربة أنّه في عمق أيّ رغبة، حتّى الأصغر منها، توجد بالحقيقة الرغبة للإله، يمكن أن يصير فقيرًا من كلّ شيء آخر. يغدو وعيه موجّهًا نحو الحضور الإلهيّ الكامن في

جوف هذا الزخم الداخليّ، وليس بعد نحو شهواته. يومًا ما سيصير الإله هو الذي يستحوذ عليه ولا الأشياء. سيجد أخيرًا الرغبة الوحيدة التي تلاقي الإله داخل كلّ شيء، حتّى في المتع والإشباعات، ولكنّ هذه لن تعود سجنًا للأنا بل ستصبح عندئذ مكان الاتّحاد بالإله.

يمكن أن يصير فقر هذا الإنسان مطلقًا. يظهر ذلك عمليًّا في ثبات النفس التامّة إزاء كلّ النتائج، كلّ ردود الفعل، كلّ الظروف: أكان ذلك الحظّ الجيّد أو السيّئ، الاحترام أو الإهانة، الشهرة أو التوبيخ، النصر أو الهزيمة، الصحّة أو المرض، الأحداث المُسرّة أو المزعجة. لا يهمّه إلاّ ما يريده الإله هنا والآن. لا يريد إلاّ ما يريده الإله في كلّ لحظة، ويقبل من يده كلّ ما يحصل معه بدون أيّ تأثّر. أصغر ردّ فعل في قلبه، إزاء ما يحصل له، هو دليل على عدم الفقر وعلى الارتباط بالطبيعة القديمة.

غاية الفقر هي أوّلاً أن نتحرّر من كلّ شيء، لأنّ هذه الحرّيّة هي علامة الشخص الكبيرة. عندما يعيها الإنسان، يولد من ذاته، من سرّه الحقيقيّ، من هويّته. إنّه استرخاء عظيم؛ قفزة نحو ثقة كاملة يصير فيها المرشد في كلّ شيء شخصًا **آخر** غير الأنا لأنّ الرغبة ترتكز **عليه** وحده.

الأنا: عقبة في طريق لقاء الإله

رغم بساطة هذا الكلام، فالأمر معركة حياة. ولكنّ الطريق يمكن أن يكون سريعًا لمن قرّر أن يسلكه ويدفع ثمنه. في هذا المجال، الطريق بالنسبة إلى الهواة مسدود! من لا ينخرط فيه

بإلحاح وفي كلّ الأوقات لا يصل إلى شيء. ولكن حتّى هنا يجب أن نتوخّى الحذر، لأنّ الرغبة الوحيدة يمكن أن تخبّئ أيضًا رغبة بالقوّة، وتكبّرًا خفيًّا أكثر من كونه روحانيًّا، وبحثًا عن تحقيق الذات، ويكون ذلك بالإله! يجب أن تتلاشى كلمة «أنا»: فبعد تعلّقها بالأشياء، تكون هي نفسها غِنى لنفسها، لأنّها هي من أقام اتّصالاً بالإله؛ هي مصدر هذه الرغبة المبرّرة كلّيًّا بنظرها، لذا هي تشعر أنّها موجودة. فإن لم نمت في أنفسنا بالكامل لا يمكن أن يحصل أيّ شيء! حتّى الأنا المتعطّشة إلى الإله تظلّ متمركزة حول ذاتها، تتصرّف من تلقاء ذاتها من دون مبرّر، وتظلّ تعيش في مملكة الرغبة الخاصّة بها. بالنسبة إلى الرغبة الأنانيّة، لا يمكن أن يتحقّق أيّ شيء. التحرّر (الخلاص) لا يحصل إلاّ إذا أمتنا ذاتنا. طالما هناك «أنا»، لا تجد «**أنت**» مكانًا لها.

وحتّى إذا كان هناك مكان فهو مكان زائد لا مبرّر له! غالبًا ما نميل إلى أن نتخيّل أنّه إذا كان الإنسان خاليًا من الأنا ومن كلّ الأشياء، فسيكون هناك المكان بكلّيّته لكي يأتي الإله ويملأه. يقول الآباء إنّ هذا خطأ كبير. للمعلّم إيكارت في هذا الموضوع نظرة ثاقبة بخصوص ما يسمّيه الفقر الأصليّ بالحقيقة: حتّى الفكرة، مهما كان صغرها، بأن نهيئ مكانًا، تبدوكامتلاك، إنّها غنًى. إذا كان الإنسان خاليًا من كلّ الأشياء ومن كلّ ما هو مخلوق، من نفسه ومن الإله، يقول إيكارت، وإذا كان مازال بإمكان الإله أن يجد مكانًا فيه ليفعل، نقول: طالما أنّ هذا المكان موجود، فإنّ هذا الإنسان ليس فقيرًا بالفقر الأكثر عمقًا.

يجب ألاّ يكون عند الإنسان مكان بل أن يكون هو نفسه

المكان الذي فيه يفعل الإله، وهذا ما يحبّ الإله أن يفعله. هنا، في هذا الفقر، يستعيد الإنسانُ الكائن الخالد الذي كان ويكون وسيكون إلى الأبد.

يجب إذًا ألاّ نمتلك أيّ شيء وألاّ نحتفظ به على الإطلاق، ولا حتّى أيّ أنا تسمح باستقبال زيارة الإله، ولا حتّى أيّ غياب للأنا يمكن أن يكون أيضًا مصدرًا للافتخار. عندئذ يكون الاتّحاد بين الإله والإنسان تامًّا: يكون الإنسان واحدًا مع الإله، يتطابق مع الإله، ولا يعرف من الآن فصاعدًا أيّ أنا منفصلة عنه. لقد وجد ذاته الحقيقيّة. هنا تكمن لغة كلّ الروحانيّات، إنّها كلمات تعبّر عن رغبة المحبّة وحدها، التوحّد مع الكائن المحبوب.

نحو التشابه مع الإله

هنا يشبّه الفقر بموت. وذلك أحد أهمّ المسائل التي توسّع فيها القدّيس بولس في رسائله: كرازته بالصليب (١كورنثوس ١، ٢٣) ليست نظريّة على الإطلاق، إنّها اختبار جدّيّ ووجوديّ للاتّحاد بالمسيح في موته للتنعّم بقيامته. أن أكون مسمّرًا على الصليب مع المسيح يعني أنّ الأنا، الذات، ما عادت مبدأ أفعالي الأكثر عمقًا، بل هذه الأفعال صارت تصدر الآن من المسيح الذي يحيا فيّ. هذا الفقر هو قبول زهد كامل مع زهد المسيح، هي «طاعة حتّى الموت» (فيليبّي ٢، ٨). في هذا الانسحاق، الذي هو فقر مستمرّ للذات، يجب أن يتمكّن أيّ تلميذ حقيقيّ من أن يقول يومًا: «لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غلاطية ٢، ١٩). عندئذ ينكشف له هذا الفقر كأنّه الغنى ذاته: الإله.

الإنسان الذي يتملّكه الإله يكتشف سلوكه. ولكنّ الإله لا يملك شيئًا، هو فقير، الفقر هو الإله. كشف لنا يسوع ذلك بكلّ كيانه وكلّ رسالته: ما يؤسّس الأشخاص الإلهيّين الثلاثة في استقلاليّتهم غير المحدودة هو تجرّدهم المطلق. كلّ واحد من هؤلاء الأشخاص الثلاثة مؤسّس كلّيًّا وحصريًّا بكونه نحو **الآخر**. كما يقول الأب فاريلون[١٥]، كلّ شخص متموضع في كيانه بتموضعه في **الآخر**: في الآب، في الابن، وفي الروح القدس يستحيل على الإطلاق وجود أيّ تقوقع على الذات. الآب لا يوجد كآب إلاّ بولادته الابن، وهكذا فكلّ واحد لا يكون ذاته إلاّ بكونه بالآخرين وللآخرين. الإله هو قوّة لا نهاية لها في التخلّي عن الكون للذات وبالذات.

بحسب هذه التطويبة، الفقير هو الذي يحيا في ملكوت السماوات هذا الذي هو خاصّته، والذي صارت هذه التطويبة ما يتنفّسه. هو لا يكفّ عن اكتشاف واختبار أنّ عمق كيانه هو حبّ، شركة، وتخلّ عن الذات. بالنسبة إليه، الفقر هو **الحبّ** عينه الموجود في جذر كيانه، الذي يتعلّم فيه أنّ معنى الحياة هو وهب الذات والتخلّي عن كلّ شيء. في هذا «**الفراغ**» تنبت وردة تدعى **فرح**: ليفرح الفقراء!...

[١٥] كاهن يسوعيّ فرنسيّ (١٩٠٥-١٩٧٨).

«حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكًا وألسنتنا ترنّمًا»،
(مزمور ١٢٦، ٢)

بدأتُ بالوجود
بفيض من الفرح الإلهيّ.
ستان روجييه

المسيحيّة منذ بداءتها إعلان للفرح، للفرح الوحيد الممكن على الأرض. ومن دون إعلان الفرح هذا لا يمكن أن نفهم المسيحيّة. لم تنتصر المسيحيّة في العالم إلاّ كفرح، وقد فقدت العالم عندما فقدت الفرح وعندما توقّفت عن أن تكون الشاهد له. المضمون الأساس في الكنيسة هو «الفرح العظيم» (لوقا ٢، ١٠ و ٢٤، ٥٢) الذي منه يكتسب كلّ شيء آخر، في المسيحيّة، معناه[١٦].

الفرح: وجه الإله في الإنسان

لا يصبح الإنسان بالحقيقة إنسانًا إلاّ بالفرح، تمامًا مثل الغدير الذي لا يصبح غديرًا من دون النبع. وكما أنّ فروع الينبوع البعيدة تجهل ذلك بالتأكيد، كذلك الإنسان بغربته عن الإله نسي **الكائن الأصليّ**. لهذا راح الفلاسفة، الذين يعني اسمهم «محبّي الحكمة»، تلك التي تسبر أعماق الحياة، منذ أرسطو القديم (القرن الرابع قبل الميلاد) وحتّى بيرجسون الحاليّ (القرن

[١٦] ألكسندر شميمان، Pour la vie du monde، «من أجل حياة العالم»، منشورات Desclée

العشرين)، يذكّرون الإنسان بأنّه لا يمكن له أن يحيا من دون الفرح، وأنّه فقط حيث يكون الفرح موجودًا تنتصر الحياة. غاص الفلاسفة بعيدًا في بحور المعرفة حتّى لامسوا حدود الغموض، إذ نراهم يعلّموننا أنّ الفرح هو حقيقة كياننا، وأنّه نبض الكائن ومعيار الحقيقة، وبالنتيجة الفرح والحقيقة هما بالكلّيّة واحد!

يجعل الفرح أيضًا الشعراء يغنّون؛ بل الفرح هو الذي يجعل فنّهم غناء. أصاب بول كلوديل كعادته عندما كتب: بعيدًا عن الفرح لا يوجد إلاّ العدم، وإيمان الإنسان بالعدم يعني تدمير نفسه بنفسه والمكوث في الاضطراب الروحيّ ورغبة العيش بعكس سرّ الحياة!

أبدع الفكرُ الإنسانيّ كثيرًا واستطاع بعض الفنّانين أن يقودونا إلى عمق التجربة؛ ألا تملك الموسيقى القدرة على أن تؤجّجنا وأن تفرّح كياننا كلّيًّا لدرجة تجعله يرقص فرحًا؟ ولكن لا يستطيع الفلاسفة ولا الفنّانون أن يخبرونا «ما سبب» هذا كلّه: ما اسم الفرح وهل من وجه له؟ لذا أرسل الإله أنبياءه أبواقًا له تكشف للإنسان ينابيع الفرح، وتخبره لماذا خُلق ومن أين أتى وإلى أين يذهب:

فَيَلذُّ له نشيدي وأنا أفرح بالربّ (مزمور ١٠٤، ٣٤).

هلمّ نرنّم للربّ، صخرة خلاصنا (مزمور ٩٥، ١).

لتفرح السموات! ولتبتهج الأرض أمام الربّ، لأنّه يأتي (مزمور ٩٦، ١١-١٣).

في الحقيقة:

«الشعب السالك في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا. الجالسون

في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور. أكثرت الأمّة عظّمت لها الفرح. يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد. كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمةً. لأنّه يولد لنا ولد ونعطى ابنًا وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًّا رئيس السلام» (إشعياء ٩، ٢-٦). «ومَفديّو الربّ يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهّد، (إشعياء ٣٥، ١٠). قومي استنيري لأنّه قد جاء نورك ومجد الربّ أشرق عليك. لأنّه ها هي الظلمة تغطّي الأرض والظلام الدامس الأمم. أمّا عليكِ فيشرق الربّ ومجده عليكِ يُرى» (إشعياء ٦٠، ١-٢).

قليلون هم الذين اعتادوا قراءة هذه النصوص التي تحمل في طيّاتها فرحًا لا يوصف، مع أنّه يجب أن نعرفها بقلوبنا وعن ظهر قلب، لأنّها تشكّل ماء الحياة الذي يجب أن نشرب منه باستمرار لكي يصبح دمنا، مادّتنا المحيية. من يقول «تقليد» يقول «نقل»: فكما أنّ النبع ينتقل كلّيًا إلى الغدير، كذلك الإله ينتقل إلى الإنسان ولا يتوقّف عن خلقه ودفعه إلى الحياة. ولأنّ الإله فرح فهذا النقل هو أوّلاً اختبار فرح فائق الوصف! لذا كان متصوّفو الشرق والغرب يقولون دومًا: تعلّم الفرح لكي تتعلّم الإله.

هذا يعني أنّ من يفقد الفرح يكون ضائعًا، لا **طريق** له ولا هدف لكونه بلا نبع. أليس مدهشًا أن يُجمع العالم بأكمله على أنّ الحياة الروحيّة الحقيقيّة تُقاس بدرجة الفرح الذي يسكننا! لكون الإله فرحًا، فليست هذه الخلاصة إلاّ تماسكًا

بسيطًا لا يُبارى. فحتّى بعض الملحدين المتشدّدين سلّموا بذلك، مثل نيتشه الذي قال: إذا كان الإله موجودًا فلا يمكن أن أتخيّله إلاّ كإله يرقص.

حبّ الحياة يكشف عمقها المدهش

من الواضح إذًا أنّ **الفرح** يشكّل النسيج الأساس لكلّ الكتاب المقدّس: الفرح «**بشرى سارّة**» منذ البدء، وسيكون عنوانه الإنجيل (البشرى السارّة) علنًا عندما سيتفجّر في ملئه بمجيء الماسيّا الذي هو صورة الفرح ذاتها.

هذا الإعلان أو هذا **الحضور** الفرِح هو ما يجب أن نفهمه ولا ننساه أبدًا كلّما قرأنا في العهد القديم مثل هذه النصوص التي قد تبدو بلا قيمة، والتي تُظهر إلى أيّ حدّ أنّ الإنسان يحبّ الحياة. الحكمة الحقيقيّة بالنسبة **إلى اليهوديّ**، هي قبل كلّ شيء تذوّق الحياة كما هي: "أن نحبّ الحياة يعني أن نحبّ سعادتنا الخاصّة" (يشوع ابن سيراخ ٤، ١٢). وهكذا نجد الفرح بكلّ أشكاله في بساطة الحياة اليوميّة، أكان ذلك الفرح بالحصاد الذي يجمع مرّات عديدة لأنّه يكون كبيرًا جدًّا، أو الفرح بنتاج الكرمة، أو عندما نتقاسم الحياة مع المرأة التي نحبّ وننجب الأطفال، وحتّى الفرح باحتساء الخمر التي تفرّح قلب الإنسان (مزمور ١٠٤، ١٥). ما من تجربة إنسانيّة بلا قيمة، وما من شيء لا يمكن أن يُعاش بشدّة تجعلنا نلامس بشفافيّة هذا السرّ الغريب الكامن وراء كلّ لحظة.

وهكذا فبالنسبة إلى القلب المستيقظ، يكون كلّ شيء ظهورًا

وإعلانًا **لحضور** مُحبّ. ولكن، هناك ما هو أعظم بكثير من ذلك، فما يعطي الحياة وزنها، هو أنّها عطيّة من **الذي** يسكنها. يتطابق بالحقيقة **العطاء بالحضور**: لأنّ الإله يقدّم ذاته عبر ما يحصل لنا. لقد عرف شعب إسرائيل ذلك: وأيضًا أن يأكل كلّ إنسان ويشرب ويرى خيرًا من كلّ تعبه فهو عطيّة الله (الجامعة ٣، ١٣).

ومع ذلك عطاء الإله لا يكون أبدًا بشكل غير فعّال: بل هو **حضور** خلاّق محي يحرّك الإنسان ويحرّره باستمرار، ويثبّته على الطريق نحو الاكتمال. فهم شعب إسرائيل أنّ الإله هو الذي يفعل دائمًا؛ أكان ذلك في خفايا الحياة اليوميّة البسيطة أو في تاريخ تحرير الشعب، فالربّ هو الذي يردّ سبي صهيون، وهو الذي يملأ أفواهنا ضحكًا وألسنتنا ترنّمًا (مزمور ١٢٦، ٢). في هذا الفرح الجنونيّ يكمن جوهر الكتاب المقدّس واتّجاهه الأساس إلى أن أُعلن بمجيء المحرّر بنفسه، الماسيّا الذي ابتدأ مهمّته بإعلانه سبب إرساله: «العُمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يُطهّرون والصمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون» (متّى ١١، ٥). يستخدم يسوع هنا تعبير النبيّ إشعياء ذاته (إشعياء ٣٥، ٥) لأنّه يريد أن يظهر استمراريّة كلّ التاريخ: تاريخ تحرير لم يتوقّف قطّ واكتمل بتجسّده.

وتسمح لنا المزامير، التي هي خبزنا اليوميّ، بأن نفهم **حقيقة** كلّ الحقائق هذه ونعيشها ونذكرها طالما حيينا: «الربّ هو المجري حكمًا للمظلومين المعطي خبزًا للجياع. الربّ يطلق الأسرى. الربّ يفتح أعين العُمي. الربّ يقوّم المنحنين، (مزمور

١٤٦، ٧-٨) الـربّ يشـفي المنكـسري القلـوب، ويجـبّر كسرهـم» (مزمـور ١٤٧، ٣). بسـبب هـذا الفـرح ولـكي نتناغـم معـه، تكـون المزامـير مرتّلـة دومًـا، حتّـى عندمـا نكـون «منكـسري القلـوب». فالتعبـير بابتهـاج ودهشـة هـو وحـده الـذي يعطـي بعـدًا لمـا يحصـل، ويسـمح بـأن نـرى المياه العميقـة بـدلاً مـن سـطوح الحيـاة المضطربـة. وأحيانًـا يكـون الهيجـان لدرجـة نحتـاج فيهـا إلى كلـمات الـروح القـدس عينهـا، بفـم كاتـب المزامـير وفـرح الشـعب المجتمـع لنعـود دومًـا إلى صخـرة الارتـكاز في وسـط عواصفنـا.

لنحوّل الحياة إلى عرس أبديّ

سـبب اسـتمراريّة الفـرح ودوامـه هـو أنّـه نابـع مـن **حضـور** عـرسيّ، إنّـه فـرح **الاتّحـاد**: مَثَـلُ حـبّ الإلـه المجنـون مَثَـلُ حـبّ العريـس. إنّـه حـاضر في كلّ شيء، ليـس فقـط في الطبيعـة، بـل أيضًـا في كلّ مـكان، في الهـواء الـذي نستنشـقه، في الزمـن وداخـل الحـدث الـذي يُجريـه، في كلّ موقـف، في القصّـة القصـيرة التافهـة، في حبكتهـا السرّيّـة حتّـى أدقّ التفاصيـل، يسـعى الإلـه إلى الإنسـان عـبر كلّ شيء، تمامًـا كـما يسـعى **الحبيـب** إلى حبيبتـه، ونشـيد الأنشـاد برمّتـه يشـهد بذلـك: يريـد الإلـه أن يجعـل حيـاة الإنسـان مكانًـا لاتّحـاده بـه. يريـد الإلـه أن يقيـم شركـةً معـه مـن حيـاة الإنسـان الأكـثر واقعيّـة ومحسوسـيّة، وربّمـا «الدنسـة» بالنسـبة إلى عينينـا نحـن الوثنيّـين. يريـد أن نعيـش ملكـوت السـموات عـلى الأرض كـما قـال بنفسـه: «يشـبه ملكـوت السـموات إنسـانًا ملـكًا صنـع عرسًـا لابنـه» (متّـى ٢٢، ٢).

برع القدّيس مكسيموس المعترف حين أوضح أنّ الإنسان الذي يبادل الإله الحبّ تاركًا نفسه تنجذب إليه (إرميا ٢٠، ٧)، يصبح كاهنًا في «ليتورجية كونيّة». بين الفينة والفينة، حيث هو موجود، يتلقّى من يدي الإله العالَم ويعيده إليه بشكر لامتناه. هذا الشكر المستمرّ هو عمق الحبّ، إنّه شكر دائم يحوّل حياته إلى **حياة** في الإله وشركة معه. يقول الأب شميمان إنّ معنى الإنسان الأساس يكمن في هذه المهمّة: أن يقف ككاهن في مركز العالم ويعطيه وحدته مباركًا الإله على كلّ عطاياه وشاكرًا لكونه الكلّ في كلّ شيء. بفقدان هذه الحياة الإفخارستيّة، ما عادت حياة الإنسان حياةً في الإله وفُقدت إمكانيّة تحويلها إلى **الحياة** بالمديح. فعندما ما عاد الإنسان كاهن العالم، صار عبدًا له في شركة دائمة مع الموت عبر حياة لا حياة فيها لأنّها خالية من الإله.

ولكن حتّى في وقت السقوط، كان شعب إسرائيل يصرخ من أعماقه نحو الله (مزمور ١٣٠، ١)، ويستمرّ يعيش في الأمل لأنّه يأتي يوم، «يبيد الله فيه الموت إلى الأبد ويمسح الدموع عن كلّ الوجوه، وينزع عار شعبه عن كلّ الأرض» (إشعياء ٢٥، ٨). ورغم اليقين بعدم الإخلاص للإله، كانت الروح اليهوديّة تتوق دائمًا توقًا سرّيًا إلى مجد ربّها: «يا الله، إلهي أنت. إنّي أجول بحثًا عنك. نفسي عطشى إليك، تائق إليك جسدي، أرض ناشفة بلا ماء» (مزمور ٦٣، ٢). وكما يقول يشوع ابن سيراخ: «من يقنط من التأمّل في مجده»؟ (٤٢، ٢٥).

لذا كان الطقس في الهيكل موجودًا دائمًا ليؤجّج النار

الداخليّة في الإنسان ويعيده إلى إيقاعه الحقيقيّ. ففي تَفَجُّر هذا الفرح الليتورجيّ المعبّر عن محبّة الشعب الفائقة لربّه، كان كلّ واحد يتجدّد وينعش ذاكرته الضعيفة. أدرك الشعب اليهوديّ ملء الحياة في هذا البعد الجماعيّ للسعادة. فالوحدة يمكن أن تجعلنا فريسةً للأحاسيس، في حين أنّ هذا مستحيل إذا انتمينا إلى تقليد يحمل تحرّرًا بالفرح. لا يمكن أن نكون سعداء إلاّ مع بعضنا البعض لأنّ الوعد بمجيء المخلّص العظيم كان وديعةً لدى كلّ الشعب.

كان قلب الشعب اليهوديّ يخفق دائمًا بهذا **الوعد** الذي يسكن حنينه الكبير، والذي حوّل كلّ لحظة من الزمن إلى إشارة **لمجيء** مرتقب. مجد الإله **وحضوره** الذي يسكن كلّ شيء وفي كلّ حدث سيُظهِر وجهَه في الحقيقة. «ذاك الذي يحرّر الإنسان باستمرار ويتبعه كظِلِّه، والذي لا يدع الشمس تضربه في النهار ولا القمر في الليل كيلا تزلّ رجله أبدًا»، (مزمور ١٢١)، سوف يظهر قريبًا «مكشوف الوجه في **اليوم** العظيم، يوم النور» (عاموس ٥، ١٨) «مالئًا كلّ الأزمنة» (غلاطية ٤، ٤، أفسس ١، ١٠). كلّ فرح كان يعيشه الشعب اليهوديّ كان مبنيًّا على الأمل بهذا الفرح الماسيّانيّ.

فرح الحياة اليوميّة البسيط قيّم بحدّ ذاته لأنّه نابع من **حضور** حقيقيّ، كامل، ولكن في الوقت عينه، تتضاعف أهمّيّته لكونه انفتاحًا إلى انتظار عظيم، وإعلانًا عن تجدّد جذريّ باهر كلّيًّا، غصن برّ... (إرميا ٢٣، ٥) ممتلئًا بالعجائب والإنجازات الفائقة الوصف: «قد أنبأتُك بحديثات منذ الآن وبمَخفيّات لم

تعرفها»(إشعياء ٤٨، ٦). دم كلّ مولود يهوديّ يتهدّج بقصيدة النبيّ صفنيا الفَرَحِيَّة: «افرحي وابتهجي بكلّ قلبك، يا ابنة أورشليم! الربّ إلهك في وسطكِ. يبتهج بك فرحًا، يجدّدك بمحبّته؛ يرقص لأجلكِ مع زلاغيط كما في أيّام العيد»! (صفنيا ٣، ١٤-٢٠). إنّه فرح لا حدود له ولا نهاية، إذ ينبع منه تحرّر كلّ البشريّة الذي ابتدأ بالشعب اليهوديّ. ففي هذا الشعب يولد الماسيّا لكن ليخلّص كلّ إنسان. لا يمكن أن نفرح بالحقيقة إلاّ جماعيًّا، ولا يمكن لهذا الفرح أن يكون تامًّا ونهائيًّا إلاّ بانتصار المسيح على كلّ ما يهدّده باستمرار: الحرب، العنف، الشرّ بكلّ أنواعه، المرض، المعاناة، والموت (إشعياء ٢٥، ٨). عندئذ سيغمر كلّ الأرضَ بالسلام الماسيّانيّ الذي بشّر به إشعياء النبيّ (١١، ١-٦) وسيسمع كلّ إنسان في صميم فرحه: «الربّ سيكون لك نورًا أبديًّا وإلهك زينتك» (إشعياء ٦٠، ١٩). سيكون فرحًا لا ظلّ له يسود التجمّع العظيم لكلّ الناس الذين عقد معهم العهد الجديد.

الفرح: كلمة الإنجيل الأولى والأخيرة

نقل مجيء الماسيّا العالم من الظلمات إلى النور والفرح الأبديّين. فبتجسّد الألوهة في شخص يسوع المسيح تمّ الزمان وصار في ملئه ووصل الخلق إلى غايته، إذ أنجبت الأرض الأمّ الإله شخصيًّا بعد حبل دام آلاف السنين: «هوذا العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمّانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (متّى ١، ٢٣). تحقّقت كلّ الكتب ونبوءات الأسلاف بهذا الفرح الذي لا يوصف. بل هناك ما هو أكثر من ذلك: هذا الحدث هو في

صميم المغامرة الكونيّة. فتوسّع المجرّات ونشأة الحياة ونجاحها على كوكبنا وظهور تاريخ الإنسان، كلّ ذلك يتقارب من هذه اللحظة: بكلمة الإله خُلِق كلّ شيء. أمضى الكون ١٥٠ مليار سنة ليكوّن إنجاز الله العظيم. ومنذ ذاك الحين صار الكثير من الناس يعدّون الأيّام والقرون ابتداءً من ذاك اليوم الوحيد الذي قسم الزمن إلى قسمين: «قبل يسوع المسيح» و«بعد يسوع المسيح»! **به**، أخذ **المطلق** وجهًا له، لقد كشفت الحقيقة النهائيّة اسمها بيسوع المسيح: الإله **فرح**!

أرسل الروح القدس التلاميذ يوم العنصرة لإعلان هذا الفرح إلى كلّ مخلوق حتّى أقاصي الأرض (أعمال ١، ٨). عندما صعد المسيح إلى السماء صار غير منظور في فلسطين، لأنّه أصبح منذ هذه اللحظة حاضرًا في كلّ الكون، في قلب كلّ إنسان وفي كلّ التاريخ إلى انقضاء الدهر (متّى ٢٨، ٢٠). كما قال القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ[١٧] (القرن الرابع): المساوي للآب في الجوهر قد أخذ طبيعتنا البشريّة لكي نتألّه. لذا **فالفرح** الذي هو الإله أصبح بالمسيح مادّتنا الخاصّة! وجعل القدّيس بولس الرسول من هذا الفرح أساس كرازته: ونحن جميعًا ناظرين مجد الربّ بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد من الربّ الروح (٢كورنثوس ٣، ١٨). «لأنّ الله الذي قال أن يُشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا

[١٧] ويلقّب أيضًا بالنازينزيّ نسبة إلى مدينة نازينز التي كان والده أسقفًا عليها. حارب الهرطقة الآريوسيّة والأبوليناريّة الخاصّتين بأقنوم الابن. كما حارب الهرطقة الشكلانيّة التي أوجدها سابيليوس في القرن الثالث والتي نادت بالوحدانيّة المطلقة، وبأنّ الآب والابن والروح القدس ليسوا أشخاصًا متمايزين بل أشكال للإله الواحد. ويعتبر أشهر من شرح عقيدة الثالوث القدّوس، لدرجة أنّه لقّب بلاهوتيّ الثالوث.

لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كورنثوس ٤، ٦). علينا ألاّ نعيش إلاّ مع **قول** واحد فقط من هذه الأقوال لسنوات عدّة، لكي نؤجّج نار **القائم** من بين الأموات في داخلنا، كما يفعل بعض الرهبان في الصحراء. يقول بول إيفدوكيموف[١٨]: «يتّقد تلميذ المسيح كلّيًّا بالفرح الفصحيّ الذي يصير منارة وجوده وصوت حياته الصحيح. فالحمل القائم من بين الأموات يجعل كلّ شيء يتلألأ، حتّى الأواني تلمع بنور عجيب يظهر لمن يعرف كيف ينظر إليها».

من دون هذا الفرح تصبح المسيحيّة ذاتها، كما هي، غير مفهومة، وتصبح الكنيسة بلا فائدة. في كلّ لحظة، أستطيع أن أعبّر عن **الحبّ** بالفرح أو أن أخونه بدون الفرح! لهذا السبب يطلب يسوع من تلاميذه أن يكونوا مغمورين بهذا الفرح العظيم. قليلون هم المسيحيّون الذين يدركون أنّ هذا الطلب يشكّل وصيّة بحدّ ذاتها: «كلّمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويُكمَل فرحكم» (يوحنّا ١٥، ١١). بل هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ لا قداسة من دون فرح فهو الدليل الحقيقيّ على أنّنا على **الطريق**. لذا فالقدّيس بولس الرسول كان دائمًا يركّز على أهمّيّة الفرح: «افرحوا، اكملوا (٢كورنثوس ١٣، ١١)، افرحوا في الربّ كلّ حين وأقول أيضًا افرحوا! والسبب هو أنّ الربّ قريب» (فيليبّي ٤، ٤).

يكمن فرحنا في أنّ الإله موجود وأنّه أتى إلينا، إلى أعماقنا. وجود الإله يكفي. ومعنى أن نعيش ملء الفرح بما هو الإله

---

[١٨] فيلسوف ولاهوتيّ روسيّ (١٩٠٠-١٩٧٠) عاش معظم حياته في فرنسا، ألّف العديد من الكتب منها: L'Art de l'icône, théologie de la beauté، «فنّ الأيقونة، لاهوت الجمال»، L'Esprit Saint dans la Tradition orthodoxe، «الروح القدس في التقليد الأرثوذكسيّ»، L'Amour fou de Dieu، «حبّ الإله الجنونيّ»...

وأن نشكر في كلّ زمان ومكان من أجله، هو أن نبذل قصارى جهدنا في التخلّي عن الذات والابتعاد عن الأنانيّة، هو أن ندخل في تواضع المغارة التامّ وألاّ نرى إلاّ بهاء يسوع، فيحوّلنا جمالُه.

«أفيض فرحًا وسط كلّ اضطرابي»

(٢كورنثوس ٧، ٤)

يسطع الفرح في كلّ أسفار الكتاب المقدّس.
من ضحكة سارة إلى فرح طوبيا، من دموع فرح يوسف،
ابن يعقوب إلى رقص ميريام[١٩] أمام تابوت العهد
ومن نشيد حنّة إلى **التعظيم**[٢٠]
إنّه تسبيح عظيم دائم...
ستان روجييه

في كلّ الأزمنة، بحثت البشريّة التي لم تكن تعرف الإله عن قمم الحكمة. من سقراط، نموذج الحكيم عينه، إلى بوذا، ذاك الهيمالايا من الهدوء والسيطرة على الذات، من المشرق إلى المغرب، كان معروفًا بأنّ بلوغ هذه القمم يتمّ عندما يصبح الفرح غير متزعزع، وعندما لا يعود بإمكان أيّ شيء ولا أيّ ظرف خارجيّ نزعه أو الإساءة إليه. أي أن تكون سعيدًا وأنت مريض، سعيدًا وأنت بخطر، سعيدًا وأنت تموت، سعيدًا وأنت مُعدم،

[١٩] أي مريم بالعبريّة.

[٢٠] هو التعظيم الذي أطلقته مريم عندما زارت أليصابات والذي يبتدئ بعبارة: «تعظّم نفسي الربّ...» (لوقا ١، ٤٦).

هـذا مـا كان يقولـه إبيكتيتُـس[٢١] وكلّ الرواقيّـين[٢٢] (القـرن الأوّل). «بالفـرح الكامـل، نكـون مـن دون أعـداء في هـذا العـالم العـدوانيّ»، مقولـة شـهيرة لبـوذا تترجـم بشـكل جيّـد مسـيرته المذهلـة، مندفعًـا بشـكل محـيّر للغايـة حتّـى حـدود الغمـوض.

الفرح غير الصحيح[٢٣]

الحكيـم محصّـن، لـذا يلازمـه فـرح لا يمكـن لأيّ شيء أن يقلقـه. لكـن مـا هـو هـذا الفـرح السـاكن فيـه؟ فاختبـار السرّ الـذي يظـنّ نفسـه قـد بلغـه يشـغل بالـه ويجعلـه يغـوص في انتظـار لا يمكـن تعريفـه. في عمـق ابتسـامة بـوذا وفي اختـلال سـقراط عنـد شربـه الشـوكران[٢٤] يكمـن حنـين هـو أكـثر حنـين فائـق للوصـف. كأنّ هـذا الحنـين يمـضي شـتاء انتظـار، لأنّ قلـب الإنسـان لا يصـل إلى الكـمال مـن دون اللقـاء النهـائيّ، الـذي هـو مـع وجـه المسـيح، الوجـه الحقيقـيّ لـكلّ فـرح. وهـذا مـا يفـسر أنّ فـرح الحكـماء، وأيضًـا كلّ

---

[٢١] فيلسـوف رومانيّ ناطق باليونانيّة (٥٠-١٣٠ تقريبًا)، ولد في هيرابوليس في آسـيا الصغرى عبدًا. إبيكتيتُس ليـس اسمـه الحقيقـيّ بـل كلمة يونانيّة تعني العبد. تحـرّر ودرّس الرواقيّة في روما، ثـمّ انتقل إلى نيكوبوليس في اليونـان حيث أسّـس مدرسـة. من أشـهر أقوالـه: «يجب ألاّ تطلـب أن تأتيك الأحداث كما تريـد، بل يجب أن تريدها كما تأتيك».

[٢٢] هو تيّار فلسفيّ يونانيّ قديم. يسمّى بالفرنسيّة stoïcisme، نسبة إلى كلمة stoa اليونانيّة والتي تعني الرواق. سمّي كذلك لأنّ أتباعه كانوا يتجمّعون تحت رواق أثينا. مؤسّسه زينون القيسيونيّ (٣٣٥-٢٦٤ ق.م). يصف هذا المذهـب الكـون علـى أنّه كلّ مترابط ومتناغم في تغيّر مسـتمرّ تحت تأثير النار الإلهيّة التي هي المبدأ المنظّم كلّ شـيء. الحكمة بالنسـبة إلى زينون القيسـيونيّ هي العيش في تناغم مع الطبيعة والحكيم هو المسـيطر على ذاته كلّيًا. من أشهر أتباع هذا المذهب إبيكتيتُس والأمبراطور الرومانيّ مارك أوريل (١٢١-١٨٠).

[٢٣] هنـاك تطابـق لفظيّ بالفرنسـيّة بين كلمة «malheureux» التي تعـني الحزين وعبارة «mal heureux» التي تعني فرح غير صحيح.

[٢٤] نبات عشـبيّ قاتل، كان مصدر السـمّ الرسميّ عند الأثينيّين القدماء. أعدم سـقراط العام ٣٩٩ قبل الميلاد من طريق تناول جرعة من محلول الشـوكران.

أفراحنا نحن جميعًا، مهما كانت درجة تحقيقها متواضعة، هي هذا الحضور المستتر للمسيح، أعرفنا ذلك أم لا.

وهكذا نستطيع أن نرى فعل المسيح في مجيئه، وهو يشقّ طريقه نحو الإنسان عبر أفراحه. فكلّها إعلان لمجيئه. لكنّ الاكتمال لا يتمّ إلاّ بلقائه وجهًا بوجه. إن كان الفرح مجرّد شعور فبمَ يفيدنا؟ هذا الحزن، الذي هو بالحقيقة فرح ناقص، الموجود في فرح الحكماء لا يتلاشى إلاّ بملاقاة الفرح **كشخص**، إنّه **أحد** ما، والإنسان، كلّ واحد منّا، لا يحقّق ذاته إلاّ عبر علاقته **معه**، وبالدخول في فرحه: «أدخل إلى فرح سيّدك» هذا ما يقوله المسيح (متّى ٢٥، ٢١). هنا يكمن تجديد المسيحيّة العجيب الذي لا يمكن أن يشكّ فيه أيّ حكيم من البشريّة، لأنّ الفرح كان هو إعلانه اللاإراديّ، والذي مازالت كلّ أفراحنا تحمله حتّى اليوم.

لهذا السبب نقول إنّ المسيح يطلب من تلاميذه أن يتهلّلوا بفرح كبير أسبابه تفوق إدراك الإنسان، إنّها تكمن في حقيقة وجود الإله المزعِزعة وحدها. ففي فرح الحبّ الشفّاف هذا الذي بلا مقابل والمقدّم كلّيًا وبلا تحفّظ يكمن خلاص العالم[٢٥]. الإله موجود في الجزء الأكثر عمقًا منّي، لأنّه اقترن بيسوع المسيح، بجسدي ودمي، وبنزوله إلى ظلماتي وموتي، أنارني بفرح قيامته. هنا يكمن خلاصي وتحرّري النهائيّ. لكنّ الأمر الآن هو أن أعيش ملء هذا التحرّر وفي كلّ لحظة. في هذه الحقيقة الوحيدة تكمن بشارة الرسل الأوائل، إنّها نواة رسالتهم التي

[٢٥] بول إيفدوكيموف، «L'amour fou de Dieu»، «حب الإله الجنونيّ»، منشورات Le Seuil، صفحة ٧١-٧٢.

تسمّى «الكيريجم[٣٦]»؛ لم يكن لديهم أيّ شيء آخر ليعلنوه إلى أقصى الأرض (أعمال ١، ٨)، ولكن، حول هذه النواة ينقلب كلّ تاريخ البشريّة وحياة كلّ واحد منّا.

الفرح: نار تلتهب

القدّيس بولس هو الشاهد الأكثر روعة على هذه المغامرة العظيمة. فعندما وقع عن حصانه، أثناء مسيرته على طريق دمشق لدى رؤيته جمال المسيح القائم من بين الأموات، اختُطف كامل كيانه. أدرك القدّيس بولس فجأة وعن اختبار، أنّه لن يكون له بعد ذلك أيّ فرح آخر، وأنّ حياته لن يكون لها الآن معنى آخر إلاّ إعلان هذا النبأ السارّ للجميع. لقد طاف، حتّى نهاية أيّامه واستشهاده في روما، كلّ أرجاء حوض البحر المتوسّط ليعلن في كلّ مكان **إنجيل** فرحه هذا، الذي ما هو إلاّ المسيح شخصيًّا.

كلّ الجماعات التي أسّسها، أي الكنيسة، بنيت على هذا **الفرح**. لا شيء كان بإمكانه أن يوقفه في شغفه الوحيد، لا السجن الذي أقام فيه كثيرًا من المرّات، لا التعذيب بمختلف أشكاله الذي تعرّض له، لا الأخطار التي لا تحصى على الطرقات وفي البحار في أيّامه، لا العذاب ولا الموت الذي قاربه مرّات كثيرة؛ وحتّى عندما كان يعتقد أنّه أمسى وسخ العالم وأتعس من في الكون، لم يكن فرحه إلاّ يزداد ترسّخًا وإنارة لوجوده، مهما

[٣٦] كلمة يونانيّة معناها الإعلان بصوت مرتفع. وكانت تطلق عند المسيحيّين الأوائل، على إعلان الإيمان بيسوع المسيح ابن الإله المخلّص القائم من الموت. أوّل كيريجم في العهد الجديد هو للقدّيس بطرس في يوم العنصرة، (أعمال ٢، ١٤-٣٦).

كانت أحيانًا فظاعة الاضطراب. بالنسبة إليه، قد قام المسيح من بين الأموات، ولن يعود بوسع أيّ شيء أن يكون له الكلمة الأخيرة؛ إذ هزم كلّ شرّ نهائيًّا: «من سيفصلنا عن محبّة المسيح؟ أشدّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟. ولكنّنا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبّنا. فإنّي متيقّن أنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوّات، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا عل ولا عمق، ولا خليقة أخرى، تقدر على أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا»، (رومية ٨، ٣٥-٣٩).

فبهذه الطاقة الفاعلة التي تحيي، أسّس القدّيس بولس **الجماعات.** إنّها المكان الذي يستطيع فيه كلّ إنسان، أن يختبر بدوره فرح تحرّر جذريّ، وتجدّدًا مطلقًا يريد الإله أن يهبه مجّانًا لكلّ واحد، تمامًا كما وهبه للقدّيس بولس. بالنسبة إلى الذي يقبل أن يسقط عن حصانه ويترك كلّ الآلهة المزيّفة التي لا فرح فيها، هناك قبل وبعد: تنتظم حياته كلّها حول هذه التجربة الوحيدة. لا يعود أيّ فرح ممكنًا بالنسبة إليه بعيدًا عن سرّ الإنجيل هذا: «إذًا لا يفتخرنّ أحد بالناس! فإنّ كلّ شيء لكم... وأمّا أنتم فللمسيح، والمسيح لله»، (١كورنثوس ٣، ٢١).

فبينما ينخرط الإنسان الذي لم يتغيّر في عمق نفسه في العديد من الأشياء، متعلّقًا ومقيّدًا، يكون التلميذ الحقيقيّ متحرّرًا من كلّ شيء، ومنتميًا إلى المسيح وحده: ما من فرح أعظم من ذلك؛ الكلّ مدعو إلى هذا المجد (٢تسالونيكي ٢، ١٤)، إنّه يجعل منه، وأيضًا من الجماعات، أولادًا لله يضيئون كأنوار

في العالم في وسط جيل معوجّ وملتوٍ (فيليبّي ٢، ١٥).

هذا الفرح هو شعلة نار تلتهب في قلب القدّيس بولس (٢كورنثوس ١١، ٢٩) ولا تتوقّف عن الانتشار كالنار ذاتها لأنّ محبّة المسيح تحصره (٢كورنثوس ٥، ١٤). بولس «يحيا من جديد» عندما تصير نار الفرح هذه قويّة: «أيّ شكر نستطيع أن نعوّض إلى الله من جهتكم عن كلّ الفرح الذي تفرحون به قدّام إلهنا»؟ (١تسالونيكي ٣، ٨-٩). القدّيس بولس في نشوة بسبب فرح المسيح الذي يسكنه، ولكن عندما ينجح في إيصاله إلى آخرين، عندئذ تصير النشوة في أوجها: فتمّموا فرحي حتّى تفتكروا فكرًا واحدًا ولكم محبّة واحدة بنفس واحدة، مفتكرين شيئًا واحدًا... فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع (فيليبّي ٢، ٢-٥). يذهب هذا بعيدًا جدًّا حتّى إنّه في النهاية، يصير فرح الآخرين أهمّ من فرحه ويصبح بالنسبة إليه، معيار كلّ فرح: أسوأ تعاسة يمكن أن تصيب بولس هي أن يكون منفصلاً بعيدًا عن المسيح، ومع ذلك، فهو يفضّل ذلك، بشرط أن يترافق مع اكتشاف إخوته للمسيح (رومية ٩، ٣). إنّه جنون الحبّ الأكثر مجّانيّة الذي يعبّر عن أنّ فرحه لا يسبر غوره.

معرفة المسيح: ولادة بالفرح

نحن هنا عند ذروة ما يمكن أن يسعى إليه الكائن البشريّ. الكلّ يكمن في هاتين الكلمتين للقدّيس بولس: معرفة المسيح! هنا تكمن ذروة الخير ولا شيء إلى جانبها. يجب أن نقرأ مرارًا جمل رسالته إلى أهل فيليبّي هذه التي تحتوي خلاصة كلّ

فرح يمكن تصوّره، يجب أن نحتفظ بها، نقرأها ونعيد قراءتها، ندوّنها، لتصبح أحرفًا من نار داخل القلب، نجعلها تترسّخ في نَفَسنا حتّى تدخل في ذاكرة خلايانا المتراخية، ويومًا ما سيحدث نفاذ وتبزغ الثمار الأولى:

«ما كان لي ربحًا، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إنّي أحسب كلّ شيء أيضًا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربّي، الذي من أجله خسرت كلّ الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح، وأوجد فيه. لأعرفه، وقوّة قيامته، وشركة آلامه، متشبّهًا بموته، لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات. إنّي أسعى لعلّي أدرك الذي لأجله أدركني أيضًا المسيح يسوع» (فيليبّي ٣، ٧-١٢).

معرفة المسيح هذه هي عِماد حياة كلّ مسيحيّ وموته. وبها أيضًا يكمن معنى معموديّته: المعرفة هي ولادة جديدة بالمسيح، تبتدئ بهذا السرّ الكنسيّ وتتوطّد باستمرار على مدى الحياة: «من الآن الحياة هي المسيح» (فيليبّي ١، ٢١). بالإضافة إلى ذلك، ما من حدّ لهذه المعرفة التي تنفتح إلى ما وراء وجودنا. «حيث نكون كلّ حين مع الربّ» (١تسالونيكي ٤، ١٧). هذا الفرح النهائيّ المالئ الكلّ، الذي ما من أمر يمكنه أن يقيس ألقه، هو ليس مجرّد مستقبل بعيد، وتاليًا غير واضح وغير ثابت بعد، بل يشعّ منذ الآن على وجودنا ويغيّره كلّيًّا.

منذ مجيء المسيح في التاريخ، صارت كلّ لحظة منفتحة إلى سُموّ مسكون، لقد ابتدأت الحياة الأبديّة، «ها ملكوت الله داخلكم» (لوقا ١٧، ٢١). وانطلاقًا من ذلك يجب أن يكون

كلّ شيء مشبعًا بهذه **الحقيقة** الرائعة ويجب ألاّ يكون سلوك المسيحيّ مفهومًا إلاّ بذلك! «وإلاّ فهو كالباقين الذين لا رجاء لهم» (١تسالونيكي ٤، ١١). فرحنا ناتج من مشاركة روحيّة وجسديّة كاملة بمجد المسيح القائم، الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (فيليبّي ٣، ٢١): ما من فعل إذًا لا يقدر على أن يعبّر عن ذلك؛ أيّ فعل إراديّ يشعّ بهذا **الحضور**، فبالمسيح بالحقيقة نحيا ونتحرّك ونوجد (أعمال ١٧، ٢٨).

ولكن لدخول هذا الفرح التامّ، يجب حتمًا أن نتعلّمه. هذا الطريق هو المسيح نفسه، إنّه يمرّ بالعذاب والموت. المسيح هو ما يحرّك التلميذ، وليس الفرح، وإلاّ كلّ حياته مجرّد ضلال! اختيار الفرح، هو أن نختار ذاتنا وأن نغذّي مجدًا ذاتيًّا خفيًّا. أمّا اختيار المسيح، فهو الدخول **معه** بعلاقة غير مشروطة أجازف فيها بكلّ حياتي واهبًا إيّاها له ليفعل بها ما يراه حسنًا. وبما أنّ هذا الاختيار هو دومًا غير واضح بسبب الحالة الإنسانيّة، فإنّه سيمرّ بنار الاختبار، تمامًا كالمعدن الذي يُنقّى ليصير ذهبًا. أن نتبع المسيح وأن نتشبّه به، هو إذًا أن نشترك أيضًا بالمسيح المصلوب، هو أن نقبل أن نكون مثله مضطهدين، مغبونين، محكومًا علينا بالموت وأن نحبّ أيضًا رغم كلّ ذلك الذين يكرهوننا، أعداءنا. تهيننا الحياة كلّ يوم بألف طريقة، ولكنّ الأفضل لنا هو قبولها كما هي من أجل المسيح: بالاشتراك بها كلّيًّا نشترك بالمسيح الموجود فيها. الاشتراك بآلام المسيح عبر آلامنا يعني أن نتعرّف إليه إلى أقصى درجة، إنّه

فـرح غـير موصـوف كامـن في مـاوراء كلّ شيء، ورغـم ذلـك هـو في قلـب حالتنـا الأكـثر مأسـاويّة:

«نحـن جهّـال مـن أجـل المسـيح. نجـوع ونعطـش ونعـرى ونلكـم وليـس لنـا إقامـة، ونتعـب عاملـين بأيدينـا. نُشـتم فنُبـارك. نُضطهـد فنحتمـل. يُفـترى علينـا فنعـظ. صرنـا كأقـذار العـالم ووسـخ كلّ شيء إلى الآن... حاملـين في الجسـد كلّ حـين إماتـة الـربّ يسـوع، لـكي تظهـر حيـاة يسـوع أيضًـا في جسـدنا. كحـزانى ونحـن دائمًـا فرحـون». (١كورنثـوس ٤، ٩-١٣؛ ٢كورنثـوس ٤، ١٠ و٦، ١٠).

إلى نبع كلّ فرح

كلّ شيء يكمـن بالنسـبة إلى القدّيـس بولـس في هـذه العبـارة الصغـيرة: مـن أجـل المسـيح. مـن **أجلـه** مـا عـادت هنـاك تجربـة أو معانـاة لم تتحـوّل. أن نجـده **هـو** في قلـب المعانـاة يعنـي أنّ المعانـاة ذاتهـا محبوبـة، وحتّـى المـوت. «أيـن شـوكتك يـا مـوت»؟ (١كورنثـوس ١٥، ٥٥). مـا عـادت هنـاك إذًا أيّ عقبـة إلى الفـرح: مـن أجـل المسـيح وبـه، الفـرح ممكـن كلّ حـين وعـلى كلّ شيء (أفسـس ٥، ٢٠). هـذا يفـسّر لمـاذا يتحـدّث القدّيـس بولـس دومًـا عـن المعانـاة بشـكل إيجـابيّ، كـما لوكانـت مكانًـا لتجربـة سـامية: «وأمّـا مـن جهتـي، فحاشـا لي أن أفتخـر إلاّ بصليـب ربّنـا يسـوع المسـيح» (غلاطيـة ٦، ١٤)، «الآن أفـرح في آلامـي لأجلكـم» (كولـوسي ١، ٢٤). يقـول الرسـول بولـس إلى أهـل فيليبّـي: «قـد وُهـب لكـم لأجـل المسـيح لا أن تؤمنـوا بـه فقـط، بـل أيضًـا أن تتألّمـوا لأجلـه» (فيليبّـي ١، ٢٩).

نحن لا نبحث عن المعاناة من أجلها هي، ولكن عندما تكون موجودة فهي لا تزيل الفرح على الإطلاق بل تقوّيه أكثر، لأنّ ثبات المسيح ومثابرته كانا عند الصلب أكثر منهما في أيّ وقت آخر؛ بهذا يُدخلنا في عمقه الذي لا يمكن للكلمات أن تصفه. تتحدّث المعاناة في الصمت وتشهد بانتمائنا السرّيّ إلى المسيح: «إنّي حامل في جسدي سمات الربّ يسوع» (غلاطية ٦، ١٧). الإنسان الذي يمشي في هذا **الطريق** يصير خليقة جديدة في عالم متحوّل (٢كورنثوس ٥، ١٧). يصير متّحدًا بالمسيح المائت والقائم (رومية ٦، ٥) ولا يعود مالكًا نفسه. نبع فرحه هو فصح سيّده الذي يتلقّى منه ذاته في كلّ لحظة لحياة جديدة كلّيًّا، يقول القدّيس بولس: «لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غلاطية ٢، ٢٠). هذا الفرح الآتي من أعماق كيانه هو الذي ينتشله بولس ليتقاسمه مع كلّ الناس، هنا تكمن نقطة توهّج إنجيله: «كونوا متشبّهين بي» (١كورنثوس ٤، ١٦).

وهكذا فعندما يتوافق التلميذ مع المسيح عبر شركة حميميّة لهذه الدرجة، فهو يتقاسم فرح المسيح نفسه، أي علاقته الحميميّة الخاصّة مع الآب! يريد المسيح أن يدخلنا في هذه العلاقة الفائقة الوصف التي نصير فيها **معه** أولادًا بالتبنّي (أفسس ١، ٥). أن نكون أولادًا يعني بالنسبة إلينا أن نولد **بالفرح** الذي هو الآب شخصيًّا والذي يلد أزليًّا المسيح. هنا يكمن **نبع** حياتنا، وهذا **النبع** موجود خلف كلّ حياة وفي كلّ لحظة من حياتنا اليوميّة. لهذا فالسلوك الأساس لابن يريد أن يتلقّى ذاته من الآب هو إصغاء دائم، يضع به أذن كلّ كيانه على اللحظة

الحاضرة ويستقبل الحياة كما تأتي، ليشترك بالكامل مع إرادة الإله، تمامًا كما علّمنا المسيح ذلك عبر حياته. جودة فرحنا وعمقه متناسبان مباشرة مع هذه الطاعة التي هي تقدمة حياتنا الكاملة للإله.

غير أنّ ذلك مستحيل من دون مساعدة الروح القدس. **الروح** هو الذي يجعل المسيح حاضرًا بالنسبة إلينا ويفتح لنا الطريق للآب، **بالروح** إذًا، ينتقل الفرح إلى الناس. كما أنّ الحياة «الروحيّة»، أي الحياة بحسب الروح القدس، تتعيّن بالفرح، الذي هو الإشارة الكبرى **لحضوره** (غلاطية ٥، ٢٢). إشارة إلى الشخص الذي يحياها وإلى الآخرين، شهادة لحياة صادقة ومحيية لمن يقترب منهم. بالحقيقة، لا يبحث الإنسان إلاّ عن الفرح، وبه يتصالح الإله مع العالم. لهذا فعندما تلتقي جماعة كاملة لتحتفل بهذا الفرح في عيد مشترك، يكون ذلك إشارة إلى كلّ البشريّة، إنّه خميرة لخليقة جديدة مدعوّ إليها كلّ الناس (أفسس ١، ١-١٥). هذه هي دعوة الكنيسة عينها.

تحيا الكنيسة، التي هي جماعة المسيح والروح القدس، مثل هذا الاحتفال، إنّها فريدة في كلّ البشريّة، لأنّ الكنيسة هي وحدها التي تملك «القدرة» على الفرح الذي ليس له حدّ، لأنّ **الروح** يضع فيها باستمرار سرّ **حضوره**. ولهذا فالكنيسة تقدر أيضًا على أن تستقبل أنين كلّ البشر (رومية ٨، ٢٢)، ذاك الأنين الذي لا يقدر على أن يجد مأوى له إلاّ الفرح. الكنيسة هي هذا المختبر لصيرورة أخرى، إنّها أمّنا التي تبدّل الأسى العقيم لكلّ واحد: افرحي أيّتها العاقر التي لم تلد، اهتفي واصرخي أيّتها

التي لم تتمخّض (غلاطية ٤، ٢٦-٢٧). هذه هي ولادة لا نهاية لها، لأنّ الكنيسة هي على الأرض الإعلان لأورشليم السماويّة التي سيصل فيها الهتاف إلى تمامه؛ ينتقل هذا الهتاف حاليًّا من ملء إلى ملء وسيمضي إلى ما يفوق كلّ ما يمكن أن نتصوّره... (أفسس ٣، ١٩-٢١). أهمّ شيء هو ألاّ نقع في الخطأ: فالكنيسة ليست تلك المؤسّسة الاجتماعيّة السياسيّة أي تلك الصورة التي غالبًا ما يختزلها فكرنا!

حزن الإنسان العظيم والوحيد

في هذا التناغم، لن يذهلنا أنّ رسالة القدّيس بولس الرئيسة، إزاء مأساة الوجود الإنسانيّ العظيمة، واضحة كلّيًّا: هناك حزن وحيد عظيم للإنسان، هو ألاّ يعرف يسوع المسيح!

يعلّمنا القدّيس بولس أن ننظر إلى كلّ الحقائق البشريّة من وجهة النظر هذه فقط، وأن نكتشف كيف أنّ ذلك يبدّل كلّ برامجنا البشريّة، وكيف يغيّر جذريًّا مستوى قراراتنا وتساؤلاتنا. فقط في هذا الأفق الوحيد، الذي هو التأصّل في المسيح القائم، يمكن للإنسان أن يتبيّن قليلاً معنى الأسى المذهل لبشريّة من دون الإله. ولكن معه وبه كلّ إنسان مدعوّ إلى الفرح (رومية ٤، ٩)، ومنذ الآن، أكان المسيحيّ إزاء الموت أو تحت ضربات العنف الذي ينهال عليه، أو مهما كانت الأحداث الخارجيّة، فحياته دومًا حياة ملوكيّة، حياة مجد وليست حياة رعب. كلّ شيء بالنسبة إلى القدّيس بولس يكمن في العلاقة مع الإله. إن كانت غير موجودة فالإنسان في «الخطيئة» التي هي مصدر كلّ حزن

والموت عينه (رومية ٥، ١٢).

بالمسيح، على العكس، لا يعود تعريف الإنسان، بحسب هيدغر[٢٧]، ككائن للموت، بل ككائن للحياة النهائيّة والمجد الذي لا يفسد أبدًا. لا يفلت المسيحيّ من الحالة المشتركة، فهو يعيش في الخطيئة والموت كأيّ شخص، ولكنّ المسيح بغمره إيّاه **بحضوره** المحرِّر، انتزع من الشرّ قدرته القدَريّة. لهذا حيث تكثر الخطيئة، تزداد النعمة جدًّا (رومية ٥، ١٢)، أي يزداد الفرح.

يتعايش الفرح والعذاب إذًا في الإنسان، كالنور والظلمة (يوحنّا ١، ٤-٥)، ولكن يقع على عاتق الإنسان أن ينتصر الفرح الذي اكتسبه بالمسيح، بل أكثر من ذلك: أن يتحوّل العذاب ذاته إلى فرح! يتلقّى هنا التلميذ أسمى درس من **سيّده**، الدرس الذي كانت كلّ حياته تشكيلاً له. في النهاية، ما من فرح آخر ممكن غير صلب أنفسنا في عذاب المسيح وموته: إنّه القبول الكامل لما لا يُقبل في الحياة اليوميّة، من التفاصيل المهملة، والملل الاعتياديّ كما تقول ببراعة فيرونيك ناحوم[٢٨]، وحتّى أكثر الحالات جحيميّة. أن نعانق ما يحصل لنا وأن نأخذه بمحبّتنا، وأن نلتصق بالكامل مع اللحظة، كما كان المسيح ملتصقًا بالكامل على صليبه، هو أن نوصل النور إلى أحلك الظلمات والفرح إلى العذاب. هذا الالتصاق الفرِح بما هو حاصل، من لحظة إلى لحظة، يُبان غالبًا لأعيننا متناقضًا جنونًا وفضيحة، ولكنّ إدراكنا نفسه، أي محلّل هذا الدهر، يجب أن يُصلب لنكتشف أنّه توجد حكمة مختلفة

---

[٢٧] مارتن هيدغر فيلسوف ألمانيّ (١٨٨٩-١٩٧٦) ركّز في فلسفته على مفهوم الكيان، من أشهر مؤلّفاته الكيان والزمن ١٩٢٧.

[٢٨] باحثة أنثروبولوجيا فرنسيّة معاصرة.

بالكامل عن حكمة «الأذكياء»!

«اختار الله جُهّال العالم ليُخزي الحكماء. واختار الله ضعفاء العالم ليُخزي الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمُزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود» (١كورنثوس ١، ٢٧-٢٨).

وحده هذا القبول الكامل لما يحصل لنا ولما نريد أن نتلقّاه من الإله، هو الذي يحرّرنا من كلّ فرح وهميّ ويحقّق مصداقيّة أحاسيسنا. إن كان المسيح هو الحياة (يوحنّا ١٤، ٦)، فلا يمكن أن ندخل في شركة **معه** إلاّ إذا كنّا بكلّ بساطة واحدًا مع الحياة، وبالشكل الذي تكون حاضرة به. إنّ أعماق المحيط الموجودة مع الأمواج والعواصف هي ذاتها الموجودة مع المياه الهادئة. ليس الفرح مهربًا للتلميذ من مأساة الوجود الإنسانيّ، بل تشارك بالكلّ، بكلّ امتداد التاريخ كمكان يحيا فيه **فصح** المسيح، إنّه تحويل دائم للموت إلى حياة. ذلك بعيد عن مجرّد شعور رقيق لا يمكن إلاّ أن يخون الإنسان والإله.

بتجسّد المسيح، يقترن الإله بالحالة البشريّة حتّى آخر تفاصيلها ليضع فيها فرح **قيامته** الذي دفع موته ثمنًا له. يندرج اشتراك الإنسان في هذا الفرح إذًا في المنطق عينه، إنّه المنطق المسيحانيّ «الخريستولوجيّ[٢٩]»، الذي يشكّل انتصارًا على كلّ القوى المعاكسة. الفرح مدّ نفوذ وتاليًا معركة؛ ومن دون هذه المعركة تحديدًا، ليس للحياة أيّ نكهة. ولكن لا يمكن للإنسان في أيّ لحظة أن يضع يده عليه، إذ ينفلت الفرح دومًا من قبضته، لأنّه يظلّ سرّ أبديّة لا تنضب، أسمى من أيّ تجربة

[٢٩] أي علم المسيح.

إنسانيّة. غالبًا، لا يكون الفرح إلاّ في الإيمان النقيّ بحضور **القائم**. هنا يكمن التدرّب (النسك) في أعلى درجاته، المنطوي على عيش الفرح في كلّ وقت وكلّ مكان: «لذلك أسرّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح» (٢كورنثوس ١٢، ١٠).

بعيدًا عن كلّ شعور عاطفيّ متأجّج نكون في ما يسمّيه الآباء الفرح المؤلم. به نتعلّم أن نخلع عنّا الإنسان العتيق (كولوسي ٣، ٩) الذي يُخشى دومًا أن يركّز على الفرح كشيء يُمتلك. الفرح غير المشروط المُمارس حتّى في خضمّ الضيقات، يسمّى الحبّ. والحبّ يكفي ذاته: إنّه كائن. وهكذا عندما يصير الإنسان حرًّا من الفرح عينه، فهو يولد بالإله.

«كلّ نسمة فلتسبّح الربّ»: بنَفَس المزامير

يحمل يسوع الناصريّ في عروقه
إرثًا من البهجة. كلمة «فرح» هي إحدى
أكثر الكلمات ورودًا في الكتاب المقدّس.
ستان روجييه

هل يبدو أنّه مخلّص؟ إنّه السؤال الذي يطرحه على نفسه كلّ إنسان، سرًّا، وغالبًا من دون أن يعرف، عندما يقترب من شخص آخر. أيوجد خلاص لي؟ أين هو هذا الإنسان الذي أقابله، بالنسبة إلى هذا السؤال الوحيد الذي يشغل بالي ليل نهار؟ إنّه وراء كلّ كياني وكلّ ما أفعله، ليس هناك من مبادرة أو حركة لا يكون هذا السؤال محرّكها، بوعي منّي أو بدون وعي. يمكن أن نقول إنّ الإجابة عن هذا السؤال التي يكوّنها شخص بعد لقائه آخر تشكّل عمق شهادة أو عدم شهادة هذا الآخر للمسيح القائم. لهذا نحن نخرج دومًا من أيّ لقاء مع الآخر إمّا أكثر تحرّرًا بإشعاعه أو أكثر تقييدًا بظلماته. تكلّم نيتشه بصوت كلّ الملحدين والباحثين عن الإله عندما أعلن خيبة أمله العميقة أمام تعاسة المسيحيّين. ولكن، في الواقع، لا يلزم الكثير من الفلسفة لنفهم ما هو هنا حجم الفضيحة!

نحن نولد حاملين هذا الكتاب في أحشائنا

يعرف تلميذ المسيح بالفرح، بأنّه كائن يرتّل بالفرح ولا

يتقدّم إلاّ به. يعلم أنّ إلهه محبّة، وحيث لا يوجد فرح، لا نحبّ كثيرًا، الفرح هو علامة تحرّره الكبرى، إنّه كائن مُخَلَّص، وهذه «**البشرى السارّة**» لا تتوقّف عن غمره، ولها دائمًا الكلمة الأخيرة في حياته.

هنا يكمن مجمل التصوّف المسيحيّ! يستمدّ جذوره من العهد القديم ويُتمَّم في المسيح. إذا كان اليهوديّ يولد وكتاب المزامير في أحشائه، كما قال ببراعة أندريه شوراكي[٣٠]، فمن المؤكّد أنّ المسيحيّ يملكه في جسده ودمه وحتّى نخاع عظمه! لأنّ كتاب المزامير هو بالفعل كتاب المسيح، فالمزامير هي تراتيل **المخلِّص** وتسابيح المخلَّصين[٣١]. يتلخّص فيه كلّ الكتاب المقدّس بشكل يخطفنا، وبذلك يكون كمكان سامٍ لتعلّم **بشرى** خلاصنا **السارّة** هذه. إنّه تعلّم بالمعنى التجريبيّ للكلمة: يصير **الفعل**[٣٢] باهتزازه القويّ جسدًا فيَّ، كلّ آية مرتّلة مهتزّة، تدخل في تجاوب مع الروح القدس الذي ينفخ فيَّ المسيحَ حتّى أطراف أصابعي، هذا ما كتبه القدّيس سمعان (القرن الحادي عشر). لأنّ الترتيل يوقد فيكم **الروح**، ويكشف أيضًا فعله.

يتكلّم القدّيس بولس على هذا الطرب الروحيّ ويوضح لنا كيف نصل إلى هذه الحالة، بالأخصّ عندما نرتّل بلا توقّف التسابيح للربّ، متغلغلين في أعماق ذواتنا ومحفّزين الفكر باستمرار، أي مرتّلين باللسان والقلب.

---

[٣٠] باحث مختصّ بتاريخ الأديان (١٩١٧-٢٠٠٧) وضع ترجمة فرنسيّة للكتاب المقدّس.

[٣١] مزمور تعني باليونانيّة بسالموس: ترتيل يرافقه عزف على القيثارة؛ بالعبريّة تيهيليم: تسابيح.

[٣٢] أي الكلمة الذي هو يسوع المسيح.

مـن يمتلـئ مـن هـذه الأحاسـيس يقـترب مـن الحالـة التـي تسـمح لـه بـأن يتلقّـى نعمـة الـروح القـدس ويتوافـق معهـا. هـدف الترتيـل هـو بالتحديـد أن يوقـد فينـا بمزيـد مـن الحـرارة والنـور، شرارة النعمـة المخبّـأة في نفوسـنا[٣٣].

لهـذا السـبب، الترتيـل دائـم الحضـور في **الكنيسـة**، التـي فيهـا يسـكن مـلء الـروح القـدس، ولهـذا السـبب تفيـض كلّ الصلـوات، وأيضًـا حيـاة كلّ تلميـذ حقيقـيّ للمسـيح، بالمزامـير. مريـم، التـي هي نمـوذج التلميـذ نفسـه، وضّحـت لنـا ذلـك: «ليكـن لي كقولـك» (لوقـا ١، ٣٨). بنـت حياتهـا عـلى **كلمـة** الإلـه؛ كانـت تتشرّبهـا وتنصقـل بهـا وتتحـرّك بواسـطتها. يشـهد تعظيمهـا للـربّ (لوقـا ١، ٤٦) عـلى ذلـك بشـكل باهـر: اسـتوعبت مريـم الكتـب لدرجـة أنّهـا تتكلّـم بكلماتهـا وبجملهـا، ليـس برصفهـا الواحـدة تلـو الأخـرى عـن ظهـر قلـب، بـل بتأليـف نـصّ جديـد بالكامـل. هـي تعيـش المزامـير إلى هـذا الحـدّ، فهـي خبزهـا الحقيقـيّ، تغـذّت بالتقليـد الكتـابيّ لدرجة أنّهـا تفاعلت عفويًّـا مـع رسـالة **الملاك** وسـلام أليصابـات باسـتخدام كلـمات هـذا التقليـد. إنّـه تغلغـل، شـفافيّة صافيـة للواحـد مـع الآخـر، كـم هـي عظيمـة إذًا قـدرة المزامـير الخلاّقـة في حيـاة الإنسـان!

يسوع المسيح، كتاب المزامير الحيّ

هنـا يكمـن بالتحديـد سرّ حداثـة المزامـير؛ فهـي ليسـت برنامج صـلاة، بـل تريـد أن تعلّمنـا لغـة الإلـه، لغـة المسـيح، وأن تـدع **روحه**

[٣٣] القدّيـس ثيوفانـوس الحبيـس، (القـرن التاسـع عشـر)، l'Art de la Prière، «فـنّ الصـلاة»، منشـورات Bellefontaine، صفحـة ٧٢-٧٣.

يسكن فينا، لكي يتغلغل في كلّ كياننا ويضيء ظلمات لاوعينا، حتّى ردود أفعالنا العفويّة! هذا هو أساس كلّ شيء. عمليّة التداخل المتبادل للإله والإنسان بالمزامير مطابقة للإفخارستيّة. هنا **الفعل** متجسّد بإنسان، هناك متجسّد بالكلام البشريّ، ولكن للهدف ذاته: يصير الله إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا، وبالطريقة ذاتها التي هي الإفخارستيّة (بالعربيّة: شكر، ذبيحة التسبيح). نفهم إذًا لماذا دعا الآباء مريمَ، التي كانت عرش هذه النعمة المزدوجة، سبب كلّ فرح! بحسب **التقليد**، دخلت سلالة المرنّمين للإله، هذه السلالة التي طالت منذ داود. ولكنّها أعطتها كمالها بافتتاح العصر الماسيّانيّ بولادة المسيح.

يسوع المسيح هو كتاب المزامير الحيّ. كانت كلمات كلّ آيّة في ما سبق حضور **الفعل** السرّيّ. وتمّمها تجسّده حتّى أدقّ تفاصيلها. إذ رتّل هذه المزامير، محقّقًا إيّاها، منذ طفولته عندما كان ينام على صوت **أمّه**، ثمّ في وسط شعبه في كنيس الناصرة، وأخيرًا رافقته طوال حياته، مغذّية الليالي الطويلة التي كان يقضيها في الصلاة (لوقا ٦، ١٢)، وفي النهاية حتّى على الصليب كانت المزامير آخر صلواته. هذا يعني أنّ يسوع كان كائنًا من التسبيح، والشكر غير المنقطع هو مركز وجوده وطاقته المحيية. بل هناك ما هو أكثر من ذلك: هبة الإفخارستيّة توضّح في آخر المطاف أنّ يسوع المسيح هو شكرنا بنفسه، أنّه هو تسبيحنا، هو النموذج الوحيد والوسيط الوحيد: «لا يمكن أن نسبّح إلاّ به ومعه وفيه» (رومية ١، ٨ ؛ ٧، ٢٥).

يسوع هو **المبارك** من الله، وآخر فعل مرئيّ له على

الأرض، ذاك الـذي تركـه عهـدًا **لكنيسـته** والـذي نجـده في كلّ الأيقونـات، هـو المباركـة (لوقـا ٢٤، ٥٠). المباركـة هـي الصـلاة التـي تفتـح السـماوات وتُنـزل مجـد الإلـه عـلى المُبـارِك. إنّهـا هبـة خلاّقـة ومحييـة، المُبـارَك نبـع مـن الإشـعاع. لهـذا فـإنّ يسـوع هـو **البركـة** بامتيـاز؛ عندمـا يعطيهـا لتلاميـذه يقـدّم نفسـه؛ وهـو أيضًـا يدعـم الفعـل بالقـول: «هـا أنـا معكـم كلّ الأيّـام إلى انقضـاء الدهـر» (متّـى ٢٨، ٢٠). يعـبّر القدّيـس بولـس عـن ذلـك بكلـمات تجعلنـا نرتجـف: «هـو بهـاء مجـد اللـه، ورَسـم جوهـره» (عبرانيّـين ١، ٣). «مجـد اللـه في وجـه يسـوع المسـيح» (٢كورنثـوس ٤، ٦).

بالمباركـة يُنـزل يسـوع مجـد الإلـه أيضًـا عـلى التلاميـذ، ولكـن في الوقـت عينـه يُصعـد الشـكر نحـو الإلـه. يحتـوي التسـبيح أو المباركـة دومًـا عـلى هاتـين الحركتـين، الملخَّصتـين بشـكل رائـع في شـخص يسـوع. لـذا مـا مـن شيء يعلـو عـلى (المباركة-التسـبيح)، وجمهـور القدّيسـين في الرؤيـا، المتجمّعـين حـول **الحمـل** ليرتّلوا نشـيد الظفـر النهـائيّ، يعلنـون للإلـه: «البركـة والمجـد والحكمـة والشـكر، إلى أبـد الآبديـن»، (رؤيـا ٧، ١٢).

نـرى إذًا إلى أيّ حـدّ تتجـاوز المزامـير مجـرّد أن تكـون مباركـة أو تسـبيحًا بسـيطين، لتصـير سرّ **وجـود**. كلمـة الإلـه خالقـة مـا تعنيـه، عندمـا يكـرّس قلـبُ إنسـان نفسـه لسرّهـا العميـق.

تسبيح ينتشلنا من الهاوية

نكتشـف ذلـك بالأخـصّ في مزامـير التـضرّع والشـكوى. فبـما أنّ الإلـه يـرى تحديـدًا حتّـى أعـماق الإنسـان، فإنّـه ينتشـله مـن هـذه

الهوّة السحيقة، وهذا ما يُبهج الإنسان حتّى عندما يكون في قلب الحزن. مرتّل المزامير يسبّح الإله لأنّه الإله، وعلى ما هو عليه فإنّه ببساطة لن يقوم بأيّ شيء آخر غير تحريره. يتضمّن الصراخ نحو الإله مسبقًا فرح الردّ المنتظر، في الشكوى إذًا لهجة التسبيح ولهذا فهي مرتّلة؛ تصبح **الكلمة** سرًّا. الشكوى للإله على بساطتها، هي «اعتراف» **بوجوده** بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة: أعرف أنّك هنا يا ربّي، يمكن أن أعطيك بؤسي، وشكواي تعبّر لك عن شكري لأنّي أحسّ بأنّك قريب جدًّا.

يا ربّ، ما أكثر مضايقيَّ!
كثيرون قائمون عليّ،
كثيرون يقولون لنفسي: «ليس له خلاص بإلهه».
أمّا أنت يا ربّ فترس لي.
مجدي ورافع رأسي،
بصوتي إلى الربّ أصرخ، فيجيبني من جبل قدسه.
أنا اضطجعت ونمت. استيقظت لأنّ الربّ يعضدني.
لا أخاف من ربوات الشعوب المصطفّين عليّ من حولي.
(مزمور ٣).

بالنسبة إلى مرتّل المزامير، الحياة والتسبيح مرتبطان حميميًّا لدرجة أنّه يطابق بينهما عفويًّا. لهذا نجد هذا الدفع اللاإراديّ البازغ من أعماقه لتسبيح الربّ أكثر وأكثر، حتّى وإن لم يكن أيّ شيء يسير على ما يرام! كلّ ما يقلّص الحياة هو كدعوة إلى التسبيح، لأنّ التسبيح هو أن نعيش ملء الحياة. لذا، من يسبّح يكون في الإله، وذاك لا يمكن أن يموت. «**إنجاز المسيح العظيم**»

معلن هنا بقوّة. يعتبر مرتّل المزامير أنّ الموت هو التوقّف عن كلّ تسبيح. المسيح يكشف لنا أنّ الموت يمكن أن يكون التسبيح بامتياز: فيسوع قدّم لأبيه في موته الخاصّ التمجيد الأعظم: «أيّها الآب، قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضًا»، (يوحنّا ١٧، ١).

هذه «**الساعة**»، التي يرتكز عليها كلّ انتظار إنجيل يوحنّا، هي ردّ يعطيه تجدّد جذريّ ومذهل على سؤال الموت المقلق الموجود في الكثير من المزامير: لا، ما عاد الموت نهاية كلّ تسبيح؛ «فمنذ أن دخل المسيح الموت صار هذا مسكونًا بالمبارَك من الله، التسبيح المتأنّس، لقد لَبِس الموت بهاء مجده» (عبرانيّين ١، ٣).

ولكنّني أقوم بهذا التعلّم حتّى في يومي هذا. فهنا، في هذا المكان بالتحديد الذي أنا فيه وبداخل فعلي أو راحتي، «ينقلني» التسبيح من حالة إلى أخرى. إنّه «انتقال»، «فصح» من الموت، من حياة ميتة إلى ملء الحياة:

أيّها السيّد، بهذه يحيون، وبها كلّ حياة روحي فتشفيني وتحييني.

هوذا السلامة قد تحوّلت لي المرارة.

وأنت تعلّقتَ بنفسي من وهدة الهلاك.

لأنّ الهاوية لا تحمدك، الموت لا يسبّحك.

الحيّ الحيّ هو يحمدك كما أنا اليوم، (إشعياء ٣٨، ١٦-١٩).

لا أموت بل أحيا وأحدّث بأعمال الربّ، (مزامير ١١٨، ١٧).

لتحيَ نفسي وتسبّحك! (مزامير ١١٩، ١٧٥).

توجد في حياتنا دائمًا، على الأقل بشكل غير مباشر، رغبة في

الكمال، على شكل حنين، كلّ منّا يختبر ذلك في كلّ لحظة. لذا ما من حياة من دون حاجة إلى التعظيم والدهشة. التعظيم ملازم للحياة لدرجة أنّه عندما لا يعظّم الإنسانُ الإله، فهو يعظّم بالضرورة شيئًا آخر. كلّ تاريخ البشريّة يكشف ذلك لأعيننا، ويُظهر أشكال الإباحيّات الشيطانيّة التي يمكن أن يأخذها هذا الزخم التعظيميّ والتسبيحيّ عندما ينحرف عن الإله. فيصير الذي يأخذ مكان الإله هو الذي نعبده، وبما أنّه لا يوجد أيّ شيء يمكن أن يشبع حاجة الإنسان هذه إلى المطلق، فهو سيكتسح العالم. أهواؤه وكراهيته ليسا إلاّ تراتيل تسبيحيّة فاسدة موجّهة إلى ذاته: وذلك هو المجد الباطل!

قد رأيت ظلمًا وخصامًا في المدينة.

نهارًا وليلاً يحيطون بها على أسوارها.

لا يبرح من ساحتها ظلم وغشّ (مزمور ٥٥، ٩-١١).

عرف شعب الكتاب المقدّس كيف يوجّه هذه الطاقة نحو إلهه وخالقه. في كلّ العهد القديم وخصوصًا في المزامير، كان تعظيم الإله والدهشة أمامه، والفرح برؤية أنّ الإله هو الإله، وبإطلاق العنان للتسبيح المعبّر عن كلّ ذلك، معنى الحياة النهائيّ بالنسبة إلى اليهوديّ الحقيقيّ: «أبارك الربّ في كلّ حين. دائمًا تسبيحه في فمي»، (مزمور ٣٤، ١).

لأنّ إلى الأبد محبّته

بالنسبة إلى النفس الإسرائيليّة، الإله قريب، هو وراء كلّ الأشياء ويقدّم نفسه عبر كلّ شيء؛ هو عطاء، عطاء مجّانيّ غزير

لا عودة فيه: يمكن لي إذًا أن اختبره قدر ما أشاء وفي كلّ لحظة. بالنسبة إلى اليهوديّ، هذا هو ما يرضيه ويحوّل حياته، يصير مخطوفًا بالدهشة ويصرخ شاكرًا ومسبِّحًا. إنّها علامة قلب محبّ، منسلخ عن ذاته ومسرور **بالآخر** على أكمل وجه؛ لا تعود الكلمات رغم كثرتها، قادرة على التعبير عن الحماس على النبرات كافّة، يسقط عندئذ الحاجز، نصرخ، نهتف ونحتفي بفرح، نرفع الأيادي مصفّقين، أو نركع ونلامس الأرض بالجِباه. كلّ هذا بالطبع بصوت البوق والقيثارة والعيدان والصنوج والدفوف. كان الغناء لا يتوقّف في أعياد إسرائيل، وكانت الاحتفالات تستمرّ غالبًا أيّامًا وأيّامًا، وكان فرح الناس الليتورجيّ عظيمًا وفائضًا، «كان الشعب يهتف هتافًا عظيمًا حتّى إنّ الصوت سمع من بعد» (عزرا ٣، ١٣):

يا جميع الأمم صفّقوا بالأيادي. اهتفوا لله بصوت الابتهاج، (مزمور ٤٧، ١).

نترنّم بخلاصك، وباسم إلهنا نرفع رايتنا، (مزمور ٢٠، ٥).

وفي هيكله الكلّ قائل: «مجد». (مزمور ٢٩، ٩).

هلمّ نسجد ونركع ونجثو أمام الربّ خالقنا! (مزمور ٩٥، ٦).

قلبي ولحمي يهتفان بالإله الحيّ (مزمور ٨٤، ٢).

كان الصراخ الذي تتجمّع عليه كلّ أسباط إسرائيل هو، طبعًا، اسم **الحبيب** القدّوس المعلن لموسى، ولكنّه صار مخيفًا جدًّا لدرجة أنّ الناس صارت ترتجف بسببه من الرعب والحبّ في آن واحد؛ عاد لا أحد يجرؤ على لفظه بل صار يُهتف به بشكل مختصر: **ياه**، صراخ حُفظ لنا في كلمة (**هللو- يا**) سبّحوا

الـربّ أدونـاي! أحيانًـا في وسـط التجمّعـات الليتورجيّـة، كان أحـد المحتفلـين يـصرخ «هللـو» ويجيـب كلّ الشـعب بحـماس «ياه-يـاه-يـاه!!» كانـت هـذه اللحظـات الرائعـة تنفـذ كالـبرق حتّـى أقـصى أعـماق كلّ كيـان، وترفـع قلـب الـكلّ لتـدوّن بشـكل نهـائيّ في ذاكـرة أكـثر الأيّـام ظلامًـا هـذه اللازمـة الدائمـة: لأنّ إلى الأبـد محبّتـك (مزمـور ١١٨).

يوجـد هنـا مبـدأ كـونيّ فعّـال، ومعـروف في كلّ تقاليـد الإنسـانيّة الروحيّـة: الهتـاف هـو مـا يوحّدنـا مـع الإلـه بأعمـق درجـة. ويتـمّ ذلـك دومًـا بالطريقـة ذاتهـا: تجـرّد عـن الـذات وتمركز في **الآخـر**. يمكـن أن يبـزغ التسـبيح عنـد الاتّصـال مـع الإلـه الحـيّ، لأنّ الإلـه يغمـر مـن يقـترب منـه بدهشـة فائقـة الوصـف، وبالعكـس أيضًـا، مـن يسـبّح الـربّ، حتّـى رغـم أنّـه عـلى بعـد مئـات آلاف مـن الأميـال عنـه، يضـع قدميـه عـلى أعظـم طريـق للتألّـه.

يتوافق الإنسان مع المسيح توافقًا تامًّا، ويصير إنسانًا بامتياز

في المزامـير، نـرى بـدءًا إلى أيّ درجـة يوقـظ التسـبيحُ الإنسـانَ عـلى نفسـه، عـلى أبعـاد في كيانـه لم يكـن يعرفهـا:

ثابت قلبي يا الله، ثابت قلبي.
أغنّي وأرنّم.
استيقظ يا مجدي! استيقظ يا رباب ويا عود!
أنا أستيقظ سَحَرًا. (مزمور ٥٧، ٧-٨)

بحسـب أقـدم تقليـد، القيثـارة، الربـاب والسـنطير[٣٤] والبـوق

[٣٤] أو السنطور: آلة وتريّة يونانيّة قديمة تشبه القانون.

هـي الإنسـان نفسـه: إنّـه الآلـة الموسـيقيّة الحقيقيّـة في يد الإلـه. قال القدّيـس كليمنضـوس الإسـكندريّ منـذ القـرن الثـاني: يعزف الإنسـان للإلـه، مناغـمًا بـين هـذا العـالم والكـون الصغـير[٣٥]، بجسـده ونفسـه وبفضـل الـروح القـدس، عـلى هـذه الآلـة المتعـدّدة النغـمات ويرتـل لـه بهـذه الآلـة التـي هـي الإنسـان. وكتـب القدّيـس أثناسـيوس الإسـكندريّ (القـرن الرابـع): يشـبه الجسـم ربابـةً، يعـبّر التناغـم الكامـن في النفـس عـن ذاتـه بواسـطتها، أن نسـبّح الإلـه بالصنـوج والقانـون والسـنطير ذي العـشرة أوتـار، هـو ترميـز لأنّ تكـون كلّ أعضـاء الجسـم موزونـة جيّـدًا كالأوتـار، وأن تكـون أفـكار النفـس كالصنـوج، وأن يتحـرّك كلّ ذلـك ويحيـا بإشـارة الـروح وبالتجـاوب معـه[٣٦].

يذهـب التفسـير الرمـزيّ عنـد الآبـاء بعيـدًا وحتّـى التفاصيـل: فالبـوق يعطـي الطنـين الفـرِح للإنسـان القائـم مـن المـوت، السـنطير هـو اللسـان، سـنطير الـربّ الحقيقـيّ، القانـون يرمـز إلى الفـم الـذي يهتـزّ بفعـل الـروح القـدس، السـنطير ذو المطرقـة هـو جلـد الإنسـان الـذي يصـدر الرنـين، الـذي يسـتقبل الصـوت ويحوّلـه مـن الخـارج إلى الداخـل، أوتـار الآلـة هـي الأعصـاب التـي تهتـزّ وتصـير مشـدودة بتناغـم بالترتيـل والتسـبيح.

الأمـر هنـا ليـس فولكلـورًا موسـيقيًّا بسـيطًا، بـل قفـزة عظيمـة مـن العهـد القديـم إلى الجديـد، فيهـا اسـتمراريّة عميقـة وتجـاوز مطلـق، فالرابـط الـذي هـو المسـيح بنفسـه، كان موجـودًا في المزامـير.

---

[٣٥] تعبير قديم يُقصد به الإنسان.

[٣٦] ت. جيرولـد، Les Pères de l'Eglise et la musique، «آبـاء الكنيسـة والموسـيقى»، أطروحـة دكتـوراة، Strasbourg، ١٩٣١، صفحـة ١٢٥.

فالأداة يمكن أن تخطئ الهدف، فتعزف نغم النفس مدخلة إيّاها في ميولها الخاصّة بها، مخرجة إيّاها عن ذاتها ومصطحبة إيّاها إلى مناطق جحيميّة. لم يخلُ الأمر من ذلك قطّ، منذ سحر عازفي الناي في زمن الكهوف، وحتّى المعاني المخفيّة التي تنشرها في اللاوعي موسيقى الـ «هارد روك»، وغيرها من أنواع الموسيقى المعاصرة. يتعلّق الأمر هنا بمصير الإنسان بكلّيّته. فنَغَمُ الإنسان لا يُضبط على آلة بل على المسيح، الذي هو النغم المثاليّ، **الإنسان** بامتياز.

كلّ شيء يكمن هنا: التسبيح طريق تألّه، به يصير الإنسان إلهًا، لذا يجب أن يتوافق كلّ كيانه مع محور حياته الوحيد هذا. اهتزاز المزامير العميق، إيقاعها، هو حضور المسيح. كلّ شيء ينضبط عليه: الكلمات، الترتيل، الآلات، الجوّ الليتورجيّ في المعبد، الفرح البهيج. وعندما سيأتي شخصيًّا بتجسّده، هو الماسيّا، سيكون **ابن** داود، القيثارة الحيّة، **الصوت** الكامن في ما وراء كلّ صوت، **فعل** الإله الذي به كان كلّ شيء. وبالشركة الإفخارستيّة، يصبح جسدنا جسد المسيح ويجري دمه في عروقنا: تلميذ المسيح هو إذًا، في الجوهر، كائن ليتورجيّ مسبِّح. صار الفرح صوت حياته وصار التسبيح تعبيره.

انسكاب المجد الإلهيّ

الآن ما عدنا نستعين بالآلات في طقس الكنيسة الأرثوذكسيّة. بقي استعمالها منتشرًا بعض الشيء في البدء عند عدد من الجماعات المسيحيّة، ولكن منذ القرن الثاني، لم يكن

القدّيس كليمنضوس الإسكندريّ يسمح بالرباب والقانون إلاّ في موائد المحبّة[٣٧]. هناك إذًا أزمنة لتهيئة الاحتفال وأخرى للقيام به، ولكنّ الليتورجيا أو **الطقس الإلهيّ**، هي وقت الاختطاف الفوريّ، الإحساس المباشر والعمليّ من دون أيّ وسيط أو حاجز، مهما كان. إنّه الاحتفال البهيج بلقاء **ذاك** الذي صار من جسدي ودمي (القدّيس غريغوريوس بالاماس، القرن الرابع عشر).

في انسكاب المجد الإلهيّ هذا، يضع الاحتفال الليتورجيّ أو الترتيل المزموريّ روحَ الإنسان في اتّصال مع جمال المسيح القائم الباهر. وفي هذا الاختطاف بالتأمّل، تنفصل النفس عن كلّ مشكلاتها واحتياجاتها؛ لذا يكون أساسيًّا بالنسبة إليها تحاشي أيّ عائق أو تشتّت. تجد النفس، التي هي بالتعريف هشّة وغير مستقرّة، اتّجاهها بالالتصاق الكامل بالروح في الترتيل. في تلك اللحظة، تبتهج النفس بدورها وتجعل الجسد ذاته يشعّ، هذا الجسد الذي سيتجلّى يومًا بهذا الإشعاع بشكل كامل. يقول بول إيفدوكيموف: الترتيل يحمل الكلام إلى حدود ما لا ينطق به، أي أنّ الكلام يريد أن يعبّر عن السرّ، الذي هو بالحقيقة فوق التعبير، وهنا بالتحديد عندما يعجز الكلام عن التعبير عمّا هو **فائق الوصف**، تنقله موسيقى الترتيل إلى الماوراء، الذي هو اختبار حضور المسيح. بما أنّ الترتيل يرتكز أساسًا على النَفَس، فإنّ المرتّل يمزج نَفَسه مع نَفَس **الروح**[٣٨]، ليجعل **الفعل** الساكن

---

[٣٧] القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، Sur les Psaumes، «عن المزامير»، ١٤٩، ٢، منشورات Le Cerf، «Sources Chrétiennes». القدّيس كليمنضوس الإسكندريّ، Le Pédagogue، «المربّي»، ١١، ٤، منشورات Le Cerf، «Sources Chrétiennes».

[٣٨] باليونانيّة Pneuma، «الروح-النَفَس»، (المعرّب).

قلوب الناس مسموعًا.

في لحظات الولادة الجديدة سيكون مزعجًا أن ننشغل بأيّة آلة أو أن نسمع أيّة نغمة. إنّها **ساعة الفعل، الصوت** الفاعل **بطاقاته** الخاصّة وليس بالمؤثّرات الفنّيّة. بأصواتنا المرتَّلة، نقترب ممّا وراء الصوت، من اهتزاز خاصّ، هو بالحقيقة، حالة وعي. وهكذا فهناك صوت الفرح، صوت الغبطة العظمى أو صوت الحبّ، الذي هو ربّما صوت الكون. وكلّ صوت يمكن أن يحدث حالة وعي معيّنة. يدعى هذا الترتيل «بالليتورجيّ» لأنّه يقوم بتحويل الوعي هذا ولأنّ مادّته الأساس هي قدرة نفاذ مذهلة، لا تملكها الأغاني الجميلة التي تظلّ على مستوى النفس، مستوى الرعشة الحسّيّة والدنيويّة.

هنا، الترتيل المزموريّ المكرّر كلّ يوم، يعمل على طريقة الأقوال المأثورة التي كان يتناقلها **القدماء** من المعلّم إلى التلميذ، والتي كانت تُكرّر بلا كلل أو ملل حتّى تصير جسدًا، أي تغوص رويدًا رويدًا في كلّ درجات الكيان: في القلب، في الأحاسيس، في الحركات وحتّى في ذاكرة الجسد. للترتيل أثرُ ترتيب على الوعي الباطن، اللاوعي، المادّة، خلايا الجسم، التي تستنير بوعي جديد. عندما يثبت هذا الترتيل في الجسم طبقة بعد طبقة، أكانت سميكة أو لزجة أو نشيطة، يتوقّف الجسم عن الحركة؛ كما لو أنّ كلّ اهتزازاتنا المبعثرة، المثارة بلا توقّف بالتعدّديّة الشيطانيّة، قد تبلورت متحوّلة إلى تركيز رائع، واهتزاز واحد: يرتّل «**هذا**» من تلقاء نفسه، فيزيائيًّا. ولكنّ الترتيل يذهب أبعد بكثير من القول المأثور المكرّر غير الشخصيّ، إنّه وجه **المحبوب**، الذي

بكلمته يصير جسمًا فيّ، ويتجسّد ويجعلني مسيحًا (نيقولاوس كاباسيلاس، القرن الخامس عشر). نبدأ عندئذ بفهم ما يمكن أن يكون المبدأ الجديد الذي يتمركز حوله كياننا بكلّيّته.

أن نحبّ الإله، يعني أن نصير ترتيلاً مُمَجِّدًا

الجسم الذي نرتّل به، أي المادّة، هو مكان العدوى المباشرة، التي تنتشر على الفور من الخليّة الصغيرة إلى أطراف المجرّات، لأنّ المادّة مستمرّة تمامًا. جسمنا هو الكون، ووعينا يتّحد بوعي المسيح الكونيّ. يدعونا ترتيل المزامير إلى هذه الشفافيّة المتبادلة في الإله والإنسان، التي يكون فيها الوعي الإلهيّ والوعي الإنسانيّ محتويين الواحد في الآخر. يمكن لهذا التبادل أن يمتدّ ويتعمّق إلى اللانهاية، إنّه عرس الخالق مع خليقته، ترتيل العالم، الليتورجيا الكونيّة بالتحديد التي تحدّث عنها القدّيس مكسيموس المعترف (القرن السابع)، والإنسان مدعوّ إلى أن يقيم احتفالها يوميًّا، يقول القدّيس يوحنّا السلّميّ رغم أنّه كان ناسكًا متقشّفًا في صحراء مصر في القرن السابع: أنا أتقدّم بالترتيل. ما من أمر يجعل قلب الإنسان يرتّل أكثر من أن يمتلك في نفسه لا محدوديّة الله، وأن يعي ذلك، وأن يتقدّم إلى الأبد في لا محدوديّة الله كوعي غير محدود: ابن الإله، الوعي الذي لا نهاية له، أخذ الطبيعة البشريّة[٣٩].

هذا ما هو مرتّل في كلّ سطر من المزامير وبين أسطرها، وفي الفراغ الذي بين الكلمات، ذلك بأنّه في ما لا يقال أيضًا،

[٣٩] ديمتري ستانيلوي، Prière de Jésus et expérience du Saint-Esprit، «صلاة يسوع واختبار الروح القدس»، منشورات Desclée de Brouwer، صفحة ٥٣.

في الفائـق وصفـه، في الصمـت يتفجّـر التسـبيح. تعطينـا المزامـير المسـتلهَمة مـن الوعـي الإلهـيّ والمسـكونة بـه، هـذا الوعـيَ الـذي يحـوط بـكلّ الخليقـة، وفي ذلـك تجربـة مؤسِّسـة، ألا وهـي أن نكتشـف أنفسـنا إخـوة لـكلّ النـاس وأن نتّقـد بالحـبّ لـكلّ كائـن، للحيوانـات والنباتـات والطبيعـة بأكملهـا. إنّـه اختبـار **الواحـد**، عـدم الثنائيّـة، عـدم الموضوعيّـة المتجلّيـة في تعبـير «أنـا والباقـي»؛ الإنسـان الـذي يختـبر ذلـك يقـظ، عـلى طريـق الاسـتنارة مـن مرحلـة إلى أخـرى. هنـاك معرفـة بالاهتـزاز يعرفهـا الشـعراء جيّـدًا، وأيّ شـعر هـي المزامـير! إنّهـا معرفـة بهـا نصـير مـا نرتّلـه:

أيّها الربّ سيّدنا، ما أمجد أسمك في كلّ الأرض!
حتّى جعلت جلالك فوق السماوات.
إذا أرى سماواتك عمل أصابعك،
القمر والنجوم التي كوّنتها، (مزمور ٨).

السـماوات تحـدّث بمجـد اللـه، والفلـك يخـبر بعمـل يديـه، (مزمـور ١٩).

باركي يا نفسي الربّ،
الماشي على أجنحة الريح،
المؤسّس الأرض على قواعدها،
كسوتها الغمر كثوب،
ما أعظم أعمالك يا ربّ! كلّها بحكمة صنعت،
ملآنة الأرض من غناك، (مزمور ١٠٤).

ربّمـا يجـب أن نشـير إلى المزمـور ١٠٤ بكاملـه، وهـو يسـمّى «بالكـونيّ»، لأنّ الخليقـة كلّهـا مذكـورة فيـه: الميـاه، الجبـال، الوديـان،

حيوانات البَرّ، الخبز والخمر الذي يفرّح قلب الإنسان. ما من شيء منسيّ، وكلّ شيء يعرف أنّه لا يوجد إلاّ بروح الحضور الإلهيّ:

تحجب وجهك فترتاع،

تنزع أرواحها فتموت، وإلى ترابها تعود،

ترسل روحك فتخلق، وتجدّد وجه الأرض (مزمور ١٠٤، ٢٩-٣٠).

وهكذا تسبّح كلّ الخليقة ربّها في سيمفونيّة عظيمة، حتّى الحجارة، كما أعلن المسيح بنفسه (لوقا ١٩، ٤٠). وبعض القدّيسين، كالقدّيس نيكتاريوس الإيينيّ[٤٠] أحسّوا بذلك بوضوح. ولكنّ سّر التسبيح المؤثّر والمغيّر، سبب قوّته، هو ما يقوله لنا تحديدًا المزمور الكونيّ في عبارة: تحجب وجهك فترتاع. لهذا تحثّ الكثير من المزامير الشعب على أن يكون فرحًا: ففي هذا الفرح عينه، وبداخل التسبيح والابتهاج ذاتهما ينكشف **وجه** الإله:

وأنت القدّوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل! (مزمور ٢٢، ٣).

طوبى للشعب العارفين الهتاف،

يا ربّ، بنور وجهك يسلكون،

باسمك يبتهجون اليوم كلّه، (مزمور ٨٩، ١٥-١٦).

اطلبوا الربّ وقدرته. التمسوا وجهه دائمًا! (مزمور ١٠٥، ٤).

يتساءل المغبوط أوغسطينوس[٤١] في شرحه المزمور ٤١: كيف نصل إلى هذا السرّ؟ ويجيب: في وسط تراتيل الفرح والتسبيح. في

---

[٤٠] نسبة إلى جزيرة إيينا اليونانيّة حيث أسّس ديرًا على اسمه، توفّي العام ١٩٢٠.

[٤١] من ألمع لاهوتيّي الغرب (٣٥٤-٤٣٠). حارب البدعة البلاجيّة التي كانت تقول بإمكانيّة خلاص الإنسان من دون الإله وترك العديد من المؤلّفات من أهمّها: Les Confessions، «الاعترافات»، وهو سيرة حياته الروحيّة وخلاصة تجربته في البحث عن الإله، وLa cité de Dieu، «مدينة الإله»، وفيه يعرض التاريخ البشريّ موجّهًا بالإيمان المسيحيّ، بالإضافة إلى بحثه في عقيدة الثالوث، Sur La Trinité، «عن الثالوث».

بيت الإله، هناك احتفال أبديّ. تقيمه جوقات الملائكة، ويُحدث وجه الإله الذي يُرى مكشوفًا فرحًا فائق الوصف. يخرج من هذا الاحتفال الأبديّ صوت، لا أدري ماهيّته، يطنّ بعذوبة في آذان القلب[٤٢]. أن نحبّ الإله، يعني أن نرتّل مجده، بل من الأفضل أن نقول: أن نصير نحن أنفسنا ترتيلاً ممجِّدًا. وهكذا نفهم بالتسبيح الإله **كحياةِ** حياتنا. إسمعوا يا إخوة: رتّلوا للربّ ترتيلةً جديدة. ولا تجعلوا حياتكم شاهدة بعكس لسانكم! رتّلوا بالصوت، رتّلوا بالقلب، رتّلوا بالفم، رتّلوا بالحياة. كونوا بأنفسكم ما ترتّلونه[٤٣]!. التسبيح هو بداءة علاقاتنا مع الإله ونهايتها. عندما تقوم بمهامّك، عندما تتناول طعامك، بل حتّى عندما تنام، لتبارك نفسك الربّ. يمكن للتسبيح في الأفعال الاعتياديّة ألاّ يصمت أبدًا[٤٤]. ألا تعطينا آخر آية في المزامير أعظم رسالة: كلّ نسمة فلتسبّح الربّ!

يجب إذًا أنّ أسبّح الإله كما أتنفّس وأن أنضم إلى الحفل الكونيّ الموسيقيّ لكلّ الخليقة. هذا هو تمريني الوحيد في كلّ لحظة، من أجل فرح بلا حدود. يومًا ما، سيصبح الأمر أكثر من مجرّد ترتيل بالشفتين، سيصير توجّهًا دائمًا إلى الكيان العميق، وتدفّقًا هادئًا لا ينضب، يجري من قلبي إلى الإله. ودائمًا يجيب قلب الإله عن هذا السلوك مباشرةً: هذا هو السرّ الغامض في كلّ واحد.

---

[٤٢] المغبوط أوغسطينوس، Commentaire des Psaumes، «شرح المزامير»، منشورات Le Cerf، «Sources Chrétiennes».

[٤٣] المغبوط أوغسطينوس، Sermon ٣٤، «القسم ٣٤».

[٤٤] المغبوط أوغسطينوس، المرجع السابق.

مريم ومراحل نموّنا الروحيّ

حتّى عندما تفكّر بأسوأ الأمور،
أنت تدعونا إلى أن تكون قلوبنا فرحة.
ستان روجييه

إذا كان يسوع هو «**المبارَك**» من الإله، والتسبيح بذاته، فإنّ مريم هي **الطريق** إليه على امتداد مراحله. هي ليست إلهة ولا امرأة فائقة الطبيعة، إنّها واحدة منّا، إنّها أوّل مخلوق من البشريّة الساقطة ينفتح بالكامل إلى الوعود الإلهيّة الفائقة الوصف. باجتياز مريم كلّ الأسرار هي تحرّرنا، من بشارة رئيس الملائكة جبرائيل وحتّى صعودها، تُعلّمنا في كلّ مرحلة تجربة أمومة الإله. لأنّنا في الحقيقة نولد من الإله، ولكنّه هو أيضًا يريد أن يولد منّا. في هذه التبادليّة العُرسيّة يكمن السرّ العظيم في مجمل الإعلان الكتابيّ، وذروة الإنجيل: «من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي» (مرقس ٣، ٣٥).

ولكن أين يمكن أن تتحقّق مشيئة الإله في حياتي؟ حتمًا في اللحظة الحاضرة! في الـ «هنا والآن»، عند نهاية قلمي، عند ملامسة المكنسة أو السكّين، حتّى في عمق ما أقوم به في هذه اللحظة، في نقطة تلاقي وعيي مع وعي الإله، هناك تبدأ القصّة، قصّة ولادة، إنّها ببساطة **القصّة، طريقي**.

«شما»: اسمع يا إسرائيل

هذا الطريق هو أوّلاً طريق مريم. إنّها الأولى؛ الأولى منذ

كلّ هذه الدهور والأجيال، التي حقّقت بالكامل طريق العودة الذي أعطاه الإله بنفسه إلى شعبه في كتاب التثنية، إنّه «**الشما**» الشهير: اسمع يا إسرائيل! الربّ إلهنا ربّ واحد. «فلتحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ قوّتك» (تثنية ٤، ٥-٦). كلّ شيء يكمن في هذه العبارة، كلّ ما يلزم على الإطلاق لنجد من جديد السعادة المفقودة منذ السقوط (تثنية ٣، ٦). لقد سبق أن فتح شيث، الابن الثالث لآدم وحوّاء، الطريقَ بولادة أنوش الذي يقول الكتاب المقدّس إنّه به ابتُدِئ أن يدعى باسم الربّ (تكوين ٤، ٢٦). لقد فقد الإنسان بانحرافه «محور اسمه»، أي هويّته والحياة الإلهيّة التي هي أصله. أنوش يذكّر بالاسم القدّوس ويعيد بذلك إيجاد الجذور المفقودة لكلّ فرح ممكن. ومن بعده ابتدأ سام، أوّل أبناء نوح، نسل الساميّين «حاملي **الاسم**»، وأعلن تأسيس «بيت إبراهيم»، مع إسحق ويعقوب، ثمّ أمّهات إسرائيل: سارة، رفقة، ليئة وراحيل. كلّهم بذور عظيمة لمستقبل جديد كلّيًا، متمحورين حول الاسم القدّوس، ناهلين من **الكلمة حتّى** النشوة، وسيصيرون أمّة كبيرة وتتبارك بها جميع أمم الأرض (تكوين ١٨، ١٨). ولكنّ هذا الإنبات سيأخذ دهورًا، عبر إعلانات ورموز مسبقة عديدة، حتّى يصل إلى ملئه **بمريم**.

وصل إلى ملئه بها لأنّ بها تحقّق كلّ شيء، هي، بالحقيقة، الأولى التي توجّهت نحو الإله بشكل مطلق. إنّها المرّة الأولى التي يحقّق فيها شخص، «**الشما**» بالكامل؛ كلّ كيانها إنصات وقلبها لا يتقاسمه أيّ شيء. في الحالة العامّة نحن نحبّ إلى درجة

معيّنة، ونستخدم قسمًا من قدراتنا ولا نوظّف قوانا إلاّ جزئيًّا ولا نوظّف إلاّ نصف قوانا. ولكن ما يميّز «**الشما**» هي كلمة «**كلّ**»! فقد أحبّت **مريم** الإله من **كلّ** قلبها ومن **كلّ** نفسها ومن **كلّ** قواها. إنّها «عذراء» من أيّ رغبة أخرى، «وحده» الإله كان ساكنًا فكرها وقلبها. كانت منسلخة بالكامل عن ذاتها، في علاقة صافية مع الإله، فوجدت مصدر كيانها الذي يملأها **بوجود** آخر: تفتح البتوليّة الروحيّة دومًا الطريق، لا محالة، إلى الأمومة؛ أسرع الإله إلى الفراغ من الذات الذي قدّمته إليه مريم؛ الإنسان الذي يتوقّف عن حمل ذاته يصير حاملاً للإله «ثاوفور»، أو أمًّا للإله «ثاوتوكوس». يتحقّق الحلم القديم للإنسان الساقط: «ليتك تشقّ السماوات وتنزل»! (إشعياء ٦٤، ١). لمريم، وعبرها لكلّ إنسان، يحدث المستحيل: تنفتح السماء ويعلن لها **الرسول** السماويّ «**البشرى السارّة**»، ذاك الخبر المذهل الذي يقلب التاريخ مؤسّسًا من تلك اللحظة كلّ فرح.

البشارة: «عيدُ الأصل»، لا نتقدّم إلاّ بالفرح

لا تُشيّد الأبنية على أيّة مادّة. يقول المغبوط أوغسطينوس: كلّما كان البناء عاليًا ومهمًّا، كلّما توجّب أن تكون الأساسات أعمق، وهكذا أيضًا فإنّ أوّل أقوال الإله إلى مريم، ذاك الذي حمله رئيس الملائكة جبرائيل، كان سيؤسّس كلّ **العهد الجديد** بين الإله والإنسان، العهد الأبديّ والنهائيّ، وهذه الأقوال المؤسِّسة هي: «افرحي يا مريم»! (لوقا ١، ٢٨). إنّها كلمة تحوي كلّ شيء، لأنّها تحوي الإله بنفسه والإنسان لأنّه على صورته، ولكن أيضًا

الطريق المؤدّي من أحدهما إلى الآخر...

من الواضح جدًّا، أنّ العهد مع الإله، الذي هو أن نصبح واحدًا معه، هو أعظم ما هو ممكن للإنسان. ولكن ما ليس أقلّ وضوحًا من ذلك هو أنّ الاقتراب من الإله يكون بالسعادة، لأنّه ذروة السعادة، السعادة المطلقة، ولأنّ السعادة التامّة هي جوهر الحياة الروحيّة. أينما يَملُك الفرح، يعبّر الإله عن ذاته، ولكن أينما نمارس الفرح، ينطبع الإله! إذا كان الإنسان مدعوًّا إلى الاتّحاد بالإله، فهذا يعني أنّ فيه قدرة على الفرح الكامل. التلميذ الحقيقيّ لا يتقدّم إلاّ بقدر ما هو سعيد، وبالنسبة إليه، التقدّم على **الطريق**، هو أن يصير فرِحًا أكثر وأكثر.

بقدر ما يفصلني الحزن عن الإله ويبعدني عن الطريق، يقرّبني الفرح منه. يقول الآباء[٤٥]، ما من خطيئة أكبر من الحزن، إنّه خيانة للإله وشتيمة من الإنسان بحقّه، يأتي من الشيطان ويُغرِق في الجحيم. أمّا الفرح فهو إحساس سرّيّ تشهد به كلّ التيّارات الروحيّة والصوفيّة بكثرة.

عندما دعا الإله مريمَ إلى الفرح، ابتدأت قصّة الخلاص، قصّة تحرّر البشريّة النهائيّ، تحرّر كلّ إنسان على وجه الخصوص. ليست مريم كائنًا غريبًا، نيزكًا منعزلاً في القصّة، لكن بها يتفتّح، من الجذور القديمة، كلّ بهاء الروحانيّة اليهوديّة وبها أيضًا تكمن البذرة الحقيقيّة لكلّ مستقبل البشريّة الروحيّ. «**ابنة** صهيون» التي يتحدّث عنها الأنبياء في العهد القديم هي

[٤٥] القدّيس إسحق السريانيّ (القرن السادس)، كاترينا التي من سيينا في إيطاليا، (القرن السادس عشر)، تيريزا التي من ليزيو في فرنسا، (القرن التاسع عشر).

مريم[٤٦]: ولصهيون يقال: «هذا الإنسان، وهذا الإنسان وُلِد فيها، وهي العَليُّ يثبّتها»، ومغنّون كعازفين: «كلّ السُّكان فيكِ» (مزمور ٨٧، ٥-٧) مريم هي «الأمّ صهيون»، إنّها تجمع فيها كلّ شعب الإله ومن جميع الأعمار. ولكنّها أمّ وأصل فقط بسبب شفافيّتها التامّة للإله، الذي تتلقّى منه إشعاع مجده وتبعثه: «قومي استنيري لأنّه قد جاء نورك، ومجد الربّ أشرق عليك. تسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك. ارفعي عينيك حواليك وانظري. قد اجتمعوا كلّهم. جاؤوا إليك»، (إشعياء ٦٠، ١-٤).

ليست عبارة افرحي يا مريم! «سلامًا ملائكيًّا»، أو طريقة سماويّة لنقول «صباح الخير» أو «مرحبا مريم!». بل هي إتمام الفرح الماسيّانيّ العظيم المُعلن بالأنبياء منذ زمن بعيد. كم هو عظيم إذًا وزن كلمات الملاك جبرائيل، عندما نعرف أنها مُثقلة حبلى بماض طويل سيطن بقوّة في أحشاء مريم. تعرفها مريم عن ظهر قلب لأنّها «حفظتها» لفترة طويلة؛ إنّها الكلمات ذاتها التي يستخدمها الملاك والأنبياء، ومنهم صفنيا:

ترنّمي يا ابنة صهيون!
اهتف يا إسرائيل!
افرحي وابتهجي بكلّ قلبك يا ابنة أورشيلم!
قد نزع الربّ الأقضية عليكِ، أزال عدوّك.
ملك إسرائيل الربّ في وسطك. لا تنظرين بعد شرًّا (صفنيا ٣، ١٤-١٥).

[٤٦] جاك دولا بوتري، Marie dans le mystère de l’Alliance، مريم في سرّ العهد، منشورات Desclée، ... ٢٠

هـذا هـو سرّ الفـرح المُعلـن: الـربّ الـذي هـو ملـك إسرائيل في وسـطك، وبشـكل مطابـق: بداخلـكِ أوفيـكِ[٤٧]. يُفـضي الفـرح الحقيقيّ دومًـا إلى حضـور، إنّـه «حمـل» و«ولادة»: «وهـا أنـت سـتحبلين وتلديـن ابنًـا وتسـمّينه يسـوع» (لوقـا ١، ٣١).

كلّ حدث هو ملاك يدعوني إلى أن أكون أمًّا للإله

الفـرح هـو أن يكـون **الكائـن** سـاكنًا فينـا. بهـذا الشـكل، الفـرح هـو الحقيقـة عينهـا. كان بـول كلوديـل يحـبّ أن يقـول إنّ الفـرح هـو المقاربـة الحقيقيّـة لـسرّ الأونتولوجيـا[٤٨]: حيـث يوجـد الفـرح توجـد **الحيـاة**، هنـاك يكـون **الكائـن**. وهكـذا فـإنّ عبـارة «افرحـي» بالنسـبة إلى مريـم هـي في الوقـت ذاتـه أن تلـد **الكائـن** بامتيـاز. تكـوّن مريـم في أحشـائها **الاسـم** القـدّوس عينـه، الـذي بـه تكمـن جـذور كلّ كائـن: «تسـمّينه يسـوع» (لوقـا ١، ٣١).

إنّـه حـدث أسـاس وأيضًـا معيـاريّ بالنسـبة إلى كلّ واحـد: لقـد صـارت مريـم أمّ الإلـه بشـكل طبيعـيّ، ومنـذ ذلـك الحـين يصـير كلّ مـن يبتهـل إلى هـذا **الاسـم** القـدّوس أمًّـا للإلـه بالنعمـة، وأكتـب عليـه اسـمي (رؤيـا ٣، ١٢)، يصـير «حامـلاً **للاسـم**». إنّـه معيـاري أيضًـا، فـالآن صـار كلّ إنسـان، عنـده **طريـق** بالحقيقـة ولا يبحـث إلاّ عـن الـشيء الوحيـد الـضروريّ (لوقـا ١٠، ٤٢)، يسـمع في أعماقـه عبـارة: «**افـرح!**». ولكـن يمكـن أن يسـمعها أيضًـا في داخـل أيّ حدث.

---

[٤٧] ر. لورانتان، Structure et théologie de Luc I-II، هيكليّة ولاهوت لوقا ١-٢، منشـورات Gabalda، ١٩٦٧، صفحة ٦٧. وجاك دولا بوتري، المرجع المذكور سابقًا، صفحة ٤٩.

[٤٨] الأونتولوجيا هو مجال الفلسـفة الذي يدرس ما هو كائن وخصائصه مجرّد أنّه كائن بغضّ النظر عن علاقته بباقي الأشياء.

كلّ حدث، وكلّ لحظة بما تحويه هي رسول، ملاك آت ليقول لي: «**افرح!**». وعندما التصق بهذا الفرح فإنّه يحرّرني من كلّ الأحداث العرضيّة التي تحصل لي.

عبارة: «نعم، ليكن لي كقولك» (لوقا ١، ٣٨) تفتح الحدث إلى ما وراء ظاهره وتضعني وجهًا بوجه مع **ذاك** الموجود في داخل الكلّ. المهمّ هو أن يلاقي فرحي الداخليّ ذاك الذي في الخارج والذي أجد صعوبة كبيرة في التعرّف إليه. ولكنّ الأوّل يسمح لي بأن اكشف الثاني. وعندما أجتاز هذا الانفتاح العظيم، الذي يكون أحيانًا لا نهائيًّا، بين ما أنا عليه وما ينتظرني في **عمق** الأشياء، عندما يصير قبولي تامًّا ويصير التوافق مثاليًّا بيني وبين ما يحدث لي في أيّ لحظة، يُحتفل بالعرس، لأنّ الاتّحاد بين الخارج والداخل هو اتّحاد عرسيّ، وتاليًا مخصّب، أصير «أُمًّا» حسب وعد المسيح: بفعلي مشيئته، هنا والآن، ألد الواقع الحاليّ ببعده الإلهيّ الحقيقيّ. عندئذ ينكشف لي أصل الحكمة ودهاؤها (يشوع بن سيراخ ١، ٣-٦)، طرقها طرق نِعَم، وكلّ مسالكها سلام. هي شجرة حياة لممسكيها، والمتمسّك بها مغبوط (أمثال ٣، ١٧-١٨).

هذا الطريق وهذه الحكمة، هي مريم نفسها. «بنَعَمِها» الكاملة، تفتح لي الطريق إلى أمومتها. ولكنّ مريم ستتهجّى هذا الفرح طوال حياتها لتتعلّم في النهاية، عند الصليب، إلى أيّ درجة هي تتوحّد مع المعاناة. هنا تكمن كلمة «**نعم**» النهائيّة التي بها تصل كلّ الأشياء إلى غايتها، والتي تجعل **الإنسان** يلد ذاته، شخصه، لأنّه اتّحد أخيرًا بفرح الإله بشكل كامل.

الزيارة: مريم تعبّر عن صوت اليمامة

تسير مريم حاليًّا في طريقها، تمارس الـ«نعم» للفرح من طريق الدهشة. عندما كان تابوت العهد الحاوي التوراة يجتاز مرتفعات اليهوديّة ليوضع في النهاية في صهيون، كان الملك داود يطلق العنان لفرحه، وكان يرقص حول التابوت بفرح جنونيّ، (٢صموئيل ٦). يقول الآباء إنّ ذلك كان صورة سرّيّة مسبقة لما سيحدث لاحقًا. في الحقيقة، مريم هي الآن التابوت الحيّ الحاوي العهد الجديد؛ حبلى، تحمل **الفعل** الإلهيّ، إنّها تعبر مرتفعات اليهوديّة، لتصل إلى عين كارم إلى عند ابنة خالتها أليصابات، التي كانت حبلى بيوحنّا المعمدان. إنّها «زيارة»، لقاء بين بطنين، بين داخلين متوجّهين بالكلّية نحو العمق، ولكن لهذا السبب بالتحديد، يمكن لمريم وأليصابات أن تلتقيا، متوجّهة كلّ واحدة منهما نحو الخارج، في استقبال مطلق. في هذا اللقاء بين الخالق وخليقته من دون أيّ حواجز، بدأ يوحنّا المعمدان في بطن أمّه بالرقص فجأة كداود جديد (لوقا ١، ٤٤). بسبب هذا الحدث غير المتوقّع ولكنّه معبّر جدًّا، يسمّي التقليد يوحنّا المعمدان «نبيّ الفرح»، لأنّه افتتح الزمن الجديد للفرح العظيم الذي لا نهاية له، الذي هو زمن تجسّد الإله بين البشر.

تنبّأ نشيد الأنشاد بذلك: «لأنّ الشتاء قد مضى. بلغ أوان القطاف، وصوت اليمامة سُمع في أرضنا» (نشيد الأنشاد ٢، ١١-١٢). ويوحنّا المعمدان هو صديق العريس، الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحًا من أجل صوت العريس (يوحنّا ٣، ٢٩). يوحنّا المعمدان الذي هو نبيّ الفرح سيصير الشاهد والمبشّر العظيم

لـه، وسـيقول: والآن قـد وضعـت الفـأس عـلى أصـل الشـجر، فـكلّ شـجرة لا تصنـع ثمـرًا جيّـدًا تقطـع وتلقـى في النـار (لوقـا ٣، ٩). «الثمـر» هـو الفـرح لأنّـه ابـن المحبّـة، وكلّ مـن يحـبّ قـد وُلـد مـن اللـه (١يوحنّـا ٤، ٧). سـيولد يوحنّـا المعمـدان بالحقيقـة مـن هـذا الفـرح الفائـق الوصـف في وقـت معموديّـة يسـوع، عندمـا سـيرى السـماء مفتوحـة ويُدخَـل في سرّ حيـاة الإلـه الأبديّـة، الثالـوث القـدّوس الـذي سـيصير يوحنّـا أوّل معاينيـه (مرقـس ١، ٩-١١). إنّهـا اللحظـة المفصليّـة في كلّ حيـاة يوحنّـا المعمـدان، اللحظـة التـي يختـبر فيهـا أعظـم مـا في العـالم ومـا في السـماوات: إنّ عمـق الكيـان **محبّـة**، وتاليًـا **فـرح**، الـكلّ في شركـة واحـدة، **مركـز** كلّ شيء في الخليقـة هـو هيـكل لهـذا **الحضـور** الثـلاثيّ.

بانتظـار ذلـك، يحـسّ يوحنّـا المعمـدان في بطـن أمّـه ببـوادر هـذا الحـدث. وعيـه الـذي تفتّـح للتـوّ مغمـور بغنـاء اليمامـة. الـروح القـدس يرتّـل «نشـيد التعظيـم»، تعـيره مريـم صوتهـا، تهبـه كيانهـا بكلّيّتـه لـكي يطـنّ ترتيـل العـرس هـذا بـين **الخالـق** والمخلـوق في أذني النبيّ-المعلِـن **البـشرى السـارّة**. رقـص يوحنّـا المعمـدان في بطـن أليصابـات لأنّ نفـس **الـروح** المحـرّك لمريـم يسـتحوذ أيضًـا عليـه كلّيًّـا (لوقـا ١، ١٥). إنّهـما الآن معًـا، **أمّ** العهـد الجديـد و**مُعلنـه**، متناغـمان مـع نغمـة «مـلء الزمـان»: الفـرح والشـكر والسـبح دائمًـا: «تعظّـم نفـسي الـربّ وتبتهـج روحـي باللـه مخلّـصي» (لوقـا ١، ٤٦-٤٧).

أوان الترتيل

ربّمـا تكـون الكلمـة التـي تقـول، بأقـلّ خطـأ ممكـن، إلى أيّ

حدّ كان «تناغم» قلب مريم هذا فائقًا للوصف، هي «الدهشة». الفرح يكشف الآن حالة أمّ الإله العميقة، ولكنّ الدهشة هي ردّها الراسخ على **الهبة** التي تلقّتها، إنّها أيضًا كعصا الحاجّ التي تذهب بها نحو الآخرين، نحو الحياة ببساطة. ليست لحظة الترتيل[٤٩] التي يتحدّث عنها نشيد الأنشاد، لحظة عابرة، وقتًا لترديد «**التعظيم**»، شعورًا قصيرًا، بل «اللحظة الأبديّة» التي يفتحها مجيء **الماسيّا**. الزمن منذ الآن «ملء» لأنّه بما أنّ يسوع المسيح، الذي يحمله كلّ واحد بداخله كمريم، هو إله وإنسان، فهو إذًا نقطة الوصل في شخص واحد، بين الزمن والأبديّة. بالنسبة إلينا نحن الناس المهجّرين، التجديد المذهل هو أنّ المسيح أزال نهائيًا بتجسّده التضادّ بين الأبديّة والزمن. الأبديّة هي شخص، هي الإله الذي دخل الزمنَ بالمسيح.

الزمن الآن مسكون، ونحن نحيا فيه كما في معبد يبحث فيه **الحضور** الأبديّ عنّا ويتآنس معنا عبر آلاف اللحظات المتتالية المتجدّدة دومًا. من يعرف كيف يندهش من هذه اللحظات يذهب إلى مصدرها السرّيّ يومًا بعد يوم، ومن هو قريب من **المصدر** يحسّ بترتيله، إنّها لحظة الترتيل. وحدها دهشة التبادل العرسيّة هذه هي التي تجعل الزمن يتجلّى بالنسبة إلى من يريد ذلك فعلاً؛ كلّ لحظة تكون عندئذ مقدَّمةً كمكان للاقتران الوحيد، المكان الذي يمكن فيه أن نتخلّى أخيرًا عن كلّ مقاومتنا ونسلّم أمرنا، صائرين «نعم». ينقلب الزمن «الأجوف» أو «الفارغ»، الزمن «الميت» أو «الهالِك» إلى اكتمال سرّيّ. ولكنّ هذا

[٤٩] ب. جان، Claudel, humour; joie et liberté، كلوديل، فكاهة، فرح وحرّيّة، منشورات Epi، صفحة ٢٦.

غير ممكن إلاّ بالتصاق محبّ باللحظة الحاضرة. يجب بالواقع على إرادتنا أن تقدّم ذاتها وأن تلتزم حرّيّتنا وتقوم باختيارها، يجب المضي إلى الحدث بالكلّيّة، كما ذهبت مريم إلى أليصابات: أسلوب صيرورتنا هو إذًا مريميّ، إنّه يسعى إلى «زيارة» الواقع من الداخل، لحظة بعد لحظة، لاكتشاف كلّ عمقه.

ذهبت مريم إذًا في «زيارتها» إلى أليصابات، ولكن في اللحظة التي تلي ذلك، ستزور بالطريقة ذاتها مطبخها وأثاث بيتها وحياكتها والأمور البسيطة المتعدّدة التي تملأ الحياة اليوميّة. بداخل كلّ ما تفعله، هناك وجهة، وجهة وحيدة. نتلمّس من جديد هنا ما هو مركز الحياة؛ تفقد هذه الحياة جوهرها ما إن تفقد وجهتها الداخليّة. إذا كنّا نعيش بشكل سيّئ جدًّا، بشكل ناقص جدًّا أو كنّا لا نعيش على الإطلاق، فلأنّه بدلاً من أن نعيش الحياة، نكون مُعاشين، بدلاً من أن نملأ حياتنا، هي التي تملؤنا وحتّى تشغل بالنا، نتطابق مع «مشكلاتنا»، ونضطرب بهمومنا، يتأجّج العقل، تشلّنا صعوباتنا. لا شيء يضني أكثر من القلق، لا شيء ينهك كالشكّ. عندما نكون سطحيّين بلا عمق، نصير بلا تواصل مع المحبّة. نكون عندئذ كآلات تعمل. «ولكن لا يقدر خادم على أن يخدم سيّدين، لأنّه إمّا أن يبغض الواحد ويحبّ الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر» (لوقا ١٦، ١٣).

نظرة الإله إلى الإنسان

ليس عند مريم أيّ شيء من هذا! فكيانها يتميّز بغياب كامل لكلّ ما هو مأساويّ. كما يقول الأب سيون: إنّها لا تجعل

العدم «مأساة» بل تعدم «المأساة»[٥]. حيث يكون كنزك يكون قلبك. **العريس** ليس غائبًا أبدًا بالنسبة إلى العروس؛ بالنسبة إلى مريم كلّ شيء بسيط وسلاميّ بشكل غير عاديّ، الكلّ نور. فلوكانت منحرفة عن طريقها لأيّ سبب، لكانت نفسها مشوّشة وقلبها ممزّقًا بمتطلّبات الحياة اليوميّة الكثيرة جدًّا. ليست مريم حبيسة أمور الحياة، أسيرة الزمن وما يحويه، بل على العكس تمامًا! كما تقول في **التعظيم**: تبتهج روحي بالله مخلّصي، لأنّه نظر إلى اتّضاع أمته.

اللحظة، مهما كانت متعِبة، هي دومًا، في حقيقتها العميقة، رسول فرح، لأنّ الإله يعمل، حتّى في أوقات الهول، من أجل خلاصي. المعنى الحقيقيّ لحدث ما لا يكمن في سطحيّته، بل ما ينكشف لي فيه عبر الكتاب المقدّس: عبر كلّ ما يحصل لي، الله يراني، ويقول لي: «لا تخف لأنّي افتديتك...أنت لي. إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تُلدغ، واللهيب لا يحرقك. لأنّي أنا الربّ إلهك قدّوس إسرائيل، مخلّصك. إذ صرت عزيزًا في عينيّ مكرّمًا، وأنا قد أحببتك». (إشعياء ٤٣، ١-٤). لا تحيا مريم إلاّ بدفع **الكلمة** القويّ هذا الذي يخرجها من أفقها؛ إنّها منغلقة في أفق الإله غير المحدود، «ليكن لي كقولك» (لوقا ١، ٣٨)! وحده هذا الإيمان الذي عند مريم، التي بنت حياتها على **كلمة** الإله بدلاً من معتقدات هذا العالم ومبادئه، قادر على انتشالنا من العدم.

إذا كانت معجزة محبّة الإله، التي بُرهنت بتعظيم مريم،

---

[٥] «La simplicité de l'Ecole de Marie»، «بساطة مدرسة مريم»، ملاحظات مطبوعة مكتوبة في عزلة، صفحة ٢.

صحيحة، أي القدير صنع بي عظائم، ورحمته إلى جيل الأجيال، فالفرح إذًا إلزام قاطع: اذهبوا قولوا للمسيحيّين إنّ عندهم واجبًا واحدًا هو الفرح (بول كلوديل). ولكن أيظلّ ذلك واجبًا عندما نترك نظرة الإله الأبديّة المحبّة ملقاة علينا، وأيضًا «رحمته»، التي هي كلمة صعب أن تترجم من العبريّة، ولكنّها تعني أنّ الإله متأثّر حتّى الأعماق في حنوّه الأموميّ غير المحدود على الإنسان (إشعياء ٥٤، ٧-١٠). لنتذكّر أولئك الذين تركوا هذه النظرة عليهم طويلاً: لنتذكّر فرح السامريّة الجنونيّ، تغيّر زكّا الجذريّ، متّى الذي نهض متمايلاً من مكان الجباية ليتبع يسوع، سيل دموع الفرح الذي سكبته مريم المجدليّة، رعشة بيلاطس البنطيّ، إقامة لعازر، اختلال اللص على الصليب، والعُمي الكُثر الذين أعطاهم يسوع نار نظره، وغيرهم. أيظلّ ذلك واجبًا؟ لا، بل فيض، تأجج عفويّ، ثمالة! كانت مريم بكلّيّتها مؤسَّسة بهذه النظرة، منتشية بنورها. لن نعرف أبدًا سرّها العميق عبر كلّ تلك السنوات منذ ولادة يسوع وحتّى موته. نعرف فقط أنّه عند الصليب، اخترقت نظرته الأخيرة، بعينيه المليئتين بالدم، قلب مريم كسيف. إنّها الزيارة الأخيرة.

مريم أو سلوك التلميذ الأساس

ترتل كلّ لحظة على طريقتها مجد الإله. إنّها ترتل أيضًا عبر وجه البشريّة المضرّج بالدم. طريقة الترتيل تخصّ الإله، واللحظة تخصّ الإنسان. يكمن تدريبنا الأساس في اللحظة الحاضرة، فيها وحدها، من دون أيّ مكان آخر، يمكن أن أزور

الحياة وأن تزورني. نحن بحاجة إلى وسيلة لنصل بها السماء بالأرض، بمفصل يوحّد فعل الإله مع فعلنا، ولكن كيف يمكن عمليًّا، انطلاقًا من وجودنا الحقيقيّ، أن نختبر الإله ضمن نشاطاتنا المتعدّدة؟ هذه النقطة المفصليّة لا يمكن أن تكون إلاّ اللحظة، نقطة تلاقي الأبديّة مع الزمن، مكان التجسّد والفصح في كلّ حين: فحتّى في هذه اللحظة، ومن دون أن يتدخّل عقلي ليحكم، ويقيم وينقد ويرفض، يقودني الإله ويُظهر لي كلّ محبّته.

ففي القبول الكامل لكلّ ما هو موجود ولكلّ الأحداث التي تواجهني، أتّحد بإرادة الإله وأقترن به. يقدّم كياني ذاته للإله كالأرض الجيّدة في الإنجيل التي تعطي ثمرًا وينتج الواحد فيها مئة (متّى ١٣، ٨). الأرض الجيّدة، التربة العضويّة الحقيقيّة لها كلّ ما يميّز التواضع، تواضع الأمة، كما تقول مريم في التعظيم. إنّه الإصغاء والاستقبال التامّ، المقدَّم والمنفتح على كلّ ما يأتي: سكّة المحراث التي تحرث، البذار الذي يلقّح، المطر الذي يروي. تدع التربة العضويّة ذاتها تَنقلب، وتَنحفر وتُخترق. إنّها نقيّة وبلا امتزاج، بدون أيّ إرادة ذاتيّة: إنّها أرض عذراء. ولكن عندما تتلقّى هذه الأرض الحبّة، فإنّها تتّحد بها، يقترن الاثنان جيّدًا لدرجة أنّ البذرة تذوب في الأرض والأرض في البذرة، تصير الأرض العذراء عروسًا، لا يمكن لأيّ من الاثنين أن يكون من دون الآخر.

ولكن ما من زواج لا يؤدّي مباشرة إلى حَبَل. تقترن الأرض بالحبّة التي تخترقها كبرعم، تشكّل لها مكانًا في الأرض، وتبدأ بولادة تعطي فيها مادّتها الخاصّة بها. لقد عرفناها، الأرض

الجيّدة في المثل، هي أروع صورة لمريم، إنّها هي الأرض العذراء، العروس، الأرض الأمّ. هكذا تكون هي النموذج الأمثل للتلميذ. لا يمكنني إذًا أن أتعلّم السلوك الأساس لاتّباع يسوع إلاّ من مريم. من هناك، من بطن مريم، من بطن **الأرض-الأمّ**، الذي تُمّمت فيه مشيئة الإله، ينطلق كلّ تاريخ البشريّة في ولادة عظيمة. تاريخي الآن، لحظتي الحاليّة هي كبطن مريم، هكذا نرتّل في الكطافسيّات: أرحب من السماوات، هيكلاً مستنيرًا **بالروح**. ولكنّ هذه الأرض لا تُزار إلاّ بالتسبيح، أداة شكر وتعارف في آن واحد.

تعظّم نفسي الربّ وتبتهج روحي بالله مخلّصي!

عند مريم، تصل «لحظة الترتيل» إلى ذروتها في الصمت، لأنّه فيه يجد كلّ تسبيح تمامَه. كان الترتيل المتدفّق من حَبَلها السرّيّ مسكونًا بالكامل **بالحضور** الفائق الوصف والذي كان لا يزال غير معروف. ولكن عندما سيظهر الكلمة بنفسه في العالم، ستصمت مريم.

ولادة يسوع (لوقا ٢، ١-٢٠): يغدو التسبيح دهشة

يتهلّل كلّ كيان مريم فرحًا ويبتهج **للحدث** الفائق وصفه القادم. كما أنّ الملاك أعلن **الحدث** أوّلاً إلى أكثر الناس صمتًا، أي الرعاة، داعيًا إيّاهم إلى الفرح ذاته: ها أنا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: إنّه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الربّ. وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويّ مسبّحين الله، معطيًا بذلك الصبغة الحقيقيّة للزمن الجديد الذي بدأ: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام،

وبالناس المسرّة»، (لوقا ٢، ١٠-١٤).

منذ أن بزغ يسوع في سكون ليلة الميلاد، زار **النورُ** الظلمات، فاستنارت كلّ ليالي الإنسان. كما هو الحال بالنسبة إلى مريم، وحانت «لحظة الترتيل» بالنسبة إلى كلّ إنسان. ترتّل الكنيسة بلا توقّف لأنّها بطن مريم الذي فيه يدع الإنسان نفسه «تتناغم» مع ترتيل الكنيسة هذا. ولكن في الميلاد، تصل النصوص المرتّلة دومًا إلى حدود ما هو فوق الوصف التي لا تقدر على تجاوزها، أحيانًا يكون صوت الترتيل هو وحده القادر على أن يحمل النصّ إلى ما وراء حدود التعبير، وأحيانًا أخرى توحي النصوص بأمور متناقضة لدرجة أنّ الإدراك المصلوب يُفضي مباشرة إلى التأمّل الصامت.

كلّ شيء في هذا السرّ يناقض العقل ويعاكسه: مريم عذراء وأمّ، الكلمة الإلهيّ المولود خارج الزمن من الآب من دون أمّ، يولد اليوم في الزمن من أمّ من دون أب، يصير الإله إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا، لا تجد طبيعة الإنسان المحدودة الملء إلاّ بالانفتاح على لا محدوديّة الإله، بما أنّ الإنسان هو على صورة الإله فهو يساهم في الألوهة ولا يحقّق ذاته إلاّ بالتألّه. بولادة المسيح في الجسد، نَفَذت إلى كلّ الخليقة الطاقة الإلهيّة التي تجعل كلّ الأشياء جديدةً، وتبعث فيها ألق الإله ومجده، لقد صنع **الأزليّ والمستنير**، الجالس على عرشه الأسمى من الشيروبيم، مسكنًا له في قلب الإنسان.

اليوم البتول تلد الفائق الجوهر،
والأرض تقرّب المغارة لمن هو غير مقترب إليه،

الملائكة مع الرعاة يمجّدون، والمجوس مع الكوكب في الطريق يسيرون،

لأنّه قد ولد من أجلنا صبيّ جديد، الإله الذي قبل الدهور! (قنداق الميلاد).

إزاء هذا القدر من التناقضات التي لا توافق المنطق، لا يمكن للعقل إلاّ أن يستسلم ويعترف بالأمر الواقع. هذا ما يبحث عنه ناظم التراتيل. إذ يستحوذ عليه «فرح حماسيّ[٥١]»، فينقل المرتّل من فكرة أو صورة فيها تناقض إلى أخرى، وفي فضاء الأضداد هذا لا يبقى أيّ مكان لأيّ تفكير، فيتنحّى العقل ويصمت ويترك المكان للدهشة. يتّحد عندئذ العقل بالقلب، ويتمّ اختبار ما هو مرتّل: تغمر الليتورجيا بالمجد الإلهيّ! نحن هنا في عمليّة تحوّل عميق تحصل للإنسان الذي ينخرط فيها بحرارة: ينتقل من نفسه، السطحيّة والدنيويّة، المضطربة والمشدودة بأمور متعدّدة، القلقة، الازدواجيّة، الحزينة، إلى (القلب-الروح) خاصّته، الذي يتجاوز الأضداد، ويعمل بأسلوب قائم على الاختطاف، مادّته هي السلام والفرح.

النظر بشكل آخر وإلى شيء آخر

وهكذا يوصلنا قلب الكنيسة إلى قلب مريم، لأنّهما واحد بالكلّيّة. في هذا العمق الهائل المنفتح على الصمت، تصير «لحظة الترتيل» لحظة الدهشة، من دون أن تترك الواحدة المكان للأخرى: نرتّل باندهاش، ولكنّ الاندهاش أيضًا هو غالبًا ترتيل

[٥١] «الفرح الحماسيّ» تعبير شائع في تيّار الهازيديّة الصوفيّ اليهوديّ ويُستخدم لوصف حالة انتظار الماسيّا.

بلا كلمات. «يقظة القلب» هذه هي أكثر عبارة تصف بها مريم (لوقا ٢، ٥١)، إنّها في مركز كلّ التقليد الهدوئيّ[٥٢]. إنّها بالحقيقة، كما رأينا، السلوك المثاليّ الذي يعرضه الكتاب المقدّس، سلوك الإنسان أمام الإله: «اسمع يا إسرائيل»! (تثنية ٦، ٤). هنا، تجمع مريم في ذاتها كلّ البشريّة الساجدة أمام مهد **الحياة** المولودة. إنّها أمّ الأحياء التي قدّمت أخيرًا للإله «النعم» الذي لم يعرف الإنسان أبدًا أن يقدّمها بالكامل منذ حوّاء. في البشارة، كانت النعم إصغاء طاعة بلا حدود، في الميلاد كانت إصغاء دهشة ستكون بلا نهاية. كان لا بدّ في البدء من التوافق الكامل للإنسان مع الإله حتّى يجد في ما بعد التناغم المفقود منذ البدء، الصوت الخالق الذي يهزّ المخلوق ويضعه على الموجة ذاتها. في الميلاد، هبطت هذه الدهشة السماويّة، التي هي الحكمة الراقصة أمام خالقها، إلى قلب الإنسان بيسوع، وتاليًا إلى قلب كلّ الناس، الذين كانت مريم أوّلهم.

الدهشة هي حالة مريم الدائمة؛ وعلينا أن نتعلّمها منها بسلوكنا **طريقها**. وهل هناك طريقة فضلى لتعلّمها من أن نبدأ بتركيز نظرنا معها على الذي ولد والذي صار الآن الكلّ في الكلّ والكلّ لم يكن إلاّ به، وفيه ومن أجله؟ ولكنّ الرؤية المندهشة هي وحدها التي تقدر على أن تتعرّف إلى هذا **الحضور** المولود بشكل دائم في كلّ الأشياء، في كلّ كائن، في كلّ حدث. به فقط يجد الكلّ ولادته الحقيقة، أي أصله، معناه وتمامه. من أجل

[٥٢] من الهدوء والسلام. التقليد الهدوئيّ هو حياة الصلاة والنسك، حياة الجهاد الروحيّ وتألّه الإنسان، كما أوجدته الأرثوذكسيّة وطوّرته منذ آباء الصحراء.

ذلك، نحتاج إلى نظرة طفل، نظرة مريم، الطفل بامتياز. دهشتها هي المفتاح الذي يفتح الباب إلى **المملكة** المخبّأة في عمق كلّ شيء والذي يسمح بأن نرى شيئًا آخر وبأن نرى العالم بشكل مختلف.

هذه المعرفة الجديدة التي تهزّنا بالفرح هي التي تجعل المتأمّل يغوص، أوّلاً في السكون، سكون أناه، برغباتها، واندفاعاتها، وأفكارها، ثمّ في صمت أمام ما لم يُر من قبل. تحرّر من الأنا، امتلاء بالاختطاف من قبل **الآخر**، عذريّة-أمومة. باختبار ولادة المسيح في نفسنا وفي كلّ الأشياء بالتأمّل، نولد في سرّنا الخاصّ بنا، في هويّتنا الحقيقيّة، والدهشة هي الطريق المفضّل لهذه الولادة الثانية! نصير ما نتأمّله ولهذا ونحن جميعًا ناظرين مجد الربّ بوجه مكشوف، كما في مرآة، نتغيّر إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد، كما من الربّ الروح (٢كورنثوس ٣، ١٨).

يقول القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ (القرن الرابع): ما دام الإنسان ملتصقًا بنفسه، حبيس ذاته المتمركزة على الأنا، فهو بلا وجه، إنّه هباء لا شكل له، حامل قناع الوحش. الدهشة نور يجعلنا ننسلخ عن ذاتنا وتُزيد في الإنسان لقاءً محرِّرًا، يصير فيه وجهه الذي بلا شكل شفّافًا يَظهر عبره الوجه الإلهيّ. هذا التبادل الحميميّ، وجهًا إزاء وجه، هو الذي يتحدّث عنه القدّيس بولس والذي يجعل الإنسان يولد في ذاته بولادة المسيح فيه. لا يكون وجه الإنسان الحقيقيّ إلاّ بإشعاع حضور المسيح فيه، وهذا يعني أنّ الإنسان يولد بشخصه الوحيد. وهكذا فإن كلّ القدّيسين يعيشون مثل مريم في حالة دهشة، لأنّها طريق

تألّههم. الدهشة هي التسبيح من دون كلمات، أو بالأصحّ، التسبيح الذي يصير جسد الإنسان ودمه ونَفَسه، لأنّ المندهش يكون في الإله ويصير في النهاية مشابهًا له.

اللقاء المقدّس (لوقا ٢، ٢٢-٣٨)

بعد أربعين يومًا من ولادة **الطفل**، قدّمته مريم إلى هيكل أورشليم، حسب شريعة موسى، لأنّ «كلّ فاتح رحم هو لله» (خروج ١٣، ٢). أربعون: إنّه زمن نضج بطيء لمريم في «يقظة القلب». والآن، كما لو أنّ طقس **التقديم** هذا سيكشف لها المعنى الأخير لدهشتها. قلنا إنّ من يندهش يختبر الإله، لأنّ الدهشة هي اختبار تخلٍّ عن الذات، وتحرّر، وفقر، وعدم التصاق بالذات، وفي هذا الفراغ عينه يحدث الاختطاف الكامل من قبل **الآخر**. بتقديم يسوع للآب، حصلت مريم على نعمة الدخول في سرّ العلاقات الثالوثيّة. سبق أن فهمت من تأمّلها باندهاش **للطفل** في مذود للبهائم أنّ الإله يأتي إلى الإنسان في تجرّد تامّ، بأنّه يظهر في تخلٍّ عن الذات، بأنّ الإله فقير من كلّ شيء، حتّى من ذاته. هذا ما سترتّله في ما بعد الكنيسة الأولى في إحدى أولى تراتيلها، التي حفظها القدّيس بولس:

«الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنّه أخلى نفسه، آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس. وضع نفسه وأطاع حتّى الموت، موت الصليب»، (فيليبّي ٢، ٦-١١).

بتقديم مريم الابن للآب الآن، هي تتأمّل السرّ ذاته

وتعيشه: كما أنّ يسوع يضحّي بنفسه بالكامل من أجل البشريّة، كذلك يقدّم نفسه للآب، اليوم في الهيكل، ومنذ الأزل في السماء. مريم، المتوافقة بالكامل مع هذه الحركة الكبيرة نحو **الآخر**، تكتشف أكثر فأكثر المعنى العميق لأمومتها و**للحياة** التي ستستمرّ في إنجابها حتّى موت يسوع وقيامته. بمريم، يكون كلّ إنسان مرتبطًا بالتجربة ذاتها ومدعوًّا إلى أن يعيشها. لأنّ كلّ شيء هنا: أن نتعلّم أن نعيش! ومع يسوع الذي هو **الحياة** (يوحنّا ١٤، ٦) نتعلّم أنّ الحياة، هي الدخول في هذه الحركة نحو ذاك الذي هو جوهر الحبّ. في الثالوث الإلهيّ يكون كلّ شخص من الأشخاص الإلهيّة الثلاثة متموضّعًا في **كيانه**، فقط عبر تموضعه في **الآخر**[٥٣] بعطاء متبادل ومطلق. إنّه نوع من الرقص المُحبّ الذي يختفي فيه كلّ واحد من تلقاء نفسه لكي يكون الآخر بالكامل: وبذلك يصير هو أيضًا بالكامل[٥٤]. لا يوجد في الإله أيّ تقوقع على الذات. الكلّ عطاء واستقبال. الولادة في **الذات** هي ولادة ثانية مرافقة للولادة في **الآخر**، عمق الكيان هو حب، شركة، استحالة.

ولكن في هذا التخلّي الكامل عن الذات، تظهر أيضًا حرّيّة كاملة في الإله ونبع فرح لا نهاية له. لقد توجّب الغوص حتّى هذا الحدّ، حتّى جذر الكيان لنكتشف هناك السبب الوحيد والأخير للتسبيح. كما أنّه لا يوجد أيّ فصل بين تقديم يسوع للآب من قبل مريم ووضعها إيّاه بين ذراعي سمعان الشيخ (لوقا ٢، ٢٥-٢٨). يرمز هذا الشخص بامتياز إلى عالمنا القديم،

---

[٥٣] ف. فاريلون، Joie de croir، فرح الإيمان، منشورات Centurion، صفحة ١٣٩.

[٥٤] أوليفييه كليمان، Questions sur l'homme، أسئلة عن الإنسان، منشورات Sigier، صفحة ٣٤.

المتعب والمثقل بآلاف السنين من البحث والانتظار والصلاة والحنين، إنّها بشريّة متعثّرة في طريق مسدود. مريم هي التي تملك **الجواب**، ومنها نتلقّاه. إلى سمعان، ذاك الإنسان الذي يواجه عجزه وموته، قدّمت **الحيّ**. فأخذ الشيخ المرتجف بين ذراعيه **الطفولة** الأبديّة وصاح قلبه بدهشة:

الآن تطلق عبدك يا سيّد حسب قولك بسلام،
لأنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك،
الذي أعددته قدّام وجه جميع الشعوب (لوقا ٢، ٢٩-٣١).

يحمل الإنسان المندهش الإله بين ذراعيه، أي في كلّ كيانه؛ لا يعود خائفًا من الموت ويمضي إليه بسلام. صار هذا الشيخ منذ الآن يشعّ **بذاك** الساكن فيه والذي يأخذه إلى ما وراء الأضداد: «شابّ وعجوز»، «حياة وموت»... إنّه الحكيم الحقيقيّ الذي حطّم الزمن وتجاوزه. هذا الرجل لا يشيخ، إنّه ينضج باختبار الشباب العجيب الذي هو العرس مع وجهه الأبديّ؛ يقترن **بذاك** الذي لا عمر له. بعيدًا عن الركود في غرفة انتظار الموت، يستسلم ويسلّم ذاته لكيان الإله الذي هو مستقبلنا (إيكارت، القرن الثالث عشر). في هذا الاستسلام المتبادل من الإنسان إلى الإله ومن الإله إلى الإنسان تكمن خصوبة **المحبّة**، ولادة الإنسان الأبديّة في الإله، نموّ لا نهاية له. ما يتأمّله العجوز لا يمكن أن يُفهم إذًا ويفوق كلّ عقل. لا يبقى لديه للتعبير، غالبًا، إلاّ الابتسامة الصامتة، هو نور لما حوله ويجذب الآخرين سرًّا بهذا الإشعاع، نُعجب به ونحبّه للفائق وصفه المنبعث منه. سمعان الشيخ هو، في مطلع العهد الجديد، الأوّل بعد مريم

الـذي شـهد، بترتيلـه المندهـش، أنّ معيـار الحيـاة هـو **الفـرح** وأنّ الحيـاة لا يمكـن أن تسـقط معـه. الشـباب الحقيقـيّ هـو منـذ الآن مسـتقبل، يمكـن فقـط للذيـن يسـلكون **الطريـق** أن يكتشـفوه.

عرس قانا الجليل (يوحنّا ٢، ١-١١): حبّ وفرح غير منفصلين

طريـق الشـباب الدائـم والمجـد الإلهـيّ، المـودع عنـد مريـم هـذه، هـو بالحقيقـة مقّـدم للجميـع، ومريـم تحـرص عـلى أن تنقلـه إلى كلّ إسرائيـل أوّلاً، ومـن ثـمّ إلى كلّ العـالم. الحقيقـة هـي أنّـه لا يوجـد إلاّ طريـق واحـد يحـوي المجـد الإلهـيّ، مهـما اختلفـت طرائـق التعبـير عنـه: إنّـه طريـق الحـبّ. يمكـن أن نتلمّـس هنـا مـا يمكـن معرفتـه بحـقّ بالتجربـة فقـط: التفاعـل بـين المحبّـة والتمجيـد، الحـبّ والفـرح غـير منفصلـين، الواحـد يقـود إلى الآخـر، الواحـد يعـبّر عـن الأخـر، عندمـا نحـبّ يكـون هنـاك دومًـا فـرح، وحيـث لا يكـون فـرح لا يكـون هنـاك حـبّ كثـير. ربّمـا ينكشـف، في مرحلـة نهائيّـة مـن **الطريـق**، أنّهـما مـن المـادّة ذاتهـا. المـكان الممتـاز، الـذي يختـبر فيـه كلّ واحـد ذلـك، مـن دون أن نعـرف ولكـن كـما في حـدس أكيـد، هـو في حفلـة العـرس. وهكـذا، ففـي عـرس قانـا الجليـل، الـذي كان يسـوع وأمّـه مدعوّيـن إليـه، طلبـت مريـم إلى ابنهـا أن يُظهـر للمـرّة الأولى مجـده الماسـيّانيّ! كيـف؟

في حفلـة حـبّ هذيـن الشـابّين، فرغـت الخمـر، التـي هـي رمز الفـرح بالتحديـد! لم تلحـظ مريـم هـذا الحـدث فقـط بـل أحسّـت بـه كمشـكلة كبـيرة. يكمـن كلّ شيء في الذهـول الـذي تخفيـه جملـة: «ليـس لهـم خمـر» التـي قالتهـا ليسـوع، رغـم أنّ لـه صـدى

قويًّا. نفهم بوضوح مجمل ما حصل، إذا عرفنا أنّه على المائدة اليهوديّة التقليديّة تُقدّم كأسان. يوزّع الأولى صاحب الحفلة في بدء المأدبة، عند أوّل كسر للخبز: إنّهما خبز وخمر الاستقبال والضيافة. أمّا كأس الخمر الثانية فتقدّم في آخر المأدبة، وتسمّى «تقدمة إفخارستيّة[٥٥]»، لأنّها مباركة وشكر. الكأس التي شربها المسيح عندما تناول الطعام للمرّة الأخيرة مع الرسل هي هذه الكأس الثانية: بارك وشكر وقال: هذه الكأس هي دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجلكم (متّى ٢٦، ٢٧-٢٨). ففي قانا وصل العشاء إلى خاتمته وكان الخمر الناقص هو لهذه الكأس الثانية، إنّه خمر الشكر! لذا تشفّعت مريم بقولها: «ما عاد عندهم خمر للتقدمة الإفخارستيّة». وهكذا يمكن أن نفهم اضطراب المسيح، لأنّ هذه الكأس الإفخارستيّة في آخر العشاء، ستكون أيضًا في ما بعد، كأس العشاء السرّيّ. لذا قال يسوع لمريم: «لم تأت ساعتي بعد». وهنا يبدأ كلّ شيء!

الإله في الـ«هنا والآن»

في مأساة هذا الحالة حيث هناك خطر أن تُهزم الحياة أمام نقص ما هو أساس، تفتح مريم من جديد الطريق الوحيد الممكن للخلاص بقولها: «مهما قال لكم فافعلوه». هي تعرض على كلّ واحد ما هو عمق كيانها: الإصغاء **للكلمة** وممارستها. بهذا، تلد مريمُ يسوعَ بمهمّته والإنسانَ بسلوك التلميذ. تصير

[٥٥] الإفخارستيّة كلمة يونانيّة تعني الشكر وهي مكوّنة من قسمين: إفخا أي فعل ورستي أي نعمة. ويستخدم مصطلح action de grâce أي «فعل النعمة» بالفرنسيّة للدلالة على الشكر الذي يُرفع للإله.

أمّ الأحياء، في زمن الموت هذا في قانا، المحرّك-الوسيط العظيم لبشريّة جديدة، ولكن، أيضًا **العروس**، بقيّة إسرائيل، التي تقدّم ذاتها في عهد مع الربّ وتسمح له بأن يستهلّ الأزمنة الماسيّانيّة، أي يبدأ «**ساعته**»، المعلنة من الأنبياء: «وأردُّ سبي شعبي إسرائيل...، ويغرسون كرومًا ويشربون خمرها» (عاموس ٩، ١٤). قبل المسيح أن يبدأ هذه **الساعة** لأنّه بمريم يستعدّ قلب البشريّة لاستقباله؛ ولكنّها بداءة من دون نهاية حتّى الاحتفال العظيم بالعرس الأبديّ في الآخرة، الذي أعلنه النبيّ إشعياء، حيث ستسيل بغزارة الخمر الجديدة (٢٥، ٦).

ربّما تخيلنا ظهورًا **لمجد** كالذي سيكون عند نهاية العالم لتدشين «**ساعة**» الماسيّا العظيمة هذه المنتظَرة منذ زمن بعيد والمعلَنة عبر العصور. ولكن ها هو التغيير الجذريّ للإله الذي لا يتوقّف عن التجسّد: هذه «**الساعة**»، ستكون الـ «هنا والآن» العظيمين، **الحضور** الأبديّ، لأنّ ملكوت الله في ما بينكم، هناك، في التفاصيل الدقيقة، في التصرّف البسيط، وفي بدهيّات الحياة اليوميّة الغامضة. نهض يسوع عن الطاولة وقال: «املأوا الأجران ماءً، استقوا الآن وقدّموا إلى رئيس المتّكأ...» أهناك ما هو أبسط من ذلك، ما هو اعتياديّ أكثر من ذلك، بل ربّما ما هو أكثر ابتعادًا عن المنطق عندما نعلم أنّه يتكرّر كلّ يوم، كما بالنسبة إلى السامرية (يوحنّا ٤)؟ ولكن رغم ذلك، فإنّه في هذه التصرّفات الحياتيّة البسيطة، المنفتحة والخالية من ذاتها، كهذه الأجران، سيسكب المسيح أنهارًا من مياه الحياة، نعمة الحبّ والفرح، ستمائة لتر من النبيذ دفعة واحدة!

كلّ شيء على الإطلاق، في حياتنا الروحيّة، يكمن في هذا التحويل. السرّ هنا: في تحويل الحياة إلى **حياة** الإله؛ وتحويل ماء حياتنا اليوميّة العديم الرائحة واللون والنكهة إلى نبيذ الفرح المتلألئ الذي يملأ كلّ لحظة من حياتنا! ولكن لكي تنفتح «**الساعة**» لنا، يجب أوّلاً أن نشرب من كأس الحياة بالشكل الذي تظهر فيه في كلّ ساعة، ومن ساعة إلى أخرى. أن نستقبلها ونقبلها بالكامل (متّى ٢٠، ٢٢). وهكذا فماء الحياة الاعتياديّ هذا يصير تطهيرًا، وسيتّضح أنّه مكان التدرّب النسكيّ والعمل على الذات عينه، فيه فضائل المعموديّة التي يجعلنا نحياها في كلّ لحظة. **الطريق** موجود دومًا في الـ «هنا والآن» أو غير موجود على الإطلاق! هنا في كلّ ساعة من الساعات يكون بإمكاني أن أفعل كلّ ما يقوله، أن أقيم عهدًا مع ما يحصل في كلّ لحظة، أن أكون خاليًا من ذاتي كالأجران ليكون عندي مكان لاستقبال الحدث، من دون تذمّر أو محاكمة عقليّة. من يقبل هكذا كلّ شيء، حتّى ما لا يمكن قبوله، على السواء، يمكن أن يتقدّم كثيرًا في النسك الصارم الذي يحوّل الأنا، ويوقظنا من سباتنا الذي نتصرّف فيه لا إراديًّا ويحرّرنا من الثقل.

الحياة: اقتران مع الإله

ولكن ذاك الذي، بدلاً من قبول الحدث فقط، يذهب إلى ملاقاته، ويحبّه مباركًا إيّاه وشاكرًا الربّ، لأنّه يرى أنّ كلّ شيء عطيّة من الإله، يحوّل الماء إلى نبيذ. كما يقول القدّيس غريغوريوس النيصصيّ (القرن الرابع): «عطش المحبوب عظيم

لدرجة أنّه لا يرتوي من الكأس بل يضع فمه على الدنّ الذي يفيض نبيذًا مسكرًا. يصير كلّ شيء عندئذ ارتجافًا، اقتلاعًا ممّا هو اعتياديّ وممّا هو ضمن الحدود، يستحوذ سرّ **الحبّ** على كلّ شيء ويعبّر عن ذاته عبر كلّ شيء. النشوة التصوّفيّة لا تدوم إلاّ للحظة، أمّا العناق الإلهيّ فهو ما تحويه كلّ لحظة بالنسبة إلى من يقترن بالحدث. الشكر الدائم يحفر الزمن وينفذ إلى **الماوراء**، ثاقبًا التناقض والعدم، وموصلاً إلى الينابيع الجوفيّة **للفرح** غير المشروط.

ولكن كلّ استحالة هي موت. فكما نعلم جميعًا، لصنع النبيذ، يُقطف العنب ويُسحق ثمّ لا يتحوّل إلى نبيذ إلاّ بتخمّر بطيء. من يمارس الشكر رغم أنّ كلّ شيء يعاكسه ولا يسير على ما يرام، يعلم بأيّ عناء يمرّ، وإلى أيّ تجرّد عن الذات يكون مدعوًّا باستمرار؛ هذه الممارسة هي الفعل الأسمى في التخلّي عن الذات، الأكثر معاكسة لأنانيّتنا المتأصّلة فينا، والأكثر صَلبًا. هذا الإنسان تلميذ يتبع المسيح الذي يحوّل النبيذ إلى دمه لأنّه ليس لأحد حبّ (أو فرح) أعظم من هذا: «أن يضع أحد نفسه لأجل أحبّائه» (يوحنّا ١٥، ١٣). لنتذكّر أنّه بالإفخارستيّا، أي بالشكر، حوّل المسيح النبيذ إلى دمه في العشاء السرّيّ، وأنّه، لتمجيد أبيه، مات على الصليب. ذلك هو اكتمال «**الساعة**» (يوحنّا ١٣، ١). نفذ الخمر في قانا وسينفذ الدم حتّى آخر قطرة على الصليب. ولكن عندما سيطعن قائد المئة قلب المسيح، فيسوع سيزفر **روحه** ويملأ بها كلّ العالم: «يتحوّل الدم إلى **نار** الروح القدس، لأنّ المحبّة لهيب نار، لظى الربّ» (نشيد الأنشاد

٨، ٦). يسوع يزفر وأنا أشهق حبّ الإله الجنونيّ الذي يموت لكي أحيا.

وهكذا فعندما نتشارك في جسد المسيح ودمه وبنار الروح القدس في الليتورجيا، ندخل بكلّيّتنا في حركة التحوّل العظيمة هذه: يصير جسدنا هو جسد المسيح، ويجري دمه في عروقنا، ويصير الروح القدس هو ما نتنفّسه وما يحرّكنا. المسيح، بجلوسه في عرس قانا، هو **العريس** الحقيقيّ الذي يبحث عن الإنسان ويمضي به إلى فصحه وتحوّله. كلّنا مدعوّون إلى عشاء عرس **الخروف** (رؤيا ١٩، ٩)، وعندما نصير جسدًا واحدًا معه (متّى ١٩، ٦) تصير الإفخارستيا هي مادّتنا. أنّ نحيا يعني أن نكون إفخارستيّين في كلّ شيء، أي أن نحوّل حياتنا إلى **الحياة** بالشكر غير المنقطع. أن نفعل كلّ ما يقوله هو إذًا أسلوب صيرورة، إنّه أسلوب مريم، الذي يبني فيه الإنسان حياته على كلمة المسيح الإله، النبع الوحيد والكامل لكلّ تحوّل، سرّ اقتران الخالق بخليقته.

مريم عند الصليب: يصير الطريق قفزة

الاقتران الذي يتقبّل به الواحدُ الآخرَ حتّى يصير مشابهًا له، كما هو الحال عندما يصير الإله إنسانًا والإنسان إلهًا، يُحدث حتمًا انقطاعًا في لحظة ما. ما من استمرارية «طبيعيّة» بين الإله والإنسان، ولا بين الإنسان والإله: «اللحم والدم لا يقدران على أن يرثا ملكوت الله، ولا يرثُ الفسادُ عدم الفسادِ» (١كورنثوس ١٥، ٥٠). يجب المرور بموت.

الصليب حاضر بالطبع في كلّ مرحلة من مراحل التسبيح، كما لمسنا. فمنذ **الإعلان** الذي تمّ لمريم،كان لكلمة افرحي أثر درامي على يوسف (متّى ١، ١٨-٢٠)، منذ **الولادة**، كان خشب المذود صورة مسبقة لخشب الصليب، وكانت الأقماط تُعلن أكفان القبر. ولكن بحسب نبوءة سمعان الشيخ الغريبة عند تقديم يسوع إلى الهيكل، سيكون هناك ما هو أكثر من ذلك: يجوز في نفسكِ سيف (لوقا ٢، ٣٥). سيصير هناك انقطاع إذًا، فالسيف أداة قاطعة: ستأتي لحظة يصير فيها الطريق قفزةً.

كلمة «نعم» الابتدائيّة تحدّد قرار الإنسان، وبعدها تأتي الوسائل التي لا تتوقّف عن تعميق طريق هذه «النعم» بمراحله؛ ولكن يومًا ما سيولد هذا الإنسان في نضجه وسيصير الإله هو الذي يكمّل المشوار: لمّا كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك، ولكن متى شخت فإنّك تمدّ يديك وآخرُ يمنطقك (يوحنّا ٢١، ١٨). إنّه تسليم الذات الأسمى ليدي الإله، المرحلة الأخيرة التي تفتح الطريق بشكل حتميّ لتحرّر سرّيّ لا يزال غير معروف. يترك الإنسان ذاته بالكامل للإله بثقة مطلقة: «افعل بي كما تشاء!»، أو بحسب القول المدهش للحكيم العظيم لاو-تسي[٥٦] (القرن السادس قبل الميلاد): الطاعة العظمى في أن نكون لعبة الظروف الطارئة. إنّه موت الأنا وكلّ إرادة ذاتيّة. هناك، في هذا الانقطاع، عندما يكون ناتجًا من رضى حقيقيّ، تُزهر الحياةُ ملئًا: إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون (رومية ٨، ١٣). يجب إعادة هيكلة طبيعة الإنسان بكاملها ليولد في الحياة

[٥٦] مؤسّس الفلسفة التاويّة أي الطرقيّة.

الإلهيّة. لا يصير الإنسان إلهًا بتحسّن أخلاقيّ بسيط. تحوّل الأمر في جذر كياننا عينه. لقد عبّر يسوع عن ذلك بمثل حبّة القمح المؤثّر (يوحنّا ١٢، ٢٤):

الحقّ الحقّ أقول لكم:

إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها.

ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.

من يحبّ نفسه يهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبديّة.

هذه الأقوال التي تحوي كلّ شيء، تلفّظ بها يسوع لنفسه أوّلاً، لا لكي يعبّر عن كارثة، بل في **الساعة** التي كان يجب أن يتمجّد فيها بالآلام والموت والقيامة (يوحنّا ١٢، ٢٤-٢٥). ما من أمر أكثر خصبًا من هذا الاستسلام الفعّال. فباستسلام حبّة القمح للأرض بلا مقاومة، باقترانها بها من الداخل متقبّلة بالكامل الرطوبة المحيطة بها، البرد، والظلام والتحلّل، يحدث الحبل وتولد الحياة! إنّه **قانون** عميق لا مفرّ منه مدوّن في كلّ **الخليقة**. وكمثل حبّة القمح، تتقوقع دودة القزّ بداخل شرنقتها، تنسلخ عن جلدها بألم، يتقطّع كلّ ما فيها ويتمزّق، يتحوّل جسمها رويدًا رويدًا إلى جسم آخر، إنّها اليرقة التي تخرج بعد ثلاثة أسابيع إلى الحياة فراشةً رائعةً.

يعتبر الإنسان كلّ شيء في الطبيعة مَثَلاً، إنّها كتاب مقدّس مفتوح يُظهر له مصيره. لماذا؟ لماذا يَلزم الموت من أجل الحياة؟ لأنّ عمق الكيان وعمق كلّ الأشياء هو **الحبّ**. سرّ الحياة هو أنّ نقدّم ذاتنا ونتلقّى ذاتنا، جوهرها هو أن تموت وأن تصبح. لا

يمكن فهم أيّ شيء هنا، بل فقط اختباره. إنّه إذًا مقدّم فقط لأولئك الذين يسلكون **الطريق**. ولكن، ينكشف لهؤلاء فرح غير معلوم وجديد بالكامل، فرح لا يزهر أبدًا في الحياة الخارجيّة. إنّه فرح من نوع تعليميّ بالنسبة إلى الإنسان الذي يهتمّ به، والذي يترك نفسه تُصطَحب إلى حيث لا يمكن، بلا شكّ، أن يذهب بإرادته الخاصّة. إنّه فرح القمم، حيث يكون التسبيح مترافقًا مع العذاب.

من ليس معي فهو عليَّ (متّى ١٢، ٣٠)

ينقاد تلميذ المسيح بمريم إلى هناك. لن نعلم أيّ شيء عن مريم عند صليب ابنها، وسيبقى ذلك إلى الأبد سِرَّها الأكثر خصوصيّة. ربّما يمكن لبعض الآباء أن يلمسوا شيئًا من ذلك إذا اقتربوا من هذا السرّ مع أولادهم. أحيانًا أيضًا، يمكن لشفافيّة أيقونة قديمة أن تجعلنا نتلمّس هذا الأمر العميق جدًّا عبر النظرات أو الأفعال. ولكن وحدها التجربة الشخصيّة قادرة على أن تكشف ما هو فريد وفائق الوصف. حتّى كلمات الإنجيل هنا هي فقط للدلالة على الاتّجاه. طالما أنّ الإنسان لم يقل من كلّ كيانه «نعم» لكلّ ما يصيبه وبشكل غير مشروط، تبقى أقوال المسيح غريبة وخارجيّة، أو بادية له بعكس الطبيعة:

من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني.
فإنّ من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها.
ومن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلّصها (مرقس ٨، ٣٤-٣٥).

إنّه الإصرار ذاته الموجود في نصّ حبّة القمح. ولكنّ التأكيد على الهدف واضح هنا: من أجلي. نحن هنا إزاء نصّ مركزيّ في الإنجيل، يشكّل محور **طريق** الإنسان النسكيّ وسرّه.

كم يشكّل ذلك تباينًا في زمننا الحاليّ، زمن «بروز الذات»، و«التطوير الشخصيّ»، و«توسيع الوعي» و«الاتّصال الكونيّ» وكلّ أوجه «يقظة القدرات البشريّة»...

ما الذي يتضمّنه الإنجيل؟ يتضمّن اختيار المسيح وحده وبشكل حصريّ. كلمة نحيا تعني المسيح. والوسيلة الوحيدة لكي نحيا به، هي أن ننكر نفسنا. المقصود بنفسنا هي الأنا التي تمنع الحياة من أن تحيا وتمنع الإنسان من الكمال. يعيش الإنسان، حتّى المتديّن، حياته اليوميّة وكأنّ المسيح غير موجود، عنده خيارات أخرى، محور حياته بعيد عن المسيح، إنّه يقول طوال حياته، كما قال بطرس الرسول: «لا أعرف هذا الإنسان» (متّى ٢٦، ٧٤). فبعدم إنكاره حياته، أنكر بطرس المسيح. فقد حياته برغبته في إنقاذها. في النصّ اليونانيّ الأصليّ، يتردّد الفعل ذاته «ينكر» باستمرار في مقاطع عدّة، أتعلّق الأمر بإنكار المسيح أو بإنكار الذات. يتقصّد الإنجيل إذًا أن يضع اختيارًا بين أمرين، إمّا إنكار الذات أو إنكار المسيح، لا يمكن أن نقول نعم لأحدهما من دون أن نقول لا للآخر، لأنّ الجسد يشتهي ضدّ الروح والروح ضدّ الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر (غلاطية ١٧، ٥).

أين أساس حياتي: أهو أنا أم المسيح؟ لمن أحيا ولماذا؟ هذا السؤال عن وجود المسيح في وعي الإنسان تطلّب عصر الشهداء، قاعدة إيماننا المعياريّة. تدفع الظروف الآنيّة الشهيدَ

إلى قرار حاسم: إمّا أن ينكر ذاته أو ينكر المسيح. أيضًا، أولئك الذين نزلوا إلى الحلبة، فعلوا ذلك مرتّلين، مستبقين بذلك امتلاءً بالفرح قادمًا، ومشيرين بذلك إلى أنّ **الحياة** لا يمكن أن تموت! ولكن بما أنّ الشهيد هو القاعدة المعياريّة للمسيحيّة، فهذا الخيار متوجّب على كلّ واحد منّا وفي كلّ لحظة من حياتنا. لأنّ الحياة تساوي ما تساويه اللحظة، واللحظة لا تقدّر إلاّ بالفرح الذي تحتويه، ولكنّ الفرح لا يوجد إلاّ بالمسيح، المصدر الإلهيّ لكلّ فرح. «الأنا» بئر لا قاع له من الحاجات والأهواء، طُعمها هو المتعة التي لا فرح فيها ولا حياة؛ لا يوصلنا هذا الخيار في آخر المطاف إلاّ إلى العدم والموت. يمكن أن نفهم إذًا أنّ كلّ «لا» نقولها لذاتنا بمحبّة هي «نعم» نقولها للمسيح. كلّ لحظة من حياتنا تمنعنا من أن نقوم بهذا السلوك: في راحة مجتمعنا الاستهلاكيّ وتسهيلاته، في الدعارة والعنف على شاشة التلفزة، في طريقة الشرب والأكل، في العلاقات العشقيّة، في الأفكار والتخيّلات الاستمتاعيّة المتعدّدة وأخيرًا في توجّه قلبنا العميق. ممارسة نكران الذات يمكن أن تكون دائمة! ولكن ليس المهمّ أن ننكر ذواتنا، بل أن نربط مصيرنا بمصير المسيح، لكي تحيا **الحياة** فينا.

اختبار أمر جديد

هنا يكمن كلّ مصير حبّة القمح الذي هو مصير مريم عند الصليب. لم يتوجّب على مريم أن تنكر ذاتها، فهي الفائقة النقاوة، التي لم تقف الأنا عندها أبدًا حاجزًا أمام التحقّق الكامل لإرادة الإله؛ أوضح لنا معنى عذريّتها قرارَها الوحيد

والنهائيّ من أجل المسيح.

ولكنّها ستكتشف الآن طريقة جديدة كلّيًّا لعيشه، وستفتح بذلك **الطريق** لكلّ تلميذ. «ربط المصير بمصير المسيح» له عند مريم صفة شموليّة، غير مشروطة، إنّه يعني فعلاً أن تترك نفسها تنقاد إلى حيث لم تكن لتذهب بأيّ حال من الأحوال، وذلك من دون أيّ مقاومة ولا حتّى أيّ شكّ أو تساؤل، أو أيّ تفكير. الأمر الآن هو أن كلّ كيانها يتقبّل ببساطة الحالة الراهنة وما سيحدث. الحالة الراهنة هي الظلمات الشديدة السماكة والتي لا يمكن اختراقها والتي لم يسبق لقلب إنسان أن عاش مثلها. وما سيحدث هو أسوأ ما تحمّله تخيّل إنسان على الإطلاق. وحده الإيمان يصمد هنا، راسخًا كالصخرة، شفّافًا، دقيقًا وصارمًا كالماس. ربطت مريم كلّ حياتها بيسوع، بوجهه المضرّج بالدم، بآخر نفس له. ما عاد هناك أيّ هدف آخر إلاّ **هو** وحده، تؤمن مريم به لأنّه هو المسيح.

«تلتصق» مريم عند الصليب، فهي لا تقوم إلاّ بالالتصاق بشكل فعّال؛ كلّ ما في كيانها هو»نعم». لم تكن واقفة «بقرب» الصليب بمعنى أنّه كان من الممكن وجود مسافة صغيرة بينهما، بل هي في الداخل، **فيه**، في قلب الأجيج. تريد مريم أن تكون مسمّرة في العذاب مع يسوع؛ تشعر بالألم في يديها وفي قدميها المثقوبتين وفي جسمها المنشقّ كلّيًّا وفي نفسها الممزّقة بسبب بشاعة الناس. إنّها أكثر ليالي حياتها حُلكةً. إنّها ليلة عرس **الخروف**، إنّهما واحد كما أنّ الآب والابن واحد (يوحنّا ١٧، ٢١). لا يمكن أن نتعرّف حقًّا إلاّ إلى ما في دمنا. ما عادت مريم تفهم

أيّ شيء بشريًّا، بل تفهم كلّ شيء باختبار الإيمان الذي صار ينفذ إليها الآن.

هنا تحدث فجأة القفزة. الانقطاع الداخليّ الحقيقيّ، إنّه المرور إلى حالة من الإحساس والفهم مختلفة كلّيًّا. إنّه تحوّل عميق بالمعنى الأكثر توافقًا مع الكتاب المقدّس. إن بدا الإله غائبًا هنا، فلكي يسمح للإنسان بأن يصل إلى أقصى ذاته ويولد في أسمى ما هو ممكن له. عندما يكون الإيمان وحيدًا من دون أيّ سند، يحدث فجأة اختبار أمر جديد على الإطلاق: يكون ما لا نراه أكثر حقيقة ممّا نراه! هنا، في هول اللحظة العظيم هذا، تكتمل مشيئة الإله. إنّه «اكتمال» بمعنى أنّ «كلّ شيء جيّد هكذا، كلّ شيء كامل»، حتّى ولو أنّ مريم ترى كلّ شيء بعكس ذلك. إنّها لا تعطي الحدث معنًى بل تتلقّاه. الإيمان والحبّ متداخلان بالطبع، لأنّ حبّ الإله عبر كلّ الأحداث هو الطريقة الوحيدة لفهمها (الأب سيرتيانج[٥٧]).

تستنير مريم إذًا من الداخل. وكلّما كان التصاقها بالعذاب تامًّا، كلّما عرفت أنّها تتّصل، بهذا العذاب عينه، بنبع كلّ فرح. من المستحيل أن نفهم محتوى قفزة الإيمان هذه إن لم نختبرها. يمكننا فقط أن نثق بالذين عاشوها وشهدوا لها وبالنور الذي كان متدفّقًا من كلّ كيانهم. فمن القدّيسين يمكن أن نفهم قليلاً كيف كان صمت مريم العميق عند الصليب. فباتّحادها من دون أيّ مقاومة، بهذا العذاب الذي لا يوصف، لدرجة أنّها تركته يجتاحها حتّى أعمق ما فيها، عاشت مريم مع المسيح شركة

[٥٧] مبشّر ولاهوتيّ فرنسيّ (١٨٦٣-١٩٤٨) اشتهر بكتاباته عن القدّيس توما الأكويني.

مختلفة عن كلّ الذي عرفته منذ أن ولدته.

هنا، في خضمّ العذاب المتعاظم، حتّى وإن بدا ذلك غير مفهوم على الإطلاق، ينتقل فرح عظيم من الواحد إلى الآخر. إنّه فرح جديد ومجهول، يعرفه فقط أولئك الذين وصلوا إلى هناك، كما لو أنّ الاتّحاد الناريّ[٥٨] غير المشروط بالإرادة الإلهيّة يهدم الحواجز بين الأضداد. لا يعود هناك عذاب وفرح، موت وحياة، بل فقط الـ «نعم» التي تحوّل كلّ شيء إلى فرح. تكشف الحياة، لمن يقوم بهذا الاختراق بفضل إيمانه، أبعادَها العميقة التي تتّحد فيها كلّ الأضداد. أوضحت كلّ الروحانيّات أنّ الحزن يمكن أن يصير فرحًا، ولكنّ آليّة هذه الكيمياء السرّيّة التي تمتلكها العناية الإلهيّة تبقى غير مفهومة بالنسبة إلينا. تقول القدّيسة تيريزا التي من ليزيو: إن لم يكن عندي إلاّ العذاب الحادّ، إن كانت السماء سوداء لدرجة أنّي لا أرى أيّ بصيص، فإنّي أجعل من ذلك فرحًا لي! وأيضًا أن أموت هو سعادتي، وأن أحيا هو كذلك أيضًا لأنّي لا أريد إلاّ ما يريده الإله، كلّ شيء هو لأجل محبّته[٥٩].

كلّ هذا غير مفهوم بشريًّا، ولكنّ الفرح يبزغ من قبول عدم الفهم هذا. العذاب بحدّ ذاته ليس إلاّ صليبًا مميتًا، تقبع تحته كلّ البشريّة، كلّ واحد منّا نحن الذين لا نتوقّف عن أن نموت به. والتفجّر الجديد للإنجيل، هو تحديدًا أنّنا محرّرون من هذا

---

[٥٨] يحدث الاتّحاد بين جزيئات المادّة عادة بالتسخين الذي يجعل الجزيئات تتصادم بشدّة حتّى تتكسّر الحواجز الموجودة بينها والناتجة من الإلكترونات المحيطة بها (المعرّب).

[٥٩] القدّيسة تيريزا من ليزيو (فرنسا)، J'entre dans la Vie، أدخل في الحياة، منشورات Le Cerf، صفحة ٣٥ و٢٤١.

الصليب، لأنّنا تحت صليب «يسوع». فقط **فيه** يمكن أن نحيا فِصحنا، العبور العظيم للبحر الأحمر، من العبوديّة في مصر إلى أرض الميعاد، من جحيم المعاناة إلى الابتهاج الفصحيّ **بالقائم** من الموت منذ الآن. لهذا أكّد القدّيس بولس بقوّة: «إنّ كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، وأمّا عندنا نحن المخلَّصين فهي قوّة الله» (١كورنثوس ١، ١٨).

انتقال مريم إلى السماء: الاقتران بالموت

لهذا، ما عادت مريم في آخر مسيرتها الأرضيّة تعيش الألم أو مصيبة النهاية: هي تنتقل من الحياة إلى الحياة، كما تقول الطروباريّة. إنّه السرّ الذي يدعى «رقاد والدة الإله»: مريم تقوم من الموت! فبما أنّها اتّحدت بالموت بدافع المحبّة فقط، عادت لا تخضع له من الخارج كعدوّ مدمّر. لقد دخل يسوع، الإله المساوي للآب والروح القدس في الجوهر، إلى العذاب والموت، لكي يحوّل أماكن الظلمات واليأس هذه إلى طريق قيامة. بالنسبة إلى من يقول «نعم» للموت، ما عاد الموت الآن مكان الفساد الملعون، حيث التنّين والجحيم، بل غرفة العرس التي اخترقها **الحبّ** اللانهائيّ الذي مازال ينتظر هناك.

مريم هي أوّل شخص عاش الموت بهذه الطريقة الجديدة كلّيًّا. الاقتران بالموت هو السرّ العظيم. إنّه القربان الكامل، الموتُ وفاءً، التطابق مع **العريس**. يجد الإنسان نفسه هنا معافى بالكامل بتألّهه بالكلّيّة. ما من تسبيح ممجِّد للآب أعظم من هذا! هذا الاقتران النهائيّ بين المسيح الميت والمسيح القائم هو

«الذوكصولوجيا» بامتياز[٦٠]، ساعة مجده (يوحنّا ١٧، ١).

صارت مريم بكلّ كيانها، هذا التسبيح الحيّ. فتحت قيامتها، بعد قيامة المسيح، الطريق نحو السماء الذي كان مغلقًا منذ آلاف السنين. ولكنّ السماء التي ينفذ المسيح ومريم القائمان إليها هي أوّلاً قلبي لأنّ ملكوت السماوات فيكم. في المسيح وبمريم، صرنا إذًا قائمين (كولوسي ٣، ١). جسدنا الميت مسكون بهذين اللذين قد تمّما كلّ شيء. كلّ ما في أعماقنا الثقيلة والمظلمة الأكثر مادّيّة، هو في انتظار تجاوز الأنا السيكولوجيّة المشروطة. يكفي لذلك أن يستمع الإنسان إلى النداء الداخليّ ويضع نفسه على الطريق متغذّيًا ولو قليلاً بكنوز الحكمة الكامنة فيه، لكي يولد الجسد في شرارة الوعي هذه التي ستقوم بتنميته مرحلة بعد مرحلة نحو جسد المجد.

مجد أن نحيا

كلّ شيء يبدأ «بالإحساس» بهذا **الحضور** السرّيّ الذي فينا كما يقول القدّيس ثيوفانيس الحبيس (القرن التاسع عشر). بأنّ نحسّ أنّ الإله هو **حياة** حياتنا (المغبوط أوغسطينوس)، أن ندع هذه التجربة تحيا فينا حتّى الإحساس بالألوهة (الأب ديمتري ستانيلوي[٦١])، الذي يصل أحيانًا إلى ذروته بالارتجاف الصامت لكلّ الجسم الذي يستيقظ. بارتفاع جسد مريم فينا، نقلت إلينا أعلى درجات تسبيحها، التي هي رقص قيامتها. رقص في عدم

[٦٠] الذوكصولوجيا كلمة يونانيّة تعني قولاً أو صلاة لتمجيد الإله وتشير في الليتورجيا عادةً إلى عبارة: المجد للآب والابن والروح القدس.

[٦١] كاهن ولاهوتيّ أرثوذكسيّ رومانيّ (١٩٠٣-١٩٩٣)، من أشهر مؤلّفاته اللاهوت العقائديّ الأرثوذكسيّ.

الموت، لأنّه مجد بالحقيقة أن نحيا[٦٢]. ليس الرقص بالضرورة اهتزاز الجسم، بل الابتهاج الأساس للكيان الذي يشارك فيه كلّ الجسم، حتّى وإن بقي ساكنًا! بهذا المعنى، تكون مريم هي الرقص المتجسّد ومن الصعب أن نتخيل أنّها تلت نشيد التعظيم بوضعيّة التأهّب.

كلّ حياة مريم التي من دون خطيئة، أي التي ليس فيها أيّ انفصال عن الإله، تدخل مباشرة برقص **الخلق** الكونيّ العظيم، ولكن ليس هذا فحسب بل هي أيضًا تتويجه. يكشف الآن انتقالها بالجسد، لأعين الجميع، لماذا يرقص كلّ الكون، ابتداءً من رقص الذرّات حتّى رقص النجوم وسحب المجرّات العظيمة. ترتفع بمريم كلّ **الخليقة**، تتحوّل إلى شفافيّة تامّة وتصل إلى تمام مآلها: ألاّ تكون إلاّ تسبيحًا بوجه الخالق. لا يعود هناك خارج وداخل، مادّيّ وروحيّ، بل فقط اهتزاز عظيم وحيد: **الفرح**.

يعبّر الكتاب المقدّس عن كامل هذا التوافق العميق مع الطبيعة. كان الرقص موجودًا دومًا في الشرق. نصوص الكتاب المقدّس ذاتها مكتوبة على خلفيّة صوتيّة، إذ وُضعت لتكون مرتّلة أو على الأقل لتُقرأ بإيقاع يتناسب مع عادة التقليد الشفويّ. كلّ حرف عبريّ يَرقص رمزًا ويسمح لهذا الشعب السعيد بأن يمتلئ بالفرح أمام إلهه. كلّ شيء يجب أن يقود إلى رقص الكيان هذا، إلى أن يظهر في الموسيقى المرافقة للمزامير والداعية إلى التصفيق بالأيدي والقفز أو الدوران، أو ببساطة في

[٦٢] أوليفييه كليمان، Corps de mort et de gloire، جسد موت ومجد، منشورات Desclée de Brouwer، صفحة ١٤٠.

سكون الجسم، لأنّه يتمّ تجاوز الحدود ويُخطف القلب بحقيقة جديدة. بالرقص يعبّر الجسم عمّا يفوق التعبير ويسمح بملامسة ما لا يُلمس، ويدع السرّ ذاته يصل إلينا.

بما أنّ الإنسان يستطيع أن يضع نفسه في أقسى أنواع العذاب، من دون أيّ مقاومة، فإنّه يمكن أن يدع نفسه تنغمر بالفرح. إذ فقط بتحطّم حدود «الأنا» نصير مشاركين في حقيقة جديدة، عليا، مجهولة عادةً. عندما يتوقّف الجسم عن أن يكون سجنًا، مُثبَّطًا بقوى الأنا السلبيّة، ويقترن بالحياة، عندئذ يتنعّم بكلّ الينابيع الممكنة ليطلق العنان للفرح الشديد الساكن فيه والذي يفيض منه، مخرجًا إيّاه من كلّ المقاييس، والاحتياطات وقوانين الجذب. يصل الحبّ عندئذ إلى اكتماله، فيعبّر عن جنونه، ويفعل ما يشاء، يطلق صرخات الفرح والشكر. الحياة تدفّق، ولادة غير متوقّفة، خلق دائم للجمال والابتهاج، تقطّع مستمرّ للمسلّمات الخاطئة، احتفال بالتجدّد.

لنرقّص حياتنا

لهذا ترقص مريم كما يليق ببنت إسرائيل و**الخليقة**، كما رقص داود أمام تابوت العهد. رقص انتقالها هو أفضل تعبير عن اتّحاد السماء بالأرض الذي أعيد تحقيقه أخيرًا. يلخّص هذا التسبيح الفائق الوصف الذي يقوله كلّ كيانها حياتَها بكاملها الآن، ما من شيء أسمى من ذلك أو غير ذلك يمكن قوله. ولكن إذا كانت مريم هي أوّل من دخل هذا التسبيح الكونيّ، فقد فتحت لنا الأبواب، والآن صار ذلك ممكنًا لكلّ إنسان، حتّى

في هـذه اللحظـة، مـن دون أن ينتظـر قيامتـه، أو بالأصـح إنّ ذروة التسـبيح هـذه هـي وسـيلة حيـاة مختلفـة جذريًّـا موجـودة حاليًّـا.

الرقـص الـذي هـو ابتهـاج الكيـان هـو إذًا أكـثر أمـر محـوِّل، منتـش، أو لنقلهـا، أكـثر أمـر ثـوريّ، بمعنـى أنّـه بمريـم تكـون السـماء عـلى الأرض ونكـون أمـام عـالم منفتـح. ليـس العـالم أمامنـا بلاطًـا، أي بمعنـى «هكـذا وليـس غـير ذلـك»، بـل هـو بـين يدينـا كتحفـة تُبـدَع بـين يـدي فنّـان. حـدث بالمسـيح انقطـاع مذهـل في تاريـخ الحرّيّـة، فهـذا العـالم الـذي كان مغلقًـا منـذ اليونـان والرومـان القدمـاء، صـار تشـاركًا بفعـل الخلـق. بقيامـة يسـوع المسـيح تحطّمـت كلّ الحـدود وبالأخـصّ، الحـدّ الأقـصى، المـوت، هُـزم. تشـهد واحـدة منّـا وهـي مريـم بـأنّ ذلـك صحيـح وإذا رقّصنـا حياتنـا مثلهـا، يمكـن أن تـضيء في قلبنـا شـعلة أمـل وفـرح، لأنّ المـوت عينـه يمكـن أن يهـزم، ويصـير بذلـك كلّ شيء ممكنًـا!

الاستسلام، طريق حياة

لا يمكن أن يحدثُ لقاء المطلق إلاّ «هنا والآن».
«الآن» هي اللحظة التي تبرز فيها الأبديّة.
«هنا» هو المكان الذي يعرض فيه **اللامحدود** ذاته.
ستان روجييه.

المشاركة في الطاقة الخلاّقة

هل نعلم أنّ للإنسان «تأثيرًا» في قلب الإله؟ وأنّ سلوكًا معيّنًا يمكن أن يطلق العنان للقدرة الإلهيّة، فيدخل فينا وحولنا عندئذ تجدّد جذريّ غير معروف على الإطلاق؟ إنّها قدرة على الشفاء والتحوّل تجعلنا نقفز خارج حياتنا القديمة وخارج كلّ سجون الأنا. يسمّى هذا السلوك **بالاستسلام**. إنّه معروف، بسبب قدرته الثوريّة المطلقة، من قبل كلّ **تقاليد** الإنسانيّة الدينيّة، التي جعلت منه أساس نهجها عينه، نمط حياة، وسرّ الروحانيّة الحقيقيّة، أي سرّ التحقيق الكامل للإنسان. يدعى بأسماء عدّة: «**عدم الفعل**» في الحكمة التاويّة الصينيّة القديمة، «الانفصال» عند البوذيّة، «السكينة» عند الهندوسيّين، «اللامبالاة المقدّسة» عند الصوفيّين؛ وفي المسيحيّة ندعوه بكلّ الألفاظ المعبّرة عن الطاعة، مشيئة الإله، الثقة، **النَعم**، البذل والتواضع، محبّة الأعداء حتّى الاستشهاد، الطفولة الروحيّة. إنّها ببساطة سلوك المسيح الأساس الذي كشف هو نفسه مادّته عندما قال:

طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني (يوحنّا ٤، ٣٤). ردّد هذه الجملة طوال حياته الأرضيّة كنسيج أساس لها ووصلت إلى ذروة إمكاناتها في الاستسلام التامّ على الصليب: «يا أبتاهُ، في يديك أستودع روحي» (لوقا ٢٣، ٤٦).

قال القدّيس بولس أيضًا عن يسوع: «لم يكن فيه إلاّ نعم» (٢كورنثوس ١، ١٩). أتى المسيح إلينا، نحن الذين عدنا لا نعرف معنى أن نحيا، لكي يرينا كيف نحيا. ما من سعادة تحت السماء غير ذلك، ومن يشترك في سلوك المسيح هذا يصير في قرابة حقيقيّة مع المسيح: «من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي» (مرقس ٣، ٣٥).

كلمة «استسلام» غير واضحة ويمكن أن تقود إلى كلّ أنواع اللامبالاة والتيّارات الطمأنينيّة[٦٣] التي امتلأ بها التاريخ الدينيّ. ولكنّ الحقيقة هي أنّ العلاقة بين الإله والإنسان هي اتّحاد بالحبّ، يكون فيه تلقّي الذات من **الآخر** أسمى فعل. لسنا هنا على مستوى فعل اعتياديّ، بل على مستوى خصوبة من نوع مختلف تمامًا. في الاستسلام الكامل للمشيئة الإلهيّة تأتي لحظة لا يعود الإنسان فيها مرشَدًا بالمعلّمين وبالكتب المقدّسة كما في السابق، بل بالربّ نفسه، كما يقول القدّيس سلوان الآثوسيّ[٦٤]. يشكّل ذلك قانونًا مهمًّا جدًّا في الحياة الروحيّة. يبدأ الأمر إذًا بإصغاء عميق داخليّ لكي نحسّ حتّى بأبسط أوامر **الروح**،

---

[٦٣] تيّارات صوفيّة مسيحيّة ظهرت في منتصف القرن السابع عشر، بخاصّة في إيطاليا وإسبانيا، دعت إلى الوصول إلى الإله من طريق التأمّل الصرف من دون أيّ شكل من أشكال العمل أو حتّى الصلاة. أدانتها الكنيسة الكاثوليكيّة في أواخر القرن السابع عشر.

[٦٤] المتوفّى العام ١٩٣٨.

وكيلا نقوم بعد بشيء إلاّ بدافع منه. يمكن أن نتخيّل عندئذ إلى أيّ مدى يمكن لقلب الإنسان أن يصير مكانًا متأجّجًا فعّالاً باستمرار، ذلك بأنّه باستسلامه **لآخر** غيره، تصير أفعاله مختومة دومًا بختم ما هو داخليّ وعميق. التمركز على **النبع**، كما يقول المعلّم إيكارت (القرن ١٣)، هو المشاركة في **الطاقة الخلاّقة**، إنّه ولادة أبديّة لا يشوبها شيء، منبعثة بغزارة من **عمقنا**.

إنّه العمق الذي منه يتلقّى الإنسان نفسه في كلّ لحظة، وهناك إذًا يستسلم أيضًا، إن أراد بالحقيقة أن يحيا. بذلك يكون على صورة المسيح الذي هو المولود منذ الأزل: فطوال حياته كان الالتصاق المحبّ والاستسلام الكامل لما يمكن أن نسمّيه مشيئة الإله هو أصل ولادته الأزليّة، إن لم يكن مكان كيانه بالتحديد. يتلقّى يسوع نفسه من أبيه بلا توقّف: الذي رآني فقد رأى الآب (يوحنّا ١٤، ٩)، إنّه **ابن** منذ الأزل وفي كلّ لحظة من حياته الأرضيّة. بالاستسلام، نتشارك إذًا في سرّ المسيح عينه: نصير أبناء مع **الابن**، وبهذا النسب يلدنا الآب بالنعمة كما يلد **الفعل** بالطبيعة. إنّها ولادة مستمرّة تتطلّب منّا بالنتيجة أن نسلك سلوك تقبّل تامّ.

أشكرك يا ربّ، مهما فعلت بي!

يُحدث الوعي الحيّ بالانتماء إلى يسوع، وبأنّه سيّد حياتنا وبأنّ مصيرنا بين يديه، إحساسًا بالحرّيّة في عمق كياننا، يكون شديدًا لدرجة أنّ المواقف الأكثر انغلاقًا تنفتح لنا من ذاتها بشكل سرّيّ بداخلنا وفي ما هو خارجنا. من يتدرّب كلّ يوم على

تلاوة صلاة شارل دوفوكو[٦٥] المذهلة: يا أبتي، إنّي استسلم إليك، افعل بي ما يحلو لك. مهما تفعل بي فإنّي أشكرك. إنّي مستعدّ ومتقبّل لكلّ شيء. من يقول هذا ويجعله سلوك قلبه، سيرى أنّ استرخاءً عظيمًا يجتاحه. ببساطة هذا الصلاة القويّة، لا تعدّ هذه ثمرة حياة قداسة فقط، بل جوهر كلّ الروحانيّات. ما من **طريق** روحيّ إلاّ ويمرّ يومًا ما بهذه النقطة. يعبّر عنها كلّ **تقليد** بطريقته الخاصّة ويقولها كلّ تلميذ بكلماته الخاصّة. وهكذا فإنّنا يمكن أن نقرأ في صلاة رؤساء دير أوبتينو[٦٦] (روسيا) المعروفة كثيرًا: «يا ربّ، هيّئني إلى كلّ ساعة من هذا النهار وساعدني فيها. ومهما تكن الأخبار التي أتلقّاها، علّمني أن أستقبلها بقلب هادئ، متيقّن بالكامل بأنّها تعبير عن مشيئتك المقدّسة. لن أنسى أبدًا في الظروف غير المتوقّعة أنّ كلّ شيء مرسل إليّ منك».

يفتح هذا النوع من الصلوات، الذي هو السلوك الأساس للاستسلام، أعماقًا من الفرح فينا. وعلى العكس أيضًا، فممارسة الفرح العميق بتكرار ومثابرة، مهما كانت الظروف، يقود حتمًا إلى أعلى درجات الاستسلام. نتحدّث كثيرًا عن أنّ الفرح غير مشروط، وأنّه موجود حتّى في قلب المآسي: هذا التأكيد المعاكس بالكامل لسلوكنا الاعتياديّ، حتّى بالنسبة إلى أكثرنا مثابرة، هو من الحدّة بمكان، لدرجة أنّه لا يمكن أن نتقدّم إلاّ بخطوات

---

[٦٥] مبشّر ومستكشف فرنسيّ (١٨٥٨-١٩١٦).

[٦٦] لرؤساء الأديرة في روسيا اسم خاصّ بهم هو«ستاريتز» الذي يعني الشيخ أو العجوز، وهم مصدر حكمة وإرشاد للمؤمنين وحاملين للروح القدس. من أشهرهم القدّيس سيرافيم ساروفسكي (١٧٥٩-١٨٣٣). طلب العديد من الأدباء العِظام النصح من ستاريتزي دير أوبتينو ومنهم تولستوي. كما أنّ شخصيّة زوسيما في رواية الإخوة كارامازف لدوستايفسكي مستوحاة من أحد ستاريتزي هذا الدير.

صغيرة، وأن نتعمّق بالتدرّج كحلزون يدور باستمرار حتّى يبلغ مركز الإعصار. يمكن أن يكون الإعصار مرعبًا، وأن تبعث طاقته الهلع الشديد قبل أن تكون قاتلة: ولكن في قلبه يكمن السلام الدائم. من يتراجع أو ينفعل يظلّ في المحيط الذي يجرفه إلى الهيجان العنيف. وعلى العكس، من يُسلِم نفسه بالكامل ويصير واحدًا مع المأساة ذاتها، يصير في مركزه: ليس هناك أيّ حركة، إنّه حرّ وغير مشروط بأيّ شيء، رغم أنّه يغوص فيه. لا يمكن أن نصل إلى هناك إلاّ طبقة طبقة ودورة دورة، فللاستسلام مراحل عدّة.

التمركز في الإله لا في الذات

صلاة التسبيح والمباركة هي أداة هذا التعمّق الذي ثمرته الاستسلام. ولكن يجب أن ننسى أيّ تسلسل زمنيّ في هذا العمل، فالأصحّ أنّه توجد إشارات تقدّم. يظهر أوّلاً هذا الاسترخاء الكبير الذي تحدّثنا عنه، مشيرًا إلى أنّ مسافة بيننا وبين انفعالاتنا قد تحقّقت. يبدأ التحرّر بجعلِ شرخ في طغيان انفعالاتنا: هنا يبدأ موت الأنا. نصير عندئذ قادرين على التمييز بين اضطرابات نفسنا المقلقلة، أي الانفعالات، وبين الشعور الصحيح الذي يصدر عن روحنا. وهكذا، فمن يسبّح الإله من كلّ قلبه، وفي وسط أحلك الأوقات، ينتقل من النفس إلى الروح، فيغادر الاضطرابات الانفعاليّة ويختبر إحساسًا بوجود يمكن أن يثق به ويستسلم إليه.

يشكّل ذلك خطوة مهمّة جدًّا على **الطريق**، لأنّ التسبيح

والمباركة في الصعوبات يعني أن نبحث عن الإله لذاته وأن نحبّ الآخرين كما هم، وليس للاختلاجات السيكولوجيّة التي يحدثها هذا الحبّ. كلّما ازداد هذا الانسلاخ عن الذات، استطاع الإنسان أن يلتصق أكثر بالإله وازداد اكتشافه محبّة غير مشروطة. يمكن أن يختبر عندئذ، في ما وراء الانفعالات، ماهيّة «تعزية» الروح القدس: إنّه شعاع النور، المعطي المواهب، ساكن القلوب العذب، الاستراحة اللذيذة، الراحة في التعب، (صلاة للروح القدس).

بالتسبيح، يصير الإنسان رويدًا رويدًا غير متمركز على الإطلاق في ذاته. يلزم وقت لنفهم أنّ القداسة لا تُكتسب بقوّة الأيدي. رغم معرفتنا ذلك، نحن نسعى دائمًا إلى أن نزيد بطريقة أو بأخرى، حتّى وإن كان ذلك بدون وعي منّا، شيئًا ما إلى ذواتنا. يدخل قسم كبير من الأنا بشكل غير مباشر في كلّ ما نفعل؛ فرغم زعمنا أنّنا نبحث عن الإله، نكون متوجّهين إلى أنفسنا وباحثين عنها سرًّا. لهذا السبب فإنّ الروحانيّ الحقيقيّ يحذّر من النسك الشديد ومن الإماتة البطوليّة، إذ يظهر فيها غالبًا قسم كبير من طبيعتنا ومن محبّتنا لذاتنا!

الإنسان مسكون بغريزة التملّك: هو يريد أن يستحوذ على الإله، ولكن ليحقّق ذاته. ويكون ذلك بالطبع تحت غطاء الصلاة والأعمال الخيريّة والبراءة في اللاوعي. التمييز بعمق وباستمرار، ومساعدة أب روحيّ، رغم أنّه لا يمكن السير بدونهما، غير كافيين للوصول إلى المنتهى، إن لم تكن محبّة الإله الصبورة موجودة لكي تسحب البساط من تحت قدمينا كلّما تطلّب الأمر ذلك. يومًا ما، بعد أن يكون التطهّر قد قام بمهمّته، سنعي أمرًا مهمًّا، إذ

سنبدأ بفهم أنّه ربّما فقط في بوتقة الصدمات الكاوية، يكون الإله وحده موجودًا. ما من شيء نصل إليه بعد جهودنا ومع ذلك يجب أن نوظّف كلّ طاقاتنا. تكمن الصعوبة في أنّ بذل الذات يجب أن يكون تامًّا، ولكن من دون أن ننتظر أيّ ثمرة لذلك. يريد الإله أن يعلّمنا كيف نفقد أيّ ارتكاز خارجه. أيّ تفكير، مهما كان بسيطًا، بأنّنا نستحقّ أيّ شيء، هو عقبة تغلق الطريق وتجعل أيّ لقاء للإله مستحيلاً.

ألاّ نكون شيئًا يعني أنّنا كلّ شيء

ما العمل، أو بالأصحّ كيف نكون، كيلا تتدخّل الأنا بعد بأيّ طريقة ويصير ممكنًا للإله أن يكون الإله بالحقيقة فينا؟ أعطى يسوع الجواب على الصليب، ثمّ طبّقه كلّ القدّيسين على مرّ العصور: أن نقبل أن نكون لا شيء. فمن العدم يخلق الإله كلّ شيء. وحده الموت، المعاش حتّى في هذا اليوم، هو الذي يُحدث التجدّد الجذريّ: القيامة منذ الآن. حيث لا توجد عقبات، لا توجد أيضًا أزمات. من يضع قدمه عند أولى درجات السلّم ويرضى أن يكون لا شيء يتحرّر من كلّ رغبة خاصّة، ويُسلم نفسه إلى رغبة الإله البسيطة والصافية ملتصقًا بها، ويصير رحبًا كالكون ملتصقًا بحركته الخلاّقة.

تشبه حالة الاستسلام هنا الانفتاح بلا حدود على أن نصير لحظة بعد لحظة، واحدًا مع فعل الإله الذي يفعل بالتلميذ ما يشاء ويصطحبه حيث يشاء. الإنسان الذي يقبل هذه الحقيقة بشكل تامّ، لدرجة ألاّ يكون عنده أيّ تفضيل بعد، في ثقة مطلقة،

يكون قد وجد السلام والغبطة في ماوراء كلّ انتظار. ما يسمّى عادة «الطاعة» في التقليد الروحيّ يصل هنا إلى ذروته في هذا السلوك القادر وحده على أن يوصل الإنسان إلى أعماق سرّه الخاصّ، إلى سرّ الخلق، وإلى الإله.

عندما يصير بإمكان الإله أن يكون بالحقيقة الإله فينا، من دون أيّ عائق، ينبسط **الحبّ** حتّى اللانهاية، وعندما يرضى الإنسان أن يكون لا شيء، سيمتلئ هذا الفراغ الشاسع بهذا **الحبّ**. وهذا اكتشاف مذهل: ألاّ نكون شيئًا يعني أيضًا أنّنا لا نعرف أن نحبّ؛ إذ إنّ اعتقادنا بأنّنا قادرون على ذلك، هو تكبّر مخبّأ. الإله وحده **محبّة** وهو يسأل الإنسان إن كان يريد أن يصير آنية مختارة (أعمال ٩، ١٥): لنتذكّر غسل الأرجل، عندما كان الإله على ركبتيه أمام الإنسان لكي يحثّه على هذا الانفتاح (يوحنّا ١٣)، لنتذكّر الإفخارستيّة التي بها يتغلغل جسد الإله ودمه في الإنسان فيصير بالنعمة **محبّة** حتّى مادّته الجسديّة (يوحنّا ٦، ٥٣-٥٨)!.

أن ندع الإله يكون الإله، يعني أن ندع أنفسنا نُحَبّ، يقول القدّيس نيقولاوس كاباسيلاس (القرن الرابع عشر) إنّ هذا يكفي، ويضيف: لكي أصير أعظم القدّيسين: أتذكّر مرارًا في اليوم، عبر كلّ نشاطاتي، أنّني محبوب **بمحبّة** الإله الجنونيّة. في الاستسلام، تموت الأنا من الجوع والعطش، إذ ليس لها ما تفعله؛ عندئذ يمكن للإنسان أن يولد من إخصاب جديد كلّيًّا، إخصاب إلهيّ. بالمجمل، عمله الوحيد هو أن ينفتح إلى عمل الإله: إفتا، أي انفتح (مرقس ٧، ٣٤). ويؤكّد القدّيس إيريناوس[٦٧]

[٦٧] كان أسقف مدينة ليون الفرنسيّة. معنى اسمه المُسالم باليونانيّة. حارب الهرطقة الغنوصيّة وكان أحد أقدم الآباء

(القرن الثاني) ذلك بقوله: ما يختصّ بالإله هو أن يَفعل، وما يختصّ بالإنسان هو أن يدع نفسه ليَفعل به الإله.

ومع ذلك، يفترض ألاّ ينخرط الإنسان فعليًّا إلاّ بهذا العمل، وأنّ كيانه كلّه، أي فكره وإرادته وقلبه وجسمه، متّحد ومتجّه نحو هذا الهدف الوحيد. هنا يكمن التحوّل الحقيقيّ: تركيز كلّ طاقاته في نقطة واحدة، وهذه النقطة هي الحضور الإلهيّ الذي إليه يعطي الإنسان ذاته ويسلّمها. إنّه **حضور محبّة** فعّالة، والإنسان المنفتح والمتقبّل بالكامل، سيتعرّف سريعًا إلى أسلوب فعل الإله عبر كلّ شيء وفي كلّ وقت، أي سيتعرّف إلى «طريقته». تكمن صعوبة **عمل** الإنسان هذا، ولنذكّر بأنّه عمله الوحيد، في الانفتاح غير المشروط، من دون أيّ تدخل للأنا، وفي القبول التامّ لحقيقة اللحظة كما هي، في سكون العقل التامّ. جوهر الاستسلام هو الحرّيّة الحقيقيّة، إزاء الشيء، والموقف، والحدث، والأفكار، من دون انفعال، وتاليًا من دون صراع. يسمح عدم تدخّل الأنا لتحكم - نحبّ أو لا نحبّ - للاستسلام بالوصول إلى آخر المطاف: التوحّد مع ما يحدث هنا والآن.

جمال الحاضر الأبديّ

أداة الاختيار هي التسبيح والشكر. وهذا الشكر انفعاليّ بامتياز، يسمح للإنسان ليس فقط بقبول ما لا يُقبل، أي الخضوع المبهم أحيانًا، إنّما بأن يمضي إلى ملاقاة ما لا يُقبل، وبأن يختاره بحرّيّة قاطعًا بذلك الطريق على كلّ إبهام وكلّ ارتباط، وأن يكفّ

الذين وضعوا دستورًا للإيمان المسيحيّ.

عـن كونـه عبـدًا أو فريسـة «لقـدره». يقـود الشـكر إلى الاستسـلام، ولكـنّ الاستسـلام يفتـح بـدوره الطريـق إلى الشـكر، لأنّ الحالـة غـير المشروطـة بـأيّ شيء هـي غبطـة، وفـرح، وتدفّـق إلهـيّ. في سـلوك الاستسـلام والتلقّـي، لا نعـود نحبـس أيّ شيء في صـور ذاكرتنـا العتيقـة، ويصـير كلّ شيء جديـدًا دائمًـا، نشـعر بـه للمـرّة الأولى، يظهـر بحرّيّـة، ويتحـوّل إلى حـبّ وجـمال. «أن نكـون لا شيء» يعنـي أن تتوقّـف الأنـا عـن التدخّـل وإسـقاط ذاتهـا وإرجـاع كلّ شيء إلى بعـده الصغـير، ولا يبقـى إلاّ جـمال العيـش في الأبديّـة. تتغـيّر علاقتنـا مـع المـكان والزمـان كلّيًّـا: لا يعـود هنـاك مـاضٍ أو مسـتقبل بـل فقـط حضـور في اللحظـة الحـاضرة، إنّـه اختطـاف مـن قبـل الحقيقـة الآنيّـة التـي تسـتحوذ عـلى وعينـا في مـا نعيشـه مبـاشرة.

في الحالـة العامّـة، لا نعيـش إلاّ في الظواهـر وبهـا، تبتلعنـا سـطحيّة الأشـياء والأحـداث، مـن دون اتّصـال بالعمـق: نكـون عـلى مسـتوى الميكانيكيّـات الخارجيّـة، مسـتوى الفعـل المثـير، الفعـل بمعنـاه الفيزيـائيّ. في الشـكر عـلى العكـس، يُقـدّم كلّ شيء مجّانًـا، نكـون في التسـبيح والفـرح، وبذلـك نسـمح بـأن يكـون الإلـه فينـا، أي نحـن ننفتـح عـلى فعلـه، فعـل **نعمتـه** بالمعنـى الحـرفيّ للتعبـير: الإلـه هـو الفاعـل. تـأتي عندئـذ لحظـة، كـما شـهد القدّيسـون، يدخـل فيهـا **الحـبّ** إلى الإنسـان مـن كلّ جانـب، ويصـير محاطًـا ومتحـوّلاً بـه. ومنـذ ذلـك اليـوم لا يعـود الإنسـان مالـكًا نفسـه، بـل يصـير هـو نفسـه مكانًـا لعطيّـة مجّانيّـة، تمـلأه قـدرة الإلـه بالكامـل، وهـو المصطلـح الشـهير الـذي تحـدّث عنـه القدّيـس بولـس والـذي يسـمّى «Dynamis tou théou» (أي ديناميكيّـة مـن الإلـه) التـي

تجعل الإنسان قادرًا على أعظم الأمور الخارقة والإنجازات غير المتوقعة. ومنها مثلاً ما قام به الأب كولب في غرف الإعدام بالغاز في أوشفيتز[٦٨]، عندما قدّم حياته بدلًا من سجين آخر كان ربّ أسرة. ربّما يكون هذا عملاً بطوليًّا، ولكن أن يحوّل ذلك كلّ المعتقل من الجوع والموت إلى مكان يرتّل فيه كلّ المحكومين أناشيد، فذلك يثبت أنّ هذا العمل ليس فقط مجرّد عمل بطوليّ! بالنسبة إلى هؤلاء الرجال، انفتحت السماء ونزل الروح عليهم بشهادة هذا الكاهن (أعمال ١، ٨).

يقول بيرجسون: لماذا جعل القدّيسون جموعًا كثيرة تمشي وراءهم؟ كان وجودهم كافيًا: كان وجودهم نداء. بانوا كرجال فعل عظماء، وتركوا تدفّقًا نازلاً، كان يريد الوصول إلى الآخرين عبرهم، يجري بداخلهم. أحسّوا به كزخم من الحبّ. الإله هو الفاعل فيهم وبهم. ذلك بالنسبة إلى النفس فيض من حياة، إنّه دفع هائل. إنّه اندفاع لا يقاوَم يجعل النفس تقوم بأعظم الإنجازات. تهلّل صامت لكلّ القدرات يجعلها ترى بشكلّ أوسع مدًى، وتصير، رغم ضعفها الشديد، تنجز بقوّة. يستحوذ على هؤلاء الرجال تيّار محي قويّ؛ تنبعث من حيويّتهم المتصاعدة، طاقة، جرأة، قدرة تخطيط وتحقيق عجيبة. لنفكّر بما أنجزه على صعيد الفعل، أناس كالقدّيس بولس، القدّيسة تيريزا، القدّيسة كاترينا التي من سيينا، القدّيس فرنسوا، جان دارك وكثر غيرهم[٦٩].

---

[٦٨] أحد معتقلات النازيّة في الحرب العالميّة الثانية.

[٦٩] «Les deux sources de la morale de la religion»، «مصدرا الأخلاق والدين»، ١٩٣٢.

الخروج من الجحيم الوجوديّ

وكثر غيرهم، نعم، كلّ القدّيسين، من أيّ تقليد كانوا، رفعوا الغطاء عن أسلوب صيرورة جديد تمامًا. من الممكن الخروج من الجحيم الوجوديّ؛ ولكنّ الطريق ضيّق، والأبواب صعبة الفتح، وهناك الخوف والشكّ والريبة، كلّ شيء يجذبنا نحو الأسفل ويجرفنا نحو الأفقيّة الحيوانيّة. ولكن لو تمكّن الناس من أن يتلمّسوا الفرح غير المنتهي، والقوى المثاليّة، والآفاق النيّرة من المعرفة اللحظيّة، وهدوء الكيان الرحب وكلّ ما ينتظرهم، لتركوا كلّ شيء وسعوا إلى الحصول على كلّ هذه الكنوز بدون توقّف! (سري أوروبيندو)[٧٠].

ولكنّ الحصول على هذه الكنوز لا يتمّ بقوّة الأيدي، وتكمن صعوبة الطريق في أنّنا نحاول أن نكون بطوليّين، وهذا مستحيل هنا، فينتهي بنا المطاف بالاستسلام. لمَ لا أقوم بما قام به القدّيسون؟، لمَ هم وليس أنا؟ هذا ما تساءل حوله المغبوط أوغسطينوس. طالما أنّ هذا الصراخ ليس صادرًا عنّي، فإنّني غارق في متاهة القناعات التافهة. ومع ذلك، فطالما أنّ الإنسان يعتمد على قواه الذاتيّة، فهو يتنافس مع الإله، ويظلّ على مسافة منه ويقاوم **إرادته**. وعلى العكس، فالفشل إزاء جهودنا غير النافعة يرمينا بين يدي الإله. نتعلّم من انكسار كبريائنا المتكرّر أن نترك **له** المقاليد عبر كلّ شيء وفي كلّ لحظة. الإله وحده هو **الحياة**، ونحن نحيا فقط بالمشاركة في حياته.

لنترك إذًا للإله الدفّة ولنودعه كلّ أزرار التحكّم، هنا يكمن

[٧٠] وطنيّ وفيلسوف ومعلّم روحيّ هنديّ (١٨٧٢-١٩٥٠).

السرّ. هذا يعني أن أُسلِم إرادتي بثقة إلى إرادة الإله. وبمعنى آخر: ألاّ أقرر بعد أيّ شيء بنفسي. القرار، حتّى ذلك المتعلّق بأدقّ التفاصيل، كفعل هذا بدلاً من ذاك، أو الاستيقاظ في هذه الساعة والنوم في تلك، أو لفظ قول أو التفكير بأمر، ويومًا ما حتّى القرار المتعلّق بأصغر حركة داخليّة، هو المكان الذي أمارس فيه حرّيّتي باستمرار، والذي يلتزم فيه تاليًا عمق كياني ويخطّ اتّجاه مستقبلي. في كلّ لحظة، تحثّني **الحياة** على الحياة، ولكن لكي أحيا إلى الملء يجب أن أصغي إليها وأن أسلم نفسي لها. يمكن أن أتلقّاها شاكرًا مع كلّ شهيق، وأن أهب نفسي لها باستسلام مع كلّ زفير. إنّها وساطة مذهلة. أوجد المسيحيّون الأوائل هذه الجملة الرائعة: قد رأى الروح القدس ونحن (أعمال ١٥، ٢٨). بالنسبة إليهم، كان فعل أيّ شيء من دون قوّة الروح خيانةً.

إذا كان يسوع ربًّا لي حقيقة، فهذا يعني أنّ حياتي هي **مملكته** التي يمارس فيها ربوبيّته، أي التي يكون له فيها كلّ الحقوق. ليس فيّ إذًا أيّ شيء غريب عنه، كلّ ما فيّ منه وبه وفيه (رومية ١١، ٣٦)، أريد أن أتلقّى نفسي منه كما من **نبع** أو كالهواء الذي أستنشقه. في هذا التناغم **الكتابيّ** العظيم، قال الإله ليهوشافاط المضطرب أمام الأحداث المأساويّة: «لا تخف، لأنّ الحرب ليست لك بل لله» (٢أخبار ٢٠، ١٥). ما علينا إذًا إلاّ أن نثق به، وأن نطيعه في الإيمان (رومية ١، ٥ و١٦، ٢٦): وأن نترك للإله حرّيّة التصرّف الكاملة في ما يخصّنا، يا له من تحرّر!

قال لي يومًا ناسك عجوز على جزيرة يونانيّة صغيرة:

أتعرف أنّ روحانيّتي بعد سبعين عامًا من الحياة النسكيّة بسيطة جدًّا: كلّ صباح آخذ ورقة بيضاء وأوقّع في أسفلها قائلاً للإله: أكتب عليها ما تشاء، إنّي أقول على كلّ شيء «نعم» وقد وقّعت سلفًا!

إيجاد الطريق الشخصيّ

على كلّ واحد أن يجد طريقته وأسلوبه في التعبير عن الواقع ذاته. البعض يقول ما أن يستيقظ: «هاأنذا جئت...لكي أفعل مشيئتك يا إلهي» (مزمور ٤٠، ٧-٨). والمدهش أنّه سيكون طوال النهار متناغمًا فعلاً معها، وذلك بأنّ فعل الاستسلام تمّ منذ بدء كلّ الأشياء، في عمق إنباتها الذي لا يزال مجهولاً. يكفي أن نقوم بهذا الفعل في كلّ ساعة، حتّى في وسط قراءتنا هذا الكتاب، لكي نُبقي سفينتنا في الاتّجاه ذاته رغم أنّنا نبحر في وسط الأمواج العالية، وأنّه من المحتمل أنّ مناطق الاضطرابات تزداد عنفًا وشدّة. يصير كلّ شيء بالتدرّج سلوكًا متأصّلاً ومتأسّسًا (أفسس ٣، ١٨) يخمد مأساة الوجود كلّيًّا، ويضع الإنسان أمام كلّ حدث تمامًا كما فعل المسيح. تصير حياتنا بذلك إنجيليّة لا تشوبها شائبة؛ هذا السلوك هو ولوج الحياة الصوفيّة، أي الحياة التي تتحرّك وتنضج بالكامل بالروح القدس. هنا يتلقّى الإنسان من الإله في كلّ لحظة الحياة والحركة والوجود (أعمال ١٧، ٢٨). يشعر أنّه محمول **بحياة** الإله وبأنّ راحته كامنة في **مشيئته**.

ولكنّ الراحة والاستسلام لا يعنيان الغفلة!. فالأمر هنا فعل بأعلى درجاته، أساسه يقظة شديدة غير منقطعة، وبمعنى آخر

تصميم شديد العزم حتّى ولو أدّى إلى الموت (القدّيسة تيريزا[٧١])، انخراط دؤوب حتّى الوصول إلى آخر المطاف (القدّيس ثيوفانيس الحبيس). لا نختبر الإله إلاّ بقدر ما نكرّس أنفسنا بالكلّيّة له. في معظم الأحيان لا يكون استسلامنا إلاّ جزئيًّا ومتذبذبًا، ولا يكون محور حياتنا. هنا يكمن كلّ الفرق بين إنسان تقيّ، شديد الإيمان وممتاز روحيًّا والقدّيس الحقيقيّ الذي ما عاد عنده أيّ أنا، لأنّه ترك نفسه تنسلخ بالإله عن كلّ ما ليس من **مشيئته** الصافية. نكران الذات هو النقطة الحاسمة التي يتفرّع عندها الطريق. معظم الناس يتراجعون أمام هذه المحرقة السرّيّة رغم أنّها الباب الوحيد الموصل إلى الحياة. لنكرّر أنّ الأمر ليس مسألة إنجازات نسكيّة باهرة، بل هو أن ندع الإله، لحظة بعد لحظة، ليكون الإله، أي أن نثق بعمله، أأعجبنا ذلك أم لا: يا ربّ، افعل بي ما تريد!

يمكن لجهد الإنسان أن يكون إذًا في ذروة شدّته، وهذا أمر لا بدّ منه، ولكنّه جهد مسترخٍ وفرِح ومستسلم، ولا ينتظر أيّ شيء من ذاته، إنّه «غير نافع» من حيث المردود وحرّ كلّيًّا إزاء النتائج. الهدف المنشود غير مستطاع عند الناس ولكنّه مستطاع عند الله (متّى ١٩، ٢٦). **فمنه** إذًا يجب أن ننتظر كلّ شيء.

[٧١] هي تيريزا التي من أفيلا، راهبة ومتصوّفة إسبانيّة (١٥١٥-١٥٨٢).

لتكن مشيئتك احتفالاً![٧٢]

لا نعتقدنّ أنّ الفرح والصليب متعارضان،
لأنّهما اقترنا معًا بالمسيح...
في مجرى الحبّ، يحفر الألمُ والفرحُ
المهدَ ذاته.
ستان روجييه

التلميذ، الذي يعيش في الاستسلام الكامل **لسيّده** ويقول له: «يا **ربّي**، افعل بي ما تريد!»، يضع مشيئته تحت مشيئة سيّده. ولكنّ المشيئة هي أداة السعادة، كما يشرح نيقولاوس كاباسيلاس (القرن الرابع عشر). فكما أنّ العين خُلقت للضوء والأذن للصوت، كما يقول، فكذلك الرغبة، التي هي مصدر المشيئة، تمتاز بأنّها غير محدودة وهي مبنيّة على هذه اللامحدوديّة. ولهذا، فإنّ رغبة الإنسان تتحقّق كلّيًّا في المسيح فقط كي نستطيع أن نفرح **به** وحده بسعادة كاملة. وأولئك الذين وقعت مشيئتهم في حبّ المسيح بشكل كامل والذين لا ترتبط مشيئتهم إلاّ به، والذين بالنسبة إليهم، المسيح هو كلّ ما يريدون وكلّ ما يرغبون فيه وكلّ ما يبحثون عنه، يجدون في المسيح اكتمالهم الحقيقيّ وسعادتهم الحقيقيّة[٧٣].

---

[٧٢] هناك تطابق لفظيّ مدهش بالفرنسيّة بين عبارتي «لتكن مشيئتك» و«لتكن مشيئتك احتفالاً».

[٧٣] نيقولاوس كاباسيلاس، La Vie en Christ، «الحياة في المسيح»، منشورات Le Cerf.

تلقّي الذات من الدفق الإلهيّ

وفقًا للآباء، تؤدّي المشيئة إذًا دورًا مركزيًّا بشكل مطلق في حياتنا، إنّها القدرة المحرّكة التي تتحكّم في كامل الإنسان، إلى درجة أنّها إذا تركّزت في أمر ما، ارتبط كلّ شيء به. إنّها قدرة جذب باتّجاه الإله وضعها الخالق في الإنسان، لكنّ الإنسان لا يتوقّف عن توجيهها إلى ما هو مغاير لذلك، وعن البحث عن سعادته في موضع آخر عدا الإله. لذا تأنّس الإله ليستعيد هذه المشيئة الضائعة، ويضع فيها سعادته الحقيقيّة. يأتي المسيح، بحبّه المجنون، «ليشتري» للإنسان مشيئته، هذا ما يقوله القدّيس بولس بإلحاح في مواضع عدّة: «أم لستم تعلمون... أنّكم لستم لأنفسكم؟ لأنّكم قد اشتريتم بثمن» (١كورنثوس ٦، ١٩-٢٠؛ ٧، ٢٣؛ رومية ٣، ٢٤).

إنّه بالحقيقة نقل مشيئتنا إلى المسيح، كما يقول كاباسيلاس. مهما كان هذا الكلام صعبًا، ويخدش من دون شكّ آذان معاصرينا، لكن هنا يوجد كلّ محتوى الحياة الروحيّة بأعلى درجاتها. ليس هناك من حبّ أعظم من أن نُقدِّم مشيئتنا الكاملة والمطلقة للمسيح، وتاليًا ليس من سعادة أعظم من ذلك. في هذه المشاركة، التي تتّحد بها مشيئة الإنسان بالمسيح، تكمن القداسة. لا يعود القدّيس يشاء عبر ذاته بل عبر المسيح. هو يهاجر إلى الإله بكلّ مشيئته، خارجًا عن ذاته بشكل نهائيّ، كما لو أنّه نَقل كلّ حياته وكلّ رغبته إلى موضع آخر[٧٤]، كما يقول أيضًا كاباسيلاس.

---

[٧٤] كاباسيلاس، المرجع السابق.

فإنّه بالمشيئة، كما نرى، يتمّ تجديد الإنسان بالكامل؛ بها يصير الإنسان كائنًا جديدًا، متجلّيًا على صورة المسيح ومتمتّعًا بسعادة مستقرّة وفريدة وكاملة. يصير هذا الإنسان، المنفصل عن ذاته، لأنّه مُتّحد بالمسيح، مسرورًا جدًّا في الأبديّة لدرجة أنّه لن يؤثّر فيه أيّ شيء وقتيّ. وكلّما كان الإنسان متلقّيًا التدفّق الإلهيّ، كلّما كان مسرورًا؛ ومن يستطيع أن يكرّس نفسه لذلك بالشكل الأسمى، يمكث بأسمى غبطة[٧٥]. هذا أحد المواضيع الكبرى في تعليم المعلّم إيكارت، الذي تلقّاه، هو أيضًا، من **تقليد الآباء** القديم. لكنّه يسارع ليضيف أنّه ما من إنسان يجعل نفسه مستقبلاً التدفّق الإلهيّ إلاّ بالتوافق مع الإله: بقدر ما يكون الإنسان صورة واحدة مع الإله، يكون مستقبلاً التدفّق الإلهيّ. ولكنّ التوافق يأتي من استسلام الإنسان للإله وتقديم مشيئته له.

القاعدة الذهبيّة

على هذا الطريق توجد قاعدة واحدة فقط، قاعدة ذهبيّة ومكان هندسيّ لكلّ لحظة من الحياة: «ما كان المسيح ليفعل لو كان مكاني؟» أو بالأحرى: «ماذا يريد المسيح أن يفعل عبري هنا والآن؟».

مرّ زمن خلطنا فيه **العناية الإلهيّة** بالأحداث. كنّا نعتقد أنّ إرادة الإله تتجلّى بصفاء وبساطة وبلغة مباشرة عبر ما يحدث لنا. لكن، بقليل من التفكير نجد أنّه لا يمكن الخلط بين الإله

[٧٥] المعلّم إيكارت (القرن الرابع عشر)، Du détachement، «عن الانسلاخ»، منشورات Rivages.

من جهة، وعنف الأشياء ومأساة الوجود وميكانيكيّة الأحداث التي تتوالى وفق القوانين الفيزيائيّة، أو تبعًا للأهواء البشريّة من جهة أخرى. ليست الأحداث ولا الأشياء نتيجة أيّ قضاء أو قدر.

لكلّ منّا طريقته الخاصّة لرؤية الحياة. لنتذكّر الحديث المعروف جيّدًا بين سكّيرين: يقول الأوّل إنّ نصف الزجاجة فارغ والآخر يقول إنّ نصفها ملآن. بشكل موضوعيّ، كلاهما على حقّ، لأنّها تحوي نصف لتر من النبيذ. لكنّ الأمر الموضوعيّ يمكن أن يكون مرتبطًا بتفسيرين. أن نرى يعني أن نختار معنى، أي الارتباط بعالم من المعاني يأخذ فيه الحدث الموضوعيّ معنى.

نظرتنا إلى العالم هي التي تعطي المعنى. نظرة نيتشه أو سارتر إلى المغامرة الإنسانيّة وأحداث الحياة تمنحهما معنى مختلفًا كلّيًّا عن نظرة القدّيس سيرافيم ساروفسكي[٧٦]، أو القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ[٧٧]. الحدث والأشياء هي مكان رؤيتنا، أي المكان بامتياز الذي تفعل فيه حرّيّتنا. الطريقة التي نقرأ بها الأحداث هي انعكاس أنفسنا. نحن مسؤولون عن نظرتنا لأنّنا مسؤولون عن اختياراتنا.

لنتذكّر على سبيل المثال حاجّي عمواس (لوقا ٢٤، ١٣-٣٥). تركا أورشليم بعد أحداث الجمعة العظيمة، مغلوبين بالفشل. تشوّش خيبة الأمل نظرتهما؛ لذا صار الحدث المعاش معتمًا وتحوّل إلى عقبة. كانا قابعين في عالم غريب يختنق فيه أفضل ما عندهما بالعمى.

---

[٧٦] قدّيس روسيّ (١٧٥٩-١٨٣٣).

[٧٧] قدّيس ومبشّر كاثوليكيّ (١١٨٢-١٢٢٦) يسمّى كذلك نسبة إلى مدينة أسّيز حيث ولد. مؤسّس رهبنة الفرنسيسكان.

حينئذ: «ماذا كان سيفعل المسيح لو أنّه مكانهما؟» ماذا فعل بعد أن سمعهما؟ كشف لهما إمكانيّة رؤية أخرى مختلفة تمامًا، قَلَب عقليّتهما المهزومة وعلّمهما أن يضيفا معنى إلى ما هو بالنسبة إليهما، هما «الغبيّان»، ليس إلاّ حدثًا مأساويًّا وتعيسًا: أيّتها القلوب الغبيّة والبطيئة الإيمان بجميع ما أعلنه الأنبياء! كما قال لهما. الإيمان هو الانخراط في الحدث ليس لأجله بل لنكشف منه عمقه. يرتبط سطحه المأساويّ بأسرار لا نهاية لها، مثل أمواج البحر الهائجة المرتبطة بهدوء المياه العميقة العظيم، وأيضًا تأمّل الكون من قبل علماء الفيزياء الفلكيّين، الذين يتلمّسون في ما وراء الاضطرابات الخارجيّة تناغمًا خفيًّا، لحنًا سرّيًّا[٧٨].

هذا هو غناء العالم الذي أسمعه **مسافر** عمواس الغريب للتلميذين. هناك مستوى من الواقع أعمق من تصوّراتنا، وخارج عمّا تصل إليه مقاييسنا وإسقاطاتنا.

النظرة النبويّة هي التي تقرأ في داخل الحدث (ذلك هو «الذكاء» الحقيقيّ): أما كان ينبغي أنّ المسيح يتألّم ويدخل مجده؟ كما شرح المسيح. إنّه يكشف لأولئك الذين لا يقرأون سوى الوجه المخيّب للأمل لأحداث الفصح المأساويّة، الوجه المضيء في ما وراء الفشل. حينئذ قام داخلهما شيء ما، إنّه مجال إرادة الإله الذي يريد أن يحرّر الإنسان عبر كلّ ما يحدث له. الأحداث الفظّة، وحياتهما ذاتها، تأخذ معنى جديدًا. كلّ حياة تحتوي على **الحياة**؛ وراء كلّ فشل، هناك قيامة ممكنة. وحدها

[٧٨] عنوان كتاب لعالم الفيزياء الفلكيّة ترين سوان توان، منشورات Fayard.

نظـرة الحـبّ هـي القـادرة عـلى كشـف نيّـة **الحـبّ** في الأحـداث.

اضطـرب التلميـذان عـلى الطريـق إلى عمـواس، وهما يسـمعان هـذا التفسـير، انفتحـت عيناهـما وتأجّـج قلباهـما. جعلهـما المسـيح ينـزلان مـن الـرأس، الـذي يحلّـل ويحكـم، إلى القلـب الـذي يـرى. حينئـذ تحـوّل نظرهـما وتَعرّفـا إليـه عنـد كـسر الخبـز. في بسـاطة تـصرّف يومـيّ يشـكّل حدثًـا مـن دون أهمّيّـة، بالنسـبة إلى أعـين خارجيّـة، يعايـن التلميـذان متأمّلـين الآن سرّ **حضـور** فعّـال يحـوّل، بكـسر الخبـز، العـالم بالإفخارسـتيّة والشـكر لأنّـه بـارك، (لوقـا ٢٤، ١٦-٣٥).

أبجديّة لفكّ رموز الأحداث

وهكـذا بالإيمـان **بـكلام المسـيح**، واسـتنادًا إلى جميـع **الكتـب**، مـن مـوسى إلى الأنبيـاء، نتعلّـم الأبجديّـة التـي تترجـم الأحـداث وتكتشـف القصـد منهـا. يـشرح هـذا مثـل قديـم بطريقـة شـعبيّة: أرسـل أحـد الرجـال خادميـه إلى المدينـة، كلّ واحـد وحـده. وعندمـا التقيـا معًـا هنـاك، نسـب كلّ منهـما ذلـك إلى الصدفـة، لأنّ كلاًّ منهـما يتبـع منطقـه الخـاصّ. لكـنّ السـيّد يعـرف أنّ تلـك «الصدفـة» تخضـع لمنطـق آخـر. عـلى هـذا المنـوال تسـير الأحـداث في العـالم. تطـرأ فجـأة وفـق ترتيـب الأشـياء الطبيعيّـة أو الإنسـانيّة، ولكـن مـن دون إقصـاء ترتيـب أعـلى.

يرتكـز تحويـل الرؤيـة والموقـف إذًا عـلى الاتّحـاد بالسـيّد. لمعرفـة ترتيـب مختلـف جذريًّـا، يجـب البحـث عـن حقيقـة الأشـياء، ليـس في المظاهـر بـل في سرّ الإيمـان. عندمـا يتلقّـى أحدهـم ذكاء

الإيمان هذا، كما يقول أحد الآباء، يكلّمه الإله عبر الكائنات كلّها؛ الكون بالنسبة إلى هذا الذكاء هوكتابة حيّة يخطّها إصبع الإله من دون توقّف أمام عينيه. قصّة جميع اللحظات التي تمرّ هي قصّة مقدّسة. هذا هو «الترتيب الأعلى». في الترتيب الأدنى، أي «الصدفة»، هذا ليس صحيحًا: لا يريد الإله عذاب الإنسان وتعاسته! الأحداث الخارجيّة لها تجانسها الداخليّ التلقائيّ: لا يريد الإله أن يُدهس ابني بواسطة شاحنة ولا أن أكون مريضًا، وهو لا يريد الإبادة الجماعيّة ولا تلاشي طبقة الأوزون، ولا الكوارث الكونيّة أو الصناعيّة. في هذا السياق الوجوديّ، يكون الإنسان هو المسؤول. ولكنّه لا يستطيع أن يكون كذلك بشكل كامل إلاّ عندما يكون مستنيرًا بإرادة الإله.

كيف يمكن الجمع بين الاثنين؟ الترتيب العلويّ والترتيب السفليّ، السطح والعمق، المخطّط الوجودّي للإنسان مع مسؤوليّته الحرّة في حياته اليوميّة مع سرّ الإرادة الإلهيّة؟ هل هناك من اتّحاد؟ يجيب الكتاب المقدّس بكامله بـ«نعم» ويذكر أنّ هذا الاتّصال عرسيّ، تتزاوج فيه الإرادتان الإنسانيّة والإلهيّة، في توافق كامل. يكمن الكلّ في تبادل الحبّ هذا، وإلاّ فلن تكون إرادة الإله سوى فخّ للإنسان، وسوى ظلم جائر ومُقلق، ووزن ثقيل ومؤنِّب جدًّا لا يقبل لا الخطأ ولا التأخير في برنامجه المُعدّ منذ الأزل. انحنى كثر أمام هذا الإله الفاسد المعذِّب ذي الوجه الغليظ، هذا الإله القادر على كلّ شيء، الذي يرى كلّ شيء، الذي يعرف كلّ شيء والذي يهيمن على التاريخ الإنسانيّ، مطالبًا بأن نأخذ مكاننا الذي حدّده لنا منذ الأزل كممثّلين صامتين!

لا شيء من ذلك في الكتاب المقدّس. حتّى النصوص، التي تعطي انطباعًا بأنّ الإله يملي مشاريعه وإرادته من فوق، لا تُفهم إلاّ في سياق اتّحاد، رغبة في شركة وعطيّة متبادلة فيها تضحية من الطرفين. لكنّ هذا الحبّ الأعظم للإله الذي يؤدّي إلى الصليب، لا يمكن أن يوجد إلاّ بين أشخاص أحرار.

هذا السرّ هو المحتوى العميق في كلّ حدث. منذ تجسّد الإله في يسوع المسيح، صار التاريخ مسكونًا، تاريخ الكون وتاريخي الصغير كإنسان، اللحظة الحاليّة وما تحمل معها. نزل المسيح إلى داخل كلّ شيء، إنّه **الأبديّ** الداخل في الزمان، وهو يعطيني موعدًا «هنا والآن». ولهذا، من الآن فصاعدًا تعتمد نوعيّة حياتي، سعادتها أو تعاستها بشكل كامل على علاقتي مع اللحظة.

يكمن عمق الإنسان في قدرته على استقبال الحدث وفي إنصاته الأكثر عمقًا. نظرة الإيمان إلى ما يحدث لي صدى حقيقيّ يضعني في شفافيّة الحدث. فرغم أنّ المظاهر ذاتها يمكن أن تكون مأساويّة وتجبرني على أن أضع أصابعي على جروحه، كما فعل القدّيس توما، سيعرّفني إيماني إلى **ذاك** الذي لبس العذاب الإنسانيّ الموجود خلف غطاء التاريخ. لن تكون علاقتي بالحدث بعد الآن علاقة «أنا» في مواجهة ما يحدث لي، بل علاقة «**أنا - أنت**» للقاء سرّيّ في قلب الحاضر. وإزاء أكثر أمر لا يمكن تصديقه، يمكن أن أصرخ إذًا مع القدّيس توما: ربّي وإلهي!

«نعم» للمستحيل

هذا بالضبط ما فعله المسيح بنفسه، وبفعله هذا أراد أن

يعلّمنا إيّاه. وحدها الصلاة، أي انتقال رغبتنا إلى الإله، في قلب كلّ حالة، تفتح سطح الحدث إلى **الماوراء** الذي يسكن عمقه. كذلك يصلّي المسيح في كلّ الظروف، لكي يُظهر أنّ الحياة ليست عملاً آليًّا خارجيًّا، سلسلة عبثيّة، لكن بالاتّحاد «**بسيّد**» كلّ الأشياء، **وبالآب ينبوع الحياة**، يحوّل الحدث إلى «سرّ» ويقتلعه من الابتذال. فبصلاة «لتكن مشيئتك»، يحرّر المسيح الحدث من مخالب **العدوّ**، وينتزع منه شوكة المأساة ويعيده إلى يدي **الآب**.

هكذا «نفعل» مشيئة الإله! بإعادة توجيه مجرى التاريخ، إكسابه المعنى الصحيح، الفهم الأسمى للأشياء والأحداث بحيث نربطها بالإله، إنّها مسؤوليّة الإنسان، مكان حرّيّته وتاليًا مستقبله. بالرغبة يلتقي الإله بكلّ واحد منّا شخصيًّا، كنداء لخلق مشترك مسجّل في التاريخ، في كلّ لحظة، منذ **التجسّد**: «هاأنذا واقف على الباب وأقرع» (رؤيا ٣، ٢٠).

تكتب حياتنا إذًا من لحظة إلى أخرى الجواب عن هذا النداء وتدخل بذلك في وحدة مع إرادة الإله. في تعلّم لا ينتهي أبدًا، وبشكل أفضل من سابقه دومًا، أقول للذي يطرق بابي من دون توقّف: «نعم... ادخل!». ما عادت اللحظة القدر الأسود الذي يطرق، لكنّه **أحد** ما خلف هذا القدر ذاته. كلمة «نعم» التي أقولها لا تسلّمني إلى القدر المجهول وإلى مأساته، لكن إلى المسيح الذي نزل كي يُحرّرني. وحين أصبح «نعم» بشكل كامل، وعندما يصبح وجودي انفتاحًا كاملاً أمام كلّ ما يجري، أصبحُ **معه** الفائز في انتصار مطلق. قال الذي يعيش في داخلي: «قهرتُ العالم» (غلاطية ٢، ٢٠؛ يوحنّا ١٦، ٣٣). هذا القبول عرسي، لأنّه

التصاق حبيّ بلحظة **حضور**، ويجعلني هذا العرس أختبر، في سرّ صلاتي، أنّ كلّ معاناة هي وجه الخروف المذبوح المضرّج بالدم (رؤيا ٥، ٦).

ما كنّا عرفنا شيئًا من هذا كلّه، لولم يقل المسيح «نعم» حتّى للمستحيل في بستان الزيتون! اختبر وأثبت لنا جميعًا بتقديمه ذاته أنّ الإله يعطي الحياة بكاملها عبر كلّ ما يعترضها. عبر ما لا يحتمل من الكذب والخيانة، من الإهانة العظمى ومن الموت الأكثر حقارة، يطلب إلى الإله هذا المستحيل: المحبّة حتّى في وسط ما هو مخالف للحبّ، الارتواء من ينبوع الحياة حتّى في قلب الموت. بذلك يقترن المسيح بإرادة الآب، وحتّى التعرّق دمًا، يحوّل التجربة الشيطانيّة إلى طريق نحو حبّ **الإله** الذي سبقه في الحدث. في كلّ خطوة، مترنّحًا تحت الصليب، يخطّ المعنى الجديد في الواقع، مثل ثلم سيستقبل حياته الخاصّة، ومنه ستنبتُ حقيقة مختلفة. وعندما سيلتصق تمامًا بحدث صليبه، ويصبح واحدًا مع حقيقة هنا والآن، في «نعم» من دون نقص (٢كورنثوس١: ١٩) سيقول: «اكتمل كلّ شيء؛ إنّه عرس إرادة الإله مع إرادة **الإنسان**، **الاقتران** الجديد والنهائيّ».

أن يموت هكذا، وقد تركه تلاميذه، ونبذه شعبه، وخانه أصدقاؤه، واستُهزئ به، وسخرت منه الحياة، مع أنّه **الحياة** ذاتها، أن يموتُ مسامحًا الذين أماتوه، من دون كلمة شكوى أو احتقار، من دون حركة تراجع، أن يموت مستسلمًا للإله، حينما يبدو أنّ الإله تركه لقوى الشرّ، لكي يقدر على كلّ ذلك يجب ألاّ يعود مالكًا ذاته، وأن يتعرّف إلى **الحضور** الإلهيّ في كلّ هذا

الـذي يحصـل لـه، أن يقـدّم ذاتـه **لـه** ويتلقّـى ذاتـه **منـه**. أن يكـون **الابـن** هـو أن يتلقّـى ذاتـه مـن **الآب**، كالجـدول الـذي يتلقّـى ذاتـه في كلّ لحظـة مـن الينبـوع. لا يتلقّـى الجـدول ذاتـه مـن الطمـي التـي يجدهـا في طريقـه، مـن العقبـات والوحـل والعراقيـل مـن كلّ الأنـواع، لكـن مـن النبـع الـذي في داخلـه عـلى طـول مجـراه، والـذي هـو واحـد معـه! إن أوقفتـه العقبـات، سـيتحوّل بسرعـة إلى ميـاه راكـدة، آسـنة، لكنّـه باتّحـاده بقـدرة النبـع المحييـة، يصـبّ الجـدول في مسـاحاتِ المحيـط اللامتناهيـة. عندمـا عـاش المسـيحُ عذابه بشـكل كامـل، لم يتركـه يسـيطر عليـه في أيّـة لحظـة، لا شيء يوقفـه؛ بمقـدار قبولـه مـا لا يُقبـل في حـبّ جنـونيّ، تتبـادل **الحيـاة** عـلى دفعـات كبـيرة **بينـه** وبـين **الآب** في **الـروح**. حينهـا ينفتـح موتـه عينـه عـلى الفضـاءات اللانهائيّـة للقيامـة، انبثـاق الغبطـة والنـور الإلهـيّ. هـو الأول مـن بـين البـشر الـذي، انتقـل مـن المـوت إلى الحيـاة لأنّـه أحـبّ (١يوحنّـا ٣، ١٤).

ما معنى أن نحيا؟

إنّـه نمـط حيـاة ثـوريّ ذاك الـذي أدخَلـه المسـيح في التاريـخ بتجسّـده فيـه. تنفيـذ مشـيئة الإلـه لا يعنـي تحريـك الإنسـان مـن قبـل «فقـاريّ غـازيّ» تبعًـا لعبـارات نيتشـه التجديفيّـة، لكنّـه الدخـول في حكمـة. وحـده الحـبّ، عندمـا يكـون اسـمه: الإلـه يصنـع الإنسـان، ينتـصر عـلى الـكلّ. يعيـش المسـيح كلّ شيء، حتّـى العـذاب والمـوت، في الحـبّ.

هـذا بالطبـع مسـتحيل عنـد الإنسـان، لكـن ليـس عنـد الإلـه.

أنا هو الطريق، يقول المسيح، بدوني لا تقدرون على أن تفعلوا شيئًا (يوحنّا ١٤، ٦؛ ١٥، ٥). المسيح هو الإله، **إنّه الحبّ** شخصيًّا **وهو** إذًا الذي يحبّ فينا ويحبّنا عبر كلّ ما يحدث لنا. لكنّ مفتاح الدخول إلى هذه الحياة الجديدة هو: اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه والباقي كلّه سيُزاد لكم (متّى ٦، ٣٣). ليس الاستسلام عدم اكتراث، مشيئةُ الإله «تُصنع». طلب الملكوت هو أن نسلك «**الطريق**»، أي الاتّجاه، أن نعطي أوّلاً لكلّ ما نفعل هذا الاتّجاه الوحيد. كلمة أوّلاً هذه تعبّئ كلّ طاقاتنا وتُمركزها في المسيح، كما تمركز المسيح في الآب. وحين يصبح هذا الاتّجاه مركز الحياة، بفضل تحوّل عميق لإرادتنا الخاصّة، تبدو الأحداث كوسط إلهيّ تُرِك حرًّا لفعل الإله.

عندئذ يتّحد الكلّ فينا ومن حولنا، ويتبسّط إلى أقصى حدّ. عندما أكون مسكونًا بكلمة الإله التي أتأمّلها وأفكّر بها من دون توقّف، تصير خلفيّة التاريخ مألوفة بالنسبة إليّ: أستطيع الآن أن أحبّ اللحظة كما تحضر، عالمًا أنّ لها وجهًا غير مرئيّ يسمو إلى حالة السرّ (نوفاليس[٧٩]). الحبّ هو الاندماج، الاندماج للالتقاء بسرّ الفعل الإلهيّ هذا. أن أكون في المسيح، أن أحوِّل نظري عن نفسي، أن أنسى نفسي وألاّ أرى إلاّ المسيح حاضرًا فيّ. المسيح هو من يعيش فيّ. مهما أفعل، **هو** بداخلي، **وهو** الذي يرغب بداخلي، يريد، يفكّر، يحبّ، يتكلّم ويعمل، **هو** الذي

[٧٩] شاعر ألمانيّ ١٧٧٢-١٨٠١، من ألمع شخصيّات الحركة الرومانسيّة. ولد في أسرة مسيحيّة اشتهرت بالتقوى والورع. امتازت مؤلّفاته بالمعاني التصوّفيّة وبالإيمان بالإنسانيّة وتقدّمها الروحيّ والأخلاقيّ. من أشهر أعماله «ألحان لليل» الذي كتبه تخليدًا لذكرى حبيبته صوفي التي فقدها بعد علاقة استمرت ثلاث سنين. عبّر نوفاليس في ألحان لليل عن أنّ الموت هو نهضة روحيّة بحضور الربّ وأنّه انتقال وخلاص وضمّنه مجموعة من التأمّلات والحنين إلى عصور المسيحيّة الذهبيّة.

يتألّم أو يفرح بداخلي، أتنفّس **به** وعبره. بهذه الكلمات القليلة يكمن كلّ نسيج رسائل القدّيس بولس: تكرّرت فيها عبارة أن نكون في المسيح يسوع ١٦٨ مرّة!

أنا أحيا المسيح حيث أكون وعبر ما أعمله الآن. عندئذ لا يهمّ كثيرًا إن أعجبتني الأشياء التي تحدث لي أو أزعجتني، بما أنّ **المسيح** يفعل ما يريد ويأتي إليّ كما يشاء! إنّه **الطريق** وهو يقودني حيث يريد (يوحنّا ٢١، ١٨). ينفتح هذا الفراغ من الذات على ملء إلهيّ يولد فيه الإنسان في ذاته بشكل حقيقيّ. لا تعود عنده «الأنا» التي يمكن الوصول إليها بطريقة أو بأخرى، كلّ شيء بالنسبة إليه إذًا هو مناسبة لملاقاة **الحبّ** ولأن يحبّ أكثر دائمًا. كما يبرز ذلك في التطويبات (متّى ٥، ١-١٢): هذا الإنسان، أكان فقيرًا، حزينًا، جائعًا أو عطشانًا، أو حتّى مُضطهَدًا ومغطى بالعار، هو دائمًا مسرور؛ الربّ يطلب منه، وهنا مشيئته، أن يكون في الفرح والاستبشار! ولأجل دافع واحد: من أجلي.

وهكذا فكلّ شيء نعمة، يعطي المسيح نفسه عبر كلّ شيء، ليس لكي نتوقّف عند نعمه، كما يقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، لكن لنبتهج أمام **حُبّه** المفرط الفائق الوصف[٨٠]. أمام هذا الفيض من الفرح، يقول أيضًا لا تطرح بعد أسئلة محرجة، تجاوز العقلانيّات، لا تشترط جوابًا عن سبب الأحداث، فذلك من الدناءة، لأنّ العناية الإلهيّة لا تُفسَّر، اهتمامها لا يُفهم، طيبتها فائقة الوصف وحبّها مستحيل الكشف. الخبز هو خبز

[٨٠] القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، Homélies sur la Providence de Dieu، «عظات في عناية الإله»، منشورات Le Cerf.

دومًا، أكان خبز التعزية الأبيض أو خبز الحزن، هناك **عطاء** غير **منفصل عن المعطي.**

نكهة الخبز الأسود

طالما أنّنا لا نَسعد إلاّ بخبز الحياة الأبيض، نظلّ في العناء، في الثنائيّة «سعادة - تعاسة»، ولن نستمتع بالكامل بالخبز الأبيض ذاته لأنّه مرتبط فقط ببعض الحالات. يجب أن نكتشف سرّ الخبز الأسود، وأن نتعلّم أن نحبّه من كلّ قلبنا، إن كنّا نريد اختبار سرّ الحياة. الحياة هي كلّ ما يحدث، وليس فقط ما هو سعيد في عينينا: الألم هو جزء لا يتجزّأ منها. لكنّ السعادة والتعاسة تظلّان أوهامًا تؤرجحنا على أمواج الوجود غير الثابت، طالما لم نغطس في الماء العميق لاستقبال **ذاك** الذي يبحث عنّا عبر الخبز الأوّل والآخر، **المُعطي، الوعي** غير المشروط وغير المتأثّر أبدًا.

مهما كان لون الخبز اليوميّ، هو إذًا سرّ، أو مادّة **خبز** جوهريّ يختبئ فيه. العبور من الأوّل إلى الآخر هو»فصح» يتطلّب من طرفنا عمل تحوّل. كما الكاهن على المذبح، حيث يتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، نحن كهنة في العالم لتحويل المادّة التي يضعها المسيح في كلّ لحظة بين أيدينا إلى نعمة. أن نقوم بالإفخارستيّة، أي تقديم الشكر في كلّ وقت وكلّ مكان، فهذه مهمّتنا الحقيقيّة كأشخاص. يتعلّق بنا التعرّف إلى نعمة الإله التي تعمل في كلّ مكان واستخراجها من غلاظة اللحظة عبر «فعل» نعمتنا، أي العرفان بالمعنى المُفرح للكلمة.

هـذا هـو معنـى «أن نحـبّ».

يربـط ريشـارد دوسـان فيكتـور[٨١] الابتهـاج بدرجة الحـبّ الثالثة. يقـول: المديـح أداة تناغـم روحـيّ تهيّـئ لـدوام نعمـة الحـبّ، تمامًـا كـما اسـتدعى أليشـع عـازف عـود لتكـون عليـه يـد الـربّ (٢ملـوك ٣، ١٥). يمكـن أن تفَـرِّح الأنغـام الأخـرى الإنسـان بشـكل عظيـم، وأن تغبطـه أداة الابتهـاج. يؤكّـد المزمـور ٨٩ هـذه الخـبرة: طـوبى للشـعب العارفـين الهتـاف. يـا ربّ، بنـور وجهـك يسـلكون. باسـمك يبتهجـون اليـوم كلّـه، وبعدلـك يرتفعـون. لأنّـك أنـت فخـر قوّتهـم.

الابتهـاج حالـة قلـب متوهّـج بالحـبّ وبالعرفـان للقـاء **وجـه ربّـه** في المـاوراء، ولكـن في عمـق الفسـاد والثقـل. أن نبتهـج، هـو أن نوصـل الشـكر إلى ذروتـه التـي لا يعـبّر عنهـا بالكلـمات: لا يسـتطيع القلـب إلاّ أن يتوافـق مـع فـرح الإلـه وأن يدخـل في احتفـال الترتيـل الداخـليّ الأبـديّ الـذي يضعنـا فـوق كلّ الاضطرابـات (المغبـوط أوغسـطينوس، القـرن الخامـس). لهـذا السـبب قـال المسـيح: الحيـاة الأبديّـة، أن يعرفـوك، أنـت الإلـه الحقيقـيّ وحـدك (يوحنّـا ١٧، ٣). لكـنّ «المعرفـة» هـي إذًا ولادة كلّ لحظـة بعمقهـا الحقيقـيّ الـذي هـو الحيـاة الأبديّـة. هـذه المعرفـة تحـوّل حياتنـا إلى شـكر، وبالعكـس: يفتـح العِرفـان والشـكر الزمـن إلى بعـده الليتورجـيّ، إلى الحـاضر الأبـديّ. إنّهـا معرفـة مسـتعصية عـلى سـائر النـاس «الفانين» لأنّهـم لا يـرون إلاّ سـطح الأشـياء المضطـرب (كانـت[٨٢]) ولا يصلـون إلى **حيـاة** الحيـاة عينهـا.

---

[٨١] راهب إسكتلنديّ من القرن الثاني عشر.

[٨٢] فيلسوف ألمانيّ (١٧٢٤-١٨٠٤).

سرّ اللحظة الحاضرة

مع المسيح الإله، دخلت الأبديّة في الزمن. أن نحيا اللحظةَ إلى الملء يعني أن نوجد في النقطة المطلقة لالتقاء إحداهما بالأخرى. لا تعطي الأبديّة ذاتها إلاّ للذي يجعل نفسه حاضرًا بشكل كامل في الحاضر. ليس الماضي والمستقبل بالنسبة إليه إلاّ قبورًا تقتلع **الحياة** من الحياة، وأماكن غياب وظلمات. استردّ فرحه وشكره الزمن من التحطّم ومن أمبراطوريّة الموت. بحسب تعبير الآباء، ما عاد كرونوس، إله الوقت في الأساطير اليونانيّة، ملتهم الشعوب الكبير، يملك الإنسان، لأنّه عندما يبدأ هذا بالغناء يُدخل في الزمن أعظم أنواع الكيمياء. يتحوّل الزمن إلى غرفة عرسيّة تتّحد فيها جميع المتناقضات في ذات **المشيئة** الواحدة. لأنّ المسيح هو **الأزليّ**[٨٣] الذي صار في الزمن، والزمن في لحظيّته هو مكان اللقاء بين الإله والإنسان، مكان الحبّ المعاش والتباديليّة الإلهيّة - الإنسانيّة. وبهذا يهدم المسيح بشكل نهائيّ التناقض بين الأبديّة والزمن، ويكشف على العكس من ذلك أنّ الزمن هو انعكاس **الحياة** الإلهيّة كشركة أشخاص وكإمكانيّة مقدّمة للاستسلام والحبّ. يقلب المسيح، بدخوله في الزمن باستسلام كلّيّ وحرّ، لحظة الفراغ الفائق إلى أعظم ملء، وقد تفجّر هذا الملء بعد في **القيامة**[٨٤].

يأتي **الطريق** إليّ إذًا عبر الوقت فلا أتركه لحظةً واحدة، لأنّه حياتي. إن كان الحدث هو النقطة التي ينكشف لي فيها

---

[٨٣] هو أحد أسماء الإله في العهد القديم المستخدم في اللغة الفرنسيّة.

[٨٤] أوليفييه كليمان، Transfigurer le temps، «تحويل الزمن»، منشورات Delachaux & Niestlé.

سرّ **المشيئة** الإلهيّة، فالتمرين الذي سيسمح لي بالالتقاء بها وباستقبالها بحبّ، هو اللحظة الحاضرة. وهي وحدها النقطة المفصليّة الموحِّدة بين حياتي الداخليّة في الإله وآلاف الأشياء التي أتمّمها في الخارج. من هنا، فالتتالي اللانهائيّ للحظات يجد استمراريّة دائمة، كثافة، تعني أن **الأزليّ** يلامس الزمن.

يلزم لهذا تركيز كامل وثابت، غير إراديّ ومسترخ، تقديم كياننا بكامله قربانًا، إنصاتًا تامًّا للإحساس بالدفع الإلهيّ في رغبتنا ومشيئتنا، إلى أن نتمكّن من قبوله كالهدف الوحيد لحياتنا وعملنا. إنّه الشرط الأوّل لكلّ تقدّم. لكنّ هذا الجهد هو من دون جهد، لأنّ **الغبطة** غير المحدودة والكونيّة تظهر، متأصّلة، مكتنفة، ومخترقة كلّ شيء. فعندما نمضي إذًا حياتنا كلّها كاحتفال، مقتنعين بأنّ الإله موجود دائمًا وفي كلّ مكان، أي عندما نحرث ونحن نغنّي، ونبحر على أنغام التراتيل، نصير في كلّ أمر كسكّان السماوات. من هو كامل يعيدُ إلى الإله الاستعمال الصحيح لكلّ الأشياء[٨٥].

[٨٥] القدّيس كليمنضوس الإسكندريّ (القرن الثاني الميلاديّ)، Stromates، «المتفرّقات»، منشورات Le Cerf.

لهيب الأشياء

غدا عالمنا مريضًا منذ أن
قطع اتّحاده مع ينابيعه غير المنظورة.
ستان روجييه

لنجعل من الخارج داخلاً

يظهر الكتاب المقدّس لنا منذ صفحاته الأولى كطريق تحوّل، وكأسلوب صيرورة وحياة. عندما خلق الإله الإنسان على صورته، وضع فيه توقًا لا محدود لا يشبعه أيّ شيء محدود. ولهذا فالإنسان في بحث دائم! يجيب الإله عن هذا البحث بإعطائه كلّ الخليقة كوليمة كونيّة. في كلّ مرّة يخلق الإله فيها شيئًا، يباركه (تكوين ١)، هذا يعني بلغة الكتاب المقدّس **أنّه** يملأ كلّ ما هو موجود بحضوره وبحبّه. يمكن للإنسان، عبر كلّ شيء حتّى أصغر قشّة عشب، أن يلاقي إذًا الإله ويعرفه ويحبّه. كلّ شيء منته ومحدود مسكون بالجواب اللانهائيّ الذي يبحث عنه الإنسان باستمرار في كلّ مكان. كلّ التفاصيل الدقيقة لهذه الخليقة الشاسعة هي هبة من الإله للإنسان، الزهرة البسيطة المنسيّة في أحد السهول، أو المشتري إله الكواكب في الأعلى، الحجر الذي يحمل قدمي أو الهواء الذي أستنشقه، يقدّم كلّ شيء ذاته، لحظة بعد لحظة، لإرضاء توقي غير المحدود، وينفتح له كمكان ألاقي فيه الإله في اتّحاد عرسيّ. حتّى الأشياء البسيطة المصنوعة

بيد الإنسان لتكون أداة له، ككرسي مثلاً هي، كما يقول اللاهوتيّ بالتازار[٨٦]، واقع وسّر في آن واحد، أو كما يقول الشاعر نوفاليس: لكلّ سطح مرئيّ عمق غير مرئيّ يسمو إلى حالة السرّ. وهكذا فإنّ كرسيًّا ما يمكن أن يكون مغمورًا بالصمت وعمقه لا يتعلّق إلاّ بكيفيّة رؤيتي له.

ففي النظر تتجمّع كلّ الحواسّ الأخرى، التي، مجتمعةً، تركّز الإنسانَ في نوع من العلاقة. يمكن لهذه العلاقة أن تكون خارجيّة وموضوعيّة: أيّ علاقة أكون فيها أنا من جهة والباقي من جهة أخرى. إنّها نظرة عقلانيّة مادّيّة، تبقي كلّ شيء على مسافة منّا، ولا تلاقي أبدًا أيّ شيء لأنّها تظلّ في مستوى المظاهر: يوجد فيها إذًا عِلم بالأشياء من دون أيّ معرفة عمليّة لها، تلك المعرفة التي تقدر وحدها على أن تحوّل الإنسان. أو أن تكون هذه العلاقة، على العكس، داخليّة وغير موضوعيّة: إنّها نظرة غير مصنوعة، بل منفتحة بالكامل، إنّها وعي لا غاية له، استقباليّة من دون أيّ تعليل أو تدخّل من الأنا. كلّما كان وعي الإنسان داخليًّا، استطاع أن يغوص أكثر إلى داخل كلّ ما يحوط به. عندما يتوقّف العقل عن التدخّل، يحدث استقبال مطلق، يصبح الشيء المرئيّ شفّافًا وتصير المعجزة ممكنة: الإحساس المباشر **بالكائن الحقيقيّ** الموجود في داخل كلّ حقيقة. ما يبزغ عندئذ في هذه التجربة المباشرة، هو دومًا **الجمال**، وجه الإله في قلب كلّ شيء، منذ أن بارك كلّ شيء ووجد أنّ ذلك حسن[٨٧] (تكوين ١).

---

[٨٦] لاهوتيّ سويسريّ ١٩٠٥-١٩٨٨، دعا إلى مواجهة الحداثة بتطبيق العقيدة المسيحيّة في ممارسة التقوى.

[٨٧] يمكن أن تترجم كلمة طوب العبريّة في أيّ موقع بكلمة جميل أو بكلمة جيّد على حدّ سواء (المؤلّف).

قال دوستويفسكي إنّ الجمال سيخلّص العالم، وتعتقد سيمون فاي[٨٨] أنّ الرؤية هي التي تخلّص، وكلاهما على حقّ، ولكن أليس الأكثر واقعيّة هو أن نقول إنّ كلّ شيء هو في العلاقة؟ قال المعلّم سوزوكي هذه الجملة الرائعة: يجب أن ننظر إلى الخارج كما لو كنّا ننظر إلى الداخل، وذلك بأن نجعل من الخارج داخلاً. هنا يكمن كلّ شيء! برهن العالم الأميركيّ الكبير فريتجوف كابرا علميًّا أنّ الجسيم الدقيق[٨٩] لا يسلك السلوك ذاته بالنسبة إلى شخص مؤمن وإلى شخص غير مؤمن! هذه النتيجة مثيرة بالكامل، لأنّها تبرهن وتتحقّق ممّا هو مؤكّد أكثر فأكثر في آخر شطحات الفيزياء الكمّيّة، وهو أنّه يوجد وراء كلّ الأشياء وبداخلها **الوعي ذاته**.

يرتبط كلّ الأمر إذًا بعلاقتي مع ما أتعامل معه. إذا اعتبرته شيئًا، وخصوصًا إذا اعتبرته شيئًا للمتعة، سينغلق على نفسه كالجسيم الدقيق أمام شخص غير مؤمن. أمّا إذا تعاملت معه **كفاعل**، من وعي إلى وعي، ستتولّد شركة، تبادل في الوعيين الإلهيّ والإنسانيّ، حسب تعبير ديمتري ستانيلوي[٩٠]. في هذا الخيار الذي يقرّر فيه الإنسان كيف يكون تكمن عظمته وانحطاطه، اختبار حرّيّته التي تخلّصه أو تضيعه، الحياة كفردوس أو كجحيم وانحباس.

---

[٨٨] سياسيّة فرنسيّة معاصرة.

[٨٩] أي المكوّنات الأساسيّة للمادّة كالإلكترونات والكواركات.

[٩٠] *Prière de Jésus et expérience du Saint Esprit*، «صلاة يسوع واختبار الروح القدس»، منشورات Desclée de Brouwer.

اللامعقول[91]

إلى هذا الخيار الحرّ، الذي هو بالحقيقة نداء إلى الحبّ المتبادل، دعا الإله الإنسان عندما طلب منه أن يسمّي كلّ الأشياء، بعد أن خلقه. فبالكتاب المقدّس، ليس الاسم صفة أو وظيفة، بل جوهر الشيء، جوهره كهبة من الإله، تسمية الأشياء هي مباركة الإله فيها ومن أجلها[92]. في الحقيقة، بما أنّ الإله بارك كلّ ما خلقه ليقدّم ذاته عبر كلّ مخلوق للإنسان، فالمفتاح الوحيد لفهم العالم وللعيش بالملء يوميًّا، ولنجد الفرح الكامل بالتواصل الدائم مع الكائنات والأشياء وحتّى مع الزمن لأنّه مبارك أيضًا (تكوين ٢، ٣)، هو أن نبارك الإله بالمقابل. وحده الشكر، في الحقيقة، هو الذي يحرّر قلب الإنسان ويجعله يولد في الحبّ، أي في العلاقة الصحيحة مع كلّ ما يواجهه. «التسمية» تعني مباركة كلّ الأشياء، يقول القدّيس بولس: «عيشوا في الشكر» (كولوسي ٣، ١٥-١٧) وأيضًا: «شاكرين كلّ حين على كلّ شيء في اسم ربّنا يسوع المسيح، لله والآب»، (أفسس ٥، ٢٠). ربّما يكمن أبسط تمرين في حياتنا اليوميّة هو أن نصنع لأنفسنا جملة قصيرة بكلماتنا المفضّلة المفهومة، أو أن نختار من الكتاب المقدّس أكثر آية معبّرة عن السلوك الذي نصبو إليه، كهذه مثلاً:

باركي يا نفسي الربّ،

---

[91] أوجد هذا التعبير الفيلسوف واللاهوتيّ الألمانيّ رودولف أوتو (١٨٦٩-١٩٣٧) في كتابه *Le Sacré*، «المقدّس»، للإشارة إلى البعد الذي يتجاوز الإدراك العقليّ إلى ما هو مقدّس.

[92] ألكسندر شيمان، Pour la vie du monde، «من أجل حياة العالم»، منشورات Desclée de Brouwer، صفحة ١٤.

وكلّ ما في باطني ليبارك اسمه القدّوس.

باركي يا نفسي الربّ ولا تنسي كلّ حسناته، (مزمور ١٠٣).

ثمّ يجب أن نكرّر هذه الجملة المختارة، وأن «نمضغها» باستمرار، كما كان يفعل **القدماء**، وأن نردّدها على أيّ شيء يقع عليه نظرنا أو إحدى حواسّنا: على اليوم الذي يبدأ في الصباح، على حركة قدمينا في أولى خطواتها، على الماء الذي ينساب لاغتسالنا، الملابس التي نرتديها، الغذاء الذي نتناوله، الأشخاص الذين نراهم...

تعمل هذه الجملة، التي تكون في البدء على شفتينا، كحكمة وتشقّ لها طريقًا وتنزل إلى أعماقنا، طبقة بعد طبقة، لتستحوذ بالكامل على قلبنا بنعمة الإله. بعد أن تمحو هذه الجملة المبارِكة أيّ شيء، كلّ حُكم أو حتّى كلّ فكرة تفسد العلاقة مع الأشياء، تصبح بالتحديد سلوكًا أساسيًّا في الحياة: طريقة نكون بها إزاء العالم، نمط حياة، ذاك الذي عرضه الإله على الإنسان منذ البدء.

يبلغ الإنسان ذو القلب المنفتح، في كلّ لحظة، قلب كلّ الأشياء حيث يتلخّص كلّ الكون. لا تعود عنده ازدواجيّة، إذ يصير الخارج داخلاً، وعندما تُولِّد مباركته عمق الرؤية، يحصل اختراق متأمِّل نحو **النور** الأصليّ لما هو، هنا والآن، توهّج طبقات الكيان الداخليّة (تيّارد دوشاردان[٩٣]). في هذا العمق، تحت غطاء الاعتياديّة وحتّى الظلمات، يتشارك الإنسان سرّيًّا بالنور، إشعاع الجمال. يأتي الجمال دومًا من أعماق الأشياء والكائنات، لا من

[٩٣] كاهن يسوعيّ فرنسيّ (١٨٨١-١٩٥٥)، كان عالمًا باللاهوت والفلسفة والجيولوجيا.

أسطحها. ما من شيء جميل خارجيًّا أو موضوعيًّا؛ عندما نقول «هذا جميل!»، نختبر **الحضور** الإلهيّ المشعّ عبر الشيء. الكلّ مسكون بعلّيقة مشتعلة، هذا ما يسمّيه الآباء لهيب الأشياء أو اللامعقول، حسب تعبير الخبراء في مجال ما هو مقدّس (رودولف أوتو وكارل غوستاف يونغ[٩٤]).

نصبح عندئذ مخطوفين لأنّ الجمال، بعكس الأمور السامية الأخرى كالصحّ أو الجيد، يصل مباشرة إلى القلب من دون المرور بالفكر. إنّه حضور الشكينة[٩٥]، مجد الإله، مولِّد الخليقة بأجمعها، الذي يقرع باب كلّ شيء نلمسه، لكي نحوّل حياتنا إلى حياة في الإله، وإلى شركة غير منقطعة معه. ما من سعادة ممكنة من دون هذا العمل الدؤوب؛ إذ يصير محيطنا ماديًّا، وتصبح الأشياء بدون شفافيّة ونجعل من العالم مقبرة، وتصبح ارتباطاتنا جوفاء موصلة إيّانا إلى الوحدة والتناقض فقط.

الاتّحاد بغناء العالم

أيّ كنز عظيم نحرم أنفسنا منه عندئذ! علينا أن نكتشف من جديد قدرة التقليد الكتابيّ وأن نغوص إلى عمق رؤيته. لا يمكن أن نكتسب شفافيّة الرؤية الإيمانيّة هذه إلاّ إذا كنّا متآلفين بالكامل مع النصوص الكتابيّة كما كان يفعل **آباؤنا**. كان قلب اليهوديّ الورع يُختطف بإعجاب عظيم عندما كان يتأمّل معجزات الإله التي تملأ تاريخ إسرائيل وكلّ الخليقة. فكان

---

[٩٤] عالم نفس سويسريّ (١٨٧٥-١٩٦١).

[٩٥] اسم عنصر أنثويّ يُطلق على الحضور الإلهيّ، يربط بين العالم الإلهيّ والعالم الأرضيّ في الشجرة الكونيّة في تيّار الكابال، وهو تيّار صوفيّ فلسفيّ يهوديّ.

الفرح يتدفّق من كيانه العميق: رؤية أنّ الإله هو الإله وأنّ بهاءه ملموس بسهولة بانتباهه المُحبّ صارا السبب الحقيقيّ لحياته والقيمة الأسمى في هذا العالم:

فرّحتني يا ربّ بصنائعك،
بأعمال يديك ابتهج.
ما أعظم أعمالك يا ربّ!
وأعمق جدًّا أفكارك!

الرجل البليد لا يعرف، والجاهل لا يفهم هذا (مزمور ٩٢، ٤-٦).

تسكن الرغبة في روية مجد الإله إنسان الكتاب المقدّس، وهو يعرف أنّ ما يشبع حنينه يكمن فيها: «من الذي يشبع من النظر إلى مجده؟. نحن نكثر الكلام ولا نستقصي وغاية ما يقال إنّه هو الكلّ، ماذا نستطيع من تمجيده وهو العظيم فوق جميع مصنوعاته. باركوا الربّ وارفعوه ما قدرتم. بالغوا في رفعه قدر طاقتكم لا تكلّوا»، (يشوع ابن سيراخ ٤٢، ٢٦ و٤٣، ٢٩-٣٤).

كان آباء القرون الأولى يعيشون عفويًّا بهذا النمط. كانوا يقولون إنّه يجب الاتّحاد بكلّ شيء حتّى نطلق تسبيح الطبيعة التي تبدوخرساء. فبالحقيقة، الكلّ يصلّي، الكلّ يرتّل مجد الإله، حتّى الأحجار يمكن أن تبارك (لوقا ١٩، ٤٠)، لتترنّم حينئذ كلّ أشجار الوعر (مزمور ٩٦، ١٢)، كواكب السماء، جميع الأمطار والأنداء، الرياح والنار، البرد والحرّ، الصقيع والثلج، الليل والنهار، النور والظلمة، الجبال والتلال، البحار والأنهار، الحيتان وجميع

مـا يتحـرّك في الميـاه وطيـور السـماء، الوحـوش والبهائـم، تبـارك الـربّ، تسـبّحه وترفعـه إلى الدهـور! (دانيـال ٣، ٥٢-٩٠)[٩٦]. أوضـح القدّيـس ذيونيسـيوس الأريوباغـيّ (القـرن السـادس) ببراعـة كيـف أنّ حـبّ الإلـه اللامحـدود وحنانـه الفائـق الوصـف يتغلغـلان في كلّ الأشـياء، يضيئـان الـكلّ ويصقلانـه ويعطيانـه حيـاةً. وأنّ محبّـة الإلـه التـي تعـبّر عـن ذاتهـا في المخلـوق هـي في كلّ شيء إيقاعـه وامتـداده وسـببه وغايتـه... ولكونهـا ألوهـة مشـيِّدة، فهـي تجمّـع كلّ مـا هـو مشـتّت، بحيـث يسـعى الـكلّ نحوهـا كأنّهـا مبـدؤه ومركـز تماسـكه، وتمـام إنجـازه، ومنهـا يسـتمدّ الـكلّ بنيتـه ووجـوده...[٩٧].

إذا كانـت هكـذا حقيقـة الأشـياء، فهـذه الأشـياء لا تنتظـر إلاّ نظـرة نقيّـة لمعاينـة المعجـزة التـي تقـدّم ذاتهـا لحواسّـنا في كلّ مـكان. علينـا إذًا أن نحـسّ كلّ شيء في الإلـه (القدّيـس إسـحق السـوريّ، القـرن السـادس): المعرفـة هـي أن نولـد بداخـل الأشـياء، وأن نضبـط إيقاعنـا عـلى إيقاعهـا الحقيقـيّ مشـتركين «بالليتورجيـا الكونيّـة» السـاكنة فيهـا. بالنسـبة إلى مـن يدخـل في شركـة مـع جوهـر الخليقـة الإفخارسـتيّ، تتحقّـق كلّ رغبـة في مـا وراء مـا ينتظـره الإنسـان: الاتّصـال بالطبيعـة الإلهيّـة، المشـاركة في أبديّـة الإلـه، مشـابهته بتألّهنـا الشـخصيّ (القدّيـس مكسـيموس المعـترف، القـرن السـابع). مـن يسـبّح ويبـارك ويشـكر، يقـترن بترنيـم العـالم، فيبلـغ بذلـك الـذرى الأبديّـة ويشـارك في فـرح الإلـه (القدّيـس إيرينـاوس، القـرن الثـاني)، ولكنّـه يتّحـد أيضًـا بترنيـم السـماء، لأنّ

[٩٦] يستحسن قراءة نشيد دانيال بالكامل (٣، ٥١-٩٠).

[٩٧] Les noms divins، «الأسماء الإلهية»، ٤، منشورات Le Cerf.

تسبيحه يلاقي تسبيح جوقات الملائكة المرنّمة بلا توقّف أناشيد الظفر سرّيًّا بشعور عميق التبجيل لمجد الإله المثلّث التقديس (القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، القرن الرابع).

لذا عبّر القدّيس بولس بجملة واحدة عن نمط الحياة هذا الذي هو نمط حياة الإنجيل عينه: فإذا كنتم تأكلون أو تفعلون شيئًا، فافعلوا كلّ شيء لمجد الله (١كورنثوس ١٠، ٣١). منع القدّيس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) في **قانونه** الموجّه إلى الرهبان من أن يتداخل أيّ عمل فيه تذمّر مع عمل الآخرين! أمّا القدّيس فنذيكيتوس، كبير رهبان الغرب (القرن الخامس)، فكان يحثّ على الابتعاد عن كلّ ربح فاحش في المعاملات النقديّة، ليتمجّد الإله في كلّ شيء، وكان يطلب أن يُنظر إلى كلّ الأدوات في الدير كما لوكانت الأواني المقدّسة على المذبح، فالعمل يعتبر ليتورجية وتضحية مستحبّة للإله، كما قال ثيوذوروس الستوديتيّ[٩٨].

سرّ الحياة العظيم

إذًا يجب أن تمسي كلّ حياتنا ليتورجيّة، وأن تتغيّر بذلك علاقتنا بعالم الأشياء كلّيًّا: يصير كلّ فعل احتفالاً **بالحضور**. **بالفعل** خُلق الكون، كلّ شيء فيه وبه (كولوسي ١، ١٥-٢٠) وهو المالئ كلّ الأشياء (أفسس ٤، ١٠). حتّى قبل مجيئه المنظور إلى العالم، كان دعامةً غير منظورة لكلّ الأشياء المخلوقة وموجودًا في عمق الخليقة، وعندما يأتي بحال منظورة يكون في محيطه،

[٩٨] Placide Deseille، La Gloire de Dieu، «مجد الله»، منشورات دير القدّيس أنطونيوس الكبير، صفحة ٧٩.

ليجمع كلّ الأشياء في نفسه (القدّيس إيريناوس، القرن الثاني)[٩٩].

ولكن هناك ما هو أعظم بكثير من هذا الأمر، الذي هو بالحقيقة مذهل. في الواقع، نما منذ البدء في الأوساط اليهوديّة-المسيحيّة موضوع، استخدمه القدّيس إيريناوس نفسه والقدّيس هيبوليتوس الروميّ (القرن الثالث) والعديد غيرهم، يؤكّد أنّ محبّة الإله، التي هي أساس كلّ شيء، تصل إلى ذروتها في صليب المسيح. لم يبذل المسيح حياته للإنسان فقط، بل رسم صليبه على كلّ شيء. يقول أحد أجمل النصوص الذي وضعه كاتب مجهول من القرن الثالث:

هذه **الشجرة** هي الدعامة الصلبة للكون، الرابط بين كلّ الأشياء، حاملة كلّ المسكونة، تشابك الكون، تحتوي في ذاتها كلّ ألوان الطبيعة الإنسانيّة؛ تلامس السماء بقمّة رأسها، وتثبّت الأرض بجذعها، في الفضاء الكائن بينهما تعانق كلّ الهواء بأيديها التي لا نهاية لها. **المصلوب** موجود بكلّيّته في كلّ مكان وفي كلّ شيء، معطيًا الكلّ حياةً وقوّةً من جديد. ونفذ هذا الامتداد الإلهيّ وعذاب الصلب المميت إلى كلّ الأشياء[١٠٠].

رأى تيّارد دوشاردان، في صلب المسيح الخلاصيّ هذا، التوقّد الكونيّ لكلّ الأشياء وتوهّج المادّة السرّيّ، وهذا ما سمح له بأن يقيم قدّاسه الاحتفاليّ الشهير الذي سمّاه «قدّاس على العالم[١٠١]». يتعلّق الأمر إذًا بفصح المسيح: ليس للصليب معنى

---

[٩٩] Contre les hérésies، «ضد الهرطقات»، منشورات Le Cerf.

[١٠٠] عظة فصحيّة ذكرها اللاهوتيّ الفرنسيّ هنري دولوباك في كتابه Catholicisme، الكاثوليكيّة، منشورات Le Cerf، صفحة ٤٠٨.

[١٠١] كتيّب من منشورات Seuil.

إلاّ بكونه ممرًّا نحو **الحياة**، حياة المسيح القائم، **المركز** المذهل الذي تترابط فيه النُسج التي لا عدد لها للكون المتنوّع، والتي لا يتوقّف المسيح عن نقلها من عدم الكون إلى الكون والتي يخلقها ويعيد خلقها، محرّرًا إيّاها من **السقوط**. هنا يكمن المعنى الأخير للجمال. إشعاع شيء ما ليس تغيّرًا طفيفًا في هيئة سطحه الذي يلامسنا، بل هو تباين في عمقه الذي يكشف لنا سرّ الخليقة المخبّأ.

وحدها الصلاة مع النسك المطهِّر تسمح لنا بالقيام بهذا الغوص. نتوقّف عندئذ رويدًا رويدًا عن أن نتعامل مع الأشياء بمظهرها المخادع ونلاقي **النبع** المؤسّس لها كلّها. إنّها يقظة، وعي جديد يولد عندما تفسح الأنا المجال له، وعندما تتوقّف عن التدخّل لتقويم الشيء الذي نلاقيه. عندما نستسلم لوعي الجمال، من دون تدخّل عقليّ، تنشأ فينا حالة من الإعجاب والدهشة، إحساس بالأبديّة والكمال، اختبار حالة نكون فيها واحدًا مع كلّ ما هو موجود. يتفجّر من هناك عفويًّا شكر عميق. ولكن على العكس أيضًا، عندما نتعامل مع كلّ شيء بشكر، يصمت الأنا ويتلاشى في الآخِر، تلتغي المسافة عندما نتوقّف عن الحكم: يتشارك **كيان** الأشياء مع **الكيان** الذي بداخلنا. هنا ومن هنا، **فيه وبه**، نستمدّ كلّ شيء ونتحكّم في كلّ شيء. في هذا المكان، تتركّز أصغر رغباتنا وتمسي قادرة على أن تهزّ لحظيًّا كلّ أعماق الكون. في هذا الوسط الإلهيّ، نصير في أعمق حالات النفس وأكثر حالات المادّة تماسكًا. هنا نكتشف تلاحم كلّ الجماليّات. وفي الوقت عينه ملء كلّ قوانا الفعّالة

والمتعبّدة[١٠٢]. انصهار المُعجب بالمُعجب به ليس لغطًا، بل على العكس تجربة حواريّة عميقة في إطار علاقة «**أنا-أنت**». الإله، بكلّ ما فيه من حياة وكلّ ما فيه من تجسّد، ليس بعيدًا عنّا، إنّه ينتظرنا دومًا في ما نفعله وما ننجزه في كلّ لحظة. إنّه، بطريقة ما، في طرف ريشة كتابتي، معولي، ريشة رسمي، إبرتي، قلبي وفكري[١٠٣].

وهكذا لا يعود المكان والزمان وأيضًا المادّة التي تبدو كفريسة لهما، تفصلنا عن الإله، وليس هذا فقط، بل تصبح هيكل حضوره وتجعل حياتنا احتفال اللقاء. هذا الوعي، الممارس بالنسك والمستنير بالإفخارستيّة، يتقوّى بلا توقّف بتبادله مع وعي المسيح الكونيّ ويشترك بذلك في تحوّل العالم. هنا يكمن «**عمل**» الإنسان الوحيد، ولادة الخليقة الجديدة من الإله. يظهر العالم عندئذ ككنيسة مذبحها قلب الإنسان الروحانيّ[١٠٤]. خبز هذا الاحتفال الكونيّ، الذي كاهنه الإنسان، هو المادّة، هذا الشيء التافه، الذي يسقط في كلّ لحظة يُطلب فيها حلول الروح القدس لمباركته المستمرّة وينفتح بذلك على **وجهه** الحقيقيّ. جمع القدّيس بطرس دعوة الإنسان كلّها في سرّ الحياة العظيم هذا، والتي مضمونها التسبيح ومباركة كلّ الأشياء لتعجيل القيامة الكونيّة التي بدأت تعمل سرّيًّا منذ **الصليب** الممجَّد: «كونوا جميعًا مباركين عالمين أنّكم لها دعيتم»

---

[١٠٢] تيّارد دوشاردان، Hymne de l'Univers، «لحن الكون»، منشورات Seuil، صفحة ٢٢٤.

[١٠٣] المرجع السابق، صفحة ١٣٥.

[١٠٤] أوليفييه كليمان، Questions sur l'homme، «أسئلة عن الإنسان»، منشورات Sigier، صفحة ١٦١.

(١بطـرس ٣، ٨-٩). قلـب ذاك المعلّـق عـلى الصليـب منفتـح كـرواق نحـو الحـبّ الجنـونيّ[١٠٥] **ليُصعـد** البشريّـة بأجمعهـا وحتّـى المـادّة ذاتهـا إلى وجهـه الممجَّـد.

[١٠٥] أوليفييه كليمان، Le visage intérieur، «الوجه الداخليّ»، منشورات Stock، صفحة ٤٠.

النفاذ نحو الماوراء

أكثر ما أحبّ في الحياة،
هوكلّ شيء أبديّ فيها.
ستان روجييه.

إذا كانت الحقيقة هي كما وصفناها حتّى الآن، فهذا يعني أنّ جوهر الحياة يفلت منّا، أي أنّنا بالحقيقة لا نحيا. مجمل **الطريق** هو أنّ نتعلّم النفاذ نحو **الماوراء** الكامن في صميم الأشياء، وألاّ نحيا إلاّ عبر هذا **العمق** المالئ الكلّ. يجب أن نتعلّم كيف نصغي لنعلم كيف لامسنا هذا البعد الآخر من الحياة وكيف كان ذلك، وأن نتعلّم كيف ننفتح إليه دومًا أكثر وكيف نسمع دعوته إلى التحوّل.

لا يحدث شيء في هذا المجال من دون تكريس. لم يبزغ في تاريخ البشريّة أيّ قدّيس ولا أيّة تحفة من كائن متردّد، أو من إرادة منقسمة أو من شخص لم يوظّف إلاّ قسمًا ضئيلاً من طاقته! هنا يلزم تكريس كامل، وتصميم يجمّع كلّ طاقات الإنسان في اتّجاه واحد. جملة المسيح «اذهب وبع أملاكك وتعال اتبعني» (متّى ١٩، ٢١)، تفترض أن نحلّ كلّ شيء يكبّلنا وأن ينشدّ القلب نحو هدفه كما لوكان هذا الهدف رغبته الوحيدة: «اطلبوا أوّلاً ملكوت السماوات» (متّى ٦، ٣٣). يرتبط تطوّر التجربة الروحيّة وسرعتها، من جهة الإنسان، بشدّة تغيير اتّجاهه وبقوّة تحويل

النفس إلى الداخل. ويمكن أن تقاس هذه الشدّة بمدى الجذب نحو الداخل، وبالمثابرة والثبات في الطاقة الموظّفة: «غيرة بيتك أكلتني» (يوحنّا ٢، ١٧).

رويدًا رويدًا يتولّد وعي كلّ ليس توسّعًا في الإدراك، بل حالة أخرى، نظرة عبر لامحدوديّة **الروح**. نتوقّف عندئذ عن الحكم على الأشياء حسب محدوديّتها وحسب ظاهرها، لأنّنا نضع الكلّ تحت نداء **الكائن الأصليّ** ونجد الألوهة فيه. لا يعود هناك حياة روحيّة من جهة ولا حياة مادّيّة أو غير دينيّة من جهة أخرى. فهذه الأخيرة هي مركبة الأولى، وقناتها، وتعبيرها ذاته. يمكن أن نحسّ بالوجود الإلهيّ و**بالفرح** الإلهيّ في المادّة ووراء كلّ أشكال الحياة. كلّ حركة تُظهر اللعبة الكونيّة، وروعة أن نكون، وترتبط بباقي الحركات لتشكّل **تناغمًا** يفوق الإدراك، يتجاوز كلّ التناقضات المرئيّة. كلّ ما في الحياة يتحوّل إلى **الفرح** الوحيد، ونكتسب في هذا التحوّل عشق هذه **الغبطة** العظيمة التي يدعى إليها كلّ إنسان.

التنقية - التركيز - التطابق

ولكن عمليًّا يجب ألاّ نبتعد أبدًا عن المبادئ الثلاثة الأساسيّة **للطريق**، والتي ذكرت كثيرًا في ما سابق، وهي التنقية، والتركيز و**التطابق**.

الأوّل، لأنّه ما من فرح كامل (يوحنّا ١٧، ١٣) طالما أنّ كياننا منقسم. ومن هنا يأتي الشرط: أبعِد كلّ ما يعاكس الرؤية، أزل كلّ فوضى أو تعلّق، تحرّر من الأهواء التي تتلخّص كلّها في

البحث عن المتعة من أجل المتعة، التي هي مصدر كلّ تعاسة وتفكّك.

يمكن للتركيز عندئذ أن يوجّه الطاقة التي تمّ تحريرها ويوصلها إلى أقصى درجاتها. التقدّم في **الطريق** يتناسب دومًا، من جهة الإنسان، مع شدّة التركيز. لا توجد أيّ نتيجة واضحة من دون السيطرة على الأفكار المتعدّدة. ومع ذلك، يجب أن نكرّر أنّ التركيز الإراديّ المتوتّر يوصلنا إلى عكس ما نصبو إليه. الأمر هو انتباه منفتح بالكامل، وعي بلا هدف وبلا تدخّل للأنا لكي تحكم أو تتفاعل بأيّ شكل من الأشكال. إنّه حضور في **الحضور**. عرش هذا الحضور هو في قلب الإنسان، هنا يكمن الانتباه واليقظة، إنّه بالحقيقة «إنصات» كلّ الكيان لهذا المكان الذي يتجمّع فيه الكلّ ويتركّز؛ إنّه موجود في منطقة القلب، ومتموضع فيزيائيًّا على مستوى القص[١٠٦]، إنّه مكان القلب الروحيّ. نذهب إلى هناك، بالإحساس وأفضل أداة هي إحساس الفرح. كلّ ما هو معاكس: الإحساس بالقلق، بالحقد، بالبغض، بالتشاؤم أو بالعدائيّة يدخل خطأ في هذه الحركة محيطًا القلب بالظلمات. أمّا الشعور بالفرح فعلى العكس يفتح القلب، يوسّعه ويملأه بالنور.

فقط بهذا الغوص غير المنقطع نحو الأعماق ينفتح قلب الإنسان، **بالحضور** الساكن فيه، إلى **قلب** الكون ويتطابق رويدًا رويدًا معه. التطابق هو المبدأ الأساس الثالث **للطريق**. من يتأجّج يومًا قلبه بنعمة هذه التبادليّة سيرى أنّ هذه النعمة

[١٠٦] العظمة التي تتوسّط القسم الأماميّ من القفص الصدريّ.

ذاتها تفيض في كلّ أفكاره وكلّ أطرافه، لأنّ القلب يسيّر كلّ الأعضاء، كما قال القدّيس مكسيموس المعترف (القرن السابع). في القلب يزول التضادّ بين الجسد والروح، كما أكّد القدّيس نكتاريوس (القرن الرابع)، لأنّه النقطة التي تتقارب فيها كلّ قوى الإنسان الروحيّة والنفسيّة والجسميّة. أيضًا بالقلب، وبالقلب وحده، يدخل في شركة مع كلّ ما هو موجود. أن نسكن في القلب يعني أن نسكن في قلب العالم. تملأ **حياة** القلب هذه كلّ الجسم بطاقة حارّة، وتضع، بالجسم، الإنسان في علاقة استمرار مع الطاقة الكونيّة، لأنّ الكون هو جسمه في حالة التمدّد. المهمّ هو أن نمارس هذا الوعي، أن نحسّ فعليًّا بحرارة هذا **الحضور** في قلبنا، أن نحسّ كلّ شيء في الإله (القدّيس إسحق السوريّ، القرن السادس). إنّ أكثر تجارب الحياة اليوميّة بساطةً وتواضعًا، وأكثرها مادّيّةً وواقعيّةً، تدخل في المعرفة الحقيقيّة، وتاليًا في تغيير الوعي.

هذه المبادئ الثلاثة متلاحمة. فالقلب الذي لم يتنقَّ يكون فريسة الأهواء، ما من طريق ممكن من دون خطوة التجرّد الأولى هذه. التخلّص من الرغبات المتعدّدة هو الذي يسمح إذًا بالتركيز المطلق والشامل: «أحبب الربّ ألهك من **كلّ** قلبك ومن **كلّ** نفسك ومن **كلّ** قوّتك» (تثنية ٦، ٥). التركيز واضح على كلّيّة كياننا غير المنقسمة. الالتزام الهاوي أو المتراخي لا يوصل إلى شيء. فقط هذا التركيز هو الذي يخترق في النهاية الحاجز، الذي وضعه العقل بيننا وبين الحقيقة، ليدخلنا في التطابق، الشركة مع **الكائن الحقيقيّ**.

معجزة الوجود البشريّ

الديناميكيّة الداخليّة في هذه المبادئ، أي «محرّكها»، هي المحبّة. مأساة هذه الكلمة هي أنّها فُهمت على أنّها إحساس وعاطفة، وأصبحت ترتبط في الوقت الحاضر بكلّ الإباحيّات رغم أنّها تعني **الحياة** عينها، ظهور الإله وذروة كلّ كائن. بالحبّ فقط يمكن أن نحيا ونفعل ونتحرّك. وحده الحبّ الذي ينقّي ويوحّد ويُشارك، وفي آخر هذه الأمور الثلاثة، يعبّر تحوّل الوعي عن سعادة قصوى. المحبّة هي مفتاح كلّ فرح وسرّه. يحوي كلّ منهما الآخر بدون انفصام، لأنّه من وجهة النظر الأونتولوجيّة، حيث يكون الفرح أكبر تكون الحقيقة كبرى، كما يقول بول كلوديل.

أعلى درجات شدّة المحبّة هو الاتّحاد الكامل، حتّى الامتلاك المتبادل الذي ينفتح فيه إلى كلّ الكون. إنّه حبّ عاد لا يعاديه أي شيء أو حتّى يزعجه: إنّه كالشمس التي تشعّ على كلّ المارّة بالتساوي، أكانوا جيّدين أم سيّئين. إنّه يرى **الجمال** الموجود في كلّ مكان و**الفرح** المتغلغل في كلّ الكون، في كلّ شيء. يمكن أن نشبّه هذا **الفرح** بمحيط سرّيّ من الغبطة، لا يمكن التنفّس أو العيش من دونه، ولا حتّى للحظة. قدرتنا على اختبار هذا **الفرح** الكونيّ تأتي لكونه عمق قلبنا الخاصّ.

لذا، فعندما ننظر إلى العالم راغبين في هذا **الفرح** الموجود خلف كلّ شيء، فإنّه غالبًا ما يسقط الغطاء فجأة ويبزغ لحواسّنا الداخليّة **حضور** ملازم، مغلِّف، ومخترق كلّ شيء. هذه هي الإشارة عينها إلى تحوّل وعينا العميق. إنّه يقدر الآن على أن يقرأ

الحقيقة الحقيقيّة التي ما الأسطح الظاهرة والأشكال والألوان سوى مسكن لها. يقول سكوت إريجين (القرن التاسع)[١٠٧]، مكرّرًا بالحرف ما قاله القدّيس مكسيموس المعترف: المخلوق المرئيّ هو رداء **كلمة** الإله. تنجذب النظرة المحبّة دومًا نحو كلّ الأشياء التي يختبئ خلفها فرح اللقاء **بالمحبوب**. لا داعي بعد لأن نهرب من العالم ومن الأشياء، بل بالعكس، يجب في كلّ لحظة أن نمضي إلى داخلها، فهي الوعاء المقدّس الحاوي **الحضور** الأزليّ. وهكذا المحبّة والفرح يترافقان بداخلنا، حتّى تترسخ، بالتدريب والنعمة، عادة غير منقطعة، وعي وغبطة يعطيان الحياة منحًى جديدًا كلّيًّا. الحياة كشركة، هذا هو فرحنا الذي يجب أن يكون دائمًا.

حتّى الآن، لا تزال كلّ أفكارنا وأفعالنا واندفاعاتنا وأحاسيسنا تقتصر على وظيفتها الخارجيّة أي كوسيلة، فقاعات بأسطح مضطربة ولكنّها ستصبح يومًا تدفّقًا من **النبع** الذي في أعماقنا، وسيكون التطابق كما لو أنّ الربّ هو الذي يحيا عبر كلّ ظهور لكياننا. كلّ ما فينا سيبدو كما لو أنّه مركبة **لحضوره** ومجيئه المتجدّد دائمًا.

عبر هذا النبع الداخليّ، يتوحّد الإنسان ويرى في كلّ مكان **الحقيقة** ذاتها بالتحديد. حتّى الأحداث تصبح رسلاً من الإله وطرقًا يشقّها ليصل إلينا. ما من أمر يخرج عن ذلك، حتّى العذاب بذاته يمكن أن يكون محاطًا بهالة من **نوره**، وأن يتحوّل إلى فرح بالشركة معه. هذه الشركة هي مكان الكيمياء، هي

[١٠٧] فيلسوف ولاهوتيّ إيرلنديّ.

معجزة الوجود البشريّ الحقيقيّة، هي الرواق الذي ندخل به الغبطة الكونيّة.

الجسد كطريق الشفافيّة

ولكن كيف ندخل هناك؟ بتغيير أنفسنا جذريًّا. هذه النظرة الجديدة إلى الذات والحياة مستحيلة المنال بالنسبة إلى الإنسان العتيق. لا يمكن لتحسين بسيط في هذا الإنسان أن يوصله إليها، أكان ذلك بإعطائه طاقة إضافيّة، أو من طريق «التنمية البشريّة»، أو «توسيع الوعي». لا يتمّ الأمر بتغيّر العتيق ضمن الشروط ذاتها بل أن يموت ويولد بتجدّد كامل. نحن لسنا هنا في مجال الكمّ حيث نضيف إلى أنفسنا خبرة، بل نحن في مجال الكون. الأمر قفزة نوعيّة، تغيّر بزاوية ١٨٠ درجة، تحوّل في علاقتنا بذاتنا وبالعالم. الهدف هو الشفافيّة. يجب أن يصير الإنسان شفّافًا لدرجة أن يعي حضور **الكائن** فيه بشكل كلّيّ، وأن يختبر ذلك بشكل حسّيّ ويكون مسؤولاً عن أن يكون الشاهد له في العالم.

لا يمكن لوعي جديد أن يولد إلاّ إذا كان الإنسان مخطوفًا فعليًّا إلى مركز «**الأنا**» خاصّته بواسطة «**الأنت**» الإلهيّة التي هي نبعها. في عمق كياننا هذا، الاثنان واحد، بدون ازدواجيّة وبدون اختلاط. من المستحيل التعبير عن ذلك، ولكنّ التجربة تحدث شرارة التغيّر الجذريّ التي تفتح الطريق إلى الوعي الإلهيّ والكونيّ. ولكن إذا صار الإنسان إنسانًا آخر، فسيرى بشكل مختلف ما هو مختلف. إنّها قفزة تخرج من الحياة القديمة إلى

حقيقة مختلفة كلّيًّا.

إذا كان الأمر كذلك، فالسلوك الأساس الذي يفتح باب هذا التجدّد المطلق، هو بلا شكّ الإصغاء. إنّه يعاكس السلوك الاعتياديّ، سلوك الوعي الذي يضع الثوابت ويعارض، الذي يحلّل العالم ويبنيه، والذي يبقي إذًا كلّ شيء بعيدًا. يشبه هذا السلوك الأخير السهم، أمّا الأوّل فيشبه بالأحرى الوعاء. مركز الوعي _ السهم في الرأس، أمّا الوعي- الوعاء فمركزه في القلب، ولكن لكونه الجسم الأكثر داخليّة في كلّ الجسم. فالإنسان يستقبل **الكائن** بكلّ كيانه.

رغم ذلك، إذا كان الجسم طريق تغيّر دائم فهو يتوقّف عن أن يكون شيئًا ماديًّا نجسّده نحن بأنفسنا، أي سجنًا صغيرًا تجريديًّا وعقلانيًّا. لن نحصل على شيء من دون استرخاء عميق للجسم، ومن دون نضج مستمرّ للتركيز في الحوض وتنفّس يعمّق باستمرار حالة اليقظة الحرجة، الإفلات والاستسلام. هل نسينا ملاحظة المسيح الشهيرة بخصوص جسم الإنسان: «لم تكن له تربة كثيرة...، لم يكن له عمق في الأرض» (متّى ١٣، ٥-٦) ؟ والأمر الذي أعطانا إيّاه الرسول بولس: «كونوا متأصّلين ومتأسّسين» (أفسس ٣، ١٧)؟ نعلم جيّدًا أنّه في اللغات الساميّة وبالأخص في **تقليد التجسّد**، كلّ كلمة يجب أن تتجسّد وتأخذ بعدًا ماديًّا حقيقيًّا[١٠٨]. كيف يمكن للإنسان أن يشترك في جذر الكائنات والأشياء إن لم يكن له هو بنفسه أيّ جذر أو عمق في الأرض؟

---

[١٠٨] في ما يتعلّق بالدور الخاصّ للجسم على الطريق الروحيّ، انظر -l'Au-delà au fond de nous-mêmes Initiation à la méditation، «الماوراء الموجود في أعماقنا، تهيئة للتأمّل»، A. et R. Goettmann، منشورات Albin Michel.

يتحرّر الإنسان المسترخي والمتمركز رويدًا رويدًا من عبوديّة الأنا الصغيرة ومن قبضتها. فقط بهذا «التأصّل» وهذا التمركز يصبح الجسم جسرًا نحو **الماوراء**. عندما يرسو الجسم في هذا العمق الداخليّ، لا يعود بحاجة إلى أن يكون «متمركزًا على ذاته»، وأن يعيش بذلك في عالم منغلق على نفسه، مملوءًا بأمور لا روح لها. أن نتلقّى أنفسنا من **الكائن** كما يتلقّى الغدير نفسه من النبع، فهذه شفافيّة تدرّجيّة تحرّر الإنسان من كلّ تعلّق دنيويّ وكلّ التصاق خارجيّ. تصير عنده المسافة الضروريّة إزاء أيّ أمر، وذلك يعني تجميعًا للكيان، وهذا التجميع هو تمرين الحياة اليوميّة الأساس لملاقاة الفرح في جذر كلّ لحظة باستمرار والتشارك فيه.

الإحساس بكلّ شيء في الإله

يمارس الجسم إذًا طريق شفافيّته عبر الحواسّ الخمس، التي هي نوافذ مفتوحة على ما هو غير منظور، حسب تعبير آبائنا المعروف. إذا كان أساس كلّ التربية الليتورجيّة هو استخدام الحواسّ، فلكي تصبح حياتنا بكلّيّتها احتفالاً بالشفافيّة وعيد ملاقاة **ذاك** الساكن في كلّ الأشياء. كلّ شيء تقدّس **بحضوره**، ولكن بالليتورجيا تتفتّح حواسّنا لإدراك ذلك. تمتلئ العيون بالنور الأيقونات ويغمرها المجد الإلهيّ، ويصبح النظر داخليًّا ومشعًّا كالشمس، قادرًا إذًا على أن يتعرّف أينما كان إلى ما هو متجانس مع هذا المجد. ويتأرجح السمع بالترتيل الذي تقدر نسماته على أن تجعل **كلمة** الإله تنفذ إلى قلب الإنسان؛ هنا،

في الصمت، يحسّ **بالصوت** في ما-وراء كلّ صوت، يحسّ **بالفعل**. الشمّ هوكالترتيل غير منفصل عن التنفّس: يقوم البخور، في عمق الحياة الروحيّة، بإعادة تنشئته؛ يصبح التنفس ذا بعد شديد السرّيّة والعمق لدرجة أن يتعرّف إلى بالمسيح في كلّ مكان عبر **عطره** المتميّز جدًّا. والذوق يفعل على مدى الليتورجيا ويصل إلى ذروته لحظة المناولة: فبتذوّق قطعة الخبز هذه، نفهم أنّ اللامحدود موجود في محدوديّة الأشياء، وأنّ كلّ الأبديّة موجودة في الثانية التي تمضي. هذا هو سبب الإشعاع الفائق الوصف المنبعث من كلّ ما يمكن أن نسمّيه، تلك الميزة العلويّة التي تظهر لنا، في ما يتعلّق بأيّ شيء، حضورَ حقيقة مختلفة، إنّها نفاذيّة **الكائن**، **البسمة الكونيّة** الآتية من قلب كلّ شيء (تيّارد دو شاردان)، التي ليس بوسعنا إلاّ أن «نتذوّقها». اللمس، أخيرًا، حاسّة شاملة، فطوال كلّ الليتورجيا، يلمسنا باستمرار المسيح المائت والقائم من الموت بكلّيّتنا، ونلمسه حتّى في أعماق تنفّسنا. إنّه يتنفّس فينا ويصبح بالمناولة **جسدَ** جسدي ودمَ دمي (القدّيس غريغوريوس بالاماس، القرن الرابع عشر).

نقترب من الإله بالحسّ أكثر بكثير من اقترابنا منه بالفكر! بالحقيقة، إذا كان الإله قد دخل إلى جسمي، فإنّ ذلك يُحَسّ. فقط الموتى لا يحسّون بشيء... (القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد، القرن الحادي عشر). هنا يكون التطابق الكلّيّ بالأسرار. فخارج الليتورجيا إذًا، يكون مضمون الحياة غير الفانية هو الإحساس بكلّ شيء في الإله (القدّيس إسحق السوريّ، القرن السادس)، لأنّ من لا يسمع، ومن لا يرى ومن لا يحسّ هو ميت روحيًّا

(القدّيس غريغوريوس السينائيّ).

أعطى القدّيس كليمنضوس الإسكندريّ منذ القرن الثاني الطريقة التطبيقيّة في الحياة اليوميّة. إنّها بسيطة ومباشرة كالتربية الليتورجيّة ذاتها: يمكن أن نستشعر الإله إذا أجبرنا أنفسنا، عبر كلّ إحساس، على أن نلاقي حقيقة كلّ كائن وعلى ألاّ نتركها قبل أن ننفذ إلى الماوراء الكائن فيها. فلا نعود نعتبر في شيء ما خواصّه الفيزيائيّة، أبعاده، سماكته، عرضه، طوله. نكتشف في ماوراء ذلك عظمة المسيح، وهنا نتقدّم بقدسيّته نحو لا محدوديّته السحيقة، حتّى نلمح **الكلّيّ القدرة**[١٠٩]. تفسح كلمة «حتّى» المجال لنلاحظ أنّ هناك درجات. الإحساس **بالحضور**، يبتدئ بالاستشعار ويصل حتّى الرؤية الواضحة وجهًا بوجه. على بعد عشرة أمتار من شعلة، أكون قد صرت في حضرتها، ولكن كلّما اقتربت أكثر منها كلّما اتّصلت بحرارتها، وفقط عندما اتّحد كلّيًّا بالنار أتطابق مع لهيبها السرّيّ.

وهكذا تهب **الحياة** الواضحة بجلاء لحواسّنا لمن يبحث عنها، لحظة بعد لحظة، كمالاً وسعادةً مطلقة. كان المعلّم إيكارت (القرن الثالث عشر) يقول أحبّ أن أعيش! الأمر الوحيد اللازم للحصول على هذه البركة هو، بالطبع، أن نريدها، وأن نبحث إذًا عنها بدأب! انطلاقًا من ذلك يمكن أن يتولّد بالتدرّج توجّه عميق إلى الكيان، ينقّي الحواسّ الخارجية الجسديّة، التي تترك رويدًا رويدًا تعلّقها الجسديّ وتصبح روحانيّة قادرة أكثر فأكثر على الاتّصال الدائم «**بالبعد** المنسيّ» للواقع المحيط بنا. الاتّصال

[١٠٩] Stromates، «المتفرّقات»، ٥، ١١، ذكرها أوليفييه كليمان في Sources، «ينابيع»، منشورات Stock، صفحة ٢٠٢.

بالإلـه مبـاشر لأنّـه بالمسـيح كلّ شيء قـد أكمـل (يوحنّـا ١٩، ٣٠): إن كان هـو جسـد جسـدي ودم دمـي[١١٠]، فتلـك حقيقـة واقعيّـة، ولكـن يجـب أن نبتعـد عـن أيّ تشـويش لـكي نحسّـها ونختبرهـا. هـذه هـي الوظيفـة الأساسـيّة للزهـد: طالمـا أنّ الإنسـان مكبّـل بالأهـواء، فهـو لا يـرى ولا يسـمع ولا يحـسّ إلاّ بحسـب شـهواته. يختـبر مـا يشـدّه. الشـفافيّة هـي بقـدر الانفصـال عـن الدنيويّـات. هـذا الفـراغ هـو القـادر عـلى أن يجـذب امتـلاء مختلفًـا. تقـول أيضًـا القدّيسـة تيريـزا مـن أفيـلا: لا مـكان للإلـه في قلـب محشـوّ. يمكـن أن يسـتحوذ علينـا **روح** هـذا العـالم أو **روح** العـالم الآخـر، يمكـن أن يسـتحوذ علينـا الشـيطان كـما يمكـن أن يسـتحوذ علينـا الإلـه. الأهـواء انغـلاق جحيمـيّ، أمّـا الحرّيّـة فانفتـاح عـلى **الفـرح** السـماويّ الـذي لا نهايـة لـه.

[١١٠] للتعمّـق في هـذا الزهـد، اقـرأ Ces passions qui nous tuent-Diagnostic et remèdes، «هـذه الأهواء التي تقتلنـا- تحليـل وعلاجات»، A. et R. Goettman، منشـورات Presses de la Renaissance.

المسيحيّة:
تقليد قائم على الدهشة والمباركة

خلقتك لأعلّمك سرّ العالم وسرّ فرحي.
ستان روجييه

عدنا لا نفهم ماهيّة الإنسان، ولا معنى حياته. لنقل بجرأة، ولو كان ذلك لا يتماشى إطلاقًا مع ما هو سائد في أيّامنا: خُلق الإنسان ليسبّح! وعدم تسبيحه هو سبب تعاسته المحيّرة وتناقض حياته. لا أحد ينكر أنّ التسبيح صعب في هذه الظروف! ولكن ربّما تكون بداءة الطريق إلى ذلك، أن يلاحظ الإنسان أمرًا مفاجئًا وهو أنّه يقوم بالتسبيح «رغم كلّ شيء»، هذا هو ما يسمّى بالإعجاب والاندهاش. يمكن للناس البعيدين عن كلّ طقس أو تقليد في عصرنا، أن يلاحظوا رغم ذلك أنّهم متلهّفون إلى ما يختلف تمامًا عن كلّ ما هو اعتياديّ، وأنّهم يبحثون عن ذلك باستمرار في المتاحف وعلى الجبال وفي البحار، في عالم الأشياء الغريبة وغير المُتوَقّعة، وأيضًا في نشوة المنافسات الرياضيّة. فمهما كان الثمن يجب ملاقاة المفاجأة التي تمنح الذهول وتختطف الإعجاب.

رفع غطاء الزمن

قليلون هم الذين يعرفون آليّة الدهشة، فالمهمّ هو أن

تحدث للاستمتاع بها. ولكنّ معرفة ما يحدث فيها قد تكون أكثر أهمّيّة، لأنّ ذلك يمكن أن يفتح أمامنا طريقًا لا يعود فيه اختبار الدهشة بمحض الصدفة بل حالة دائمة. ما يحدث حالة من الحيرة تجعل الإنسان معلّقًا وتخرجه من ذاته. وهكذا نشعر فجأة بأنّنا عدنا غير ممتَلَكين كالعادة، وبأنّ حرّيّةً غريبة تندفع مكان الأنا المتملِّكة؛ كما لو أنّنا تجاوزنا غلاظة هذا العالم لنلاقي **الحقيقة** التي تعبّر عن ذاتها عبر كلّ الحقائق. يستحوذ علينا أمر لا يمكن الاستحواذ عليه. في هذا الاستحواذ من قِبل الجمال ينقشع الغطاء معلنًا أنّ الإنسان وُلد **لفرح** غير محدود. هو إذًا دعوة إلى **حياة** أخرى، ولكنّ هذه الحياة لا يمكن أن تبزغ إلاّ إذا كانت دهشة هذا الإنسان أقوى من نواقصه القديمة، من أخطائه، غريزة النقد غير الإراديّة عنده، والأحاسيس الأخرى التي تضعه في محاكمة دائمة مع الإله.

عندما تسيطر قوّة الدهشة، تتحوّل اللحظة الحاليّة إلى فجأة غريبة من نوعها، كان قد تحدّث عنها أفلاطون. وهذه الفجأة ما هي إلاّ حلول الأزليّة في صميم الزمن. إنّها لحظة فردوسيّة تغوص بنا إلى فعل الخلق الأوّليّ، نقطة ملامسة مبدأ **الكلّ**. الإعجاب-الدهشة يزيل غطاء الزمن المتكرّر **والموت**، زمن التقوقع على العدم والخوف من الفناء ليكشف الزمن المعجزة، زمن الفرح، الذي هو المادّة الحقيقيّة للزمن. اختبار **الحاضر المطلق** هذا يثبت أنّ هناك نعمة تزيل التناقض بين الأزليّة والزمن. بها نلاقي هويّتنا الأكثر عمقًا، أي سرّ كياننا المستَمدّ من **الكائن**، وفيها يتّصل وعينا الشخصيّ **بالوعي** الأسمى.

إنّه الذهول. أصاب غوتة[111] عندما قال لإكرمان إنّ أقصى ما يمكن أن يصله الإنسان هو الذهول، لا يمكن أن ينال ما هو أعظم من ذلك. فبالذهول يهيمن الإعجاب المحيّر. إن كان الذهول مهمًّا إلى هذا الحدّ فلأنّه يطابق بين الأضداد، ويصبح أداةَ تعمّق تنقل الإنسان من النفس إلى الروح، ومن عالم النفس إلى عالم الأونتولوجيا، الذي يُحدث فيه اتّحاد الزمن بالأزليّة انبهار **اللحظة**، المكان الوحيد للقاء الإله بالإنسان.

إذًا الإعجاب- الدهشة هو بلا شكّ الحبّ في حالته المتفجّرة، تلك التي يكون فيها مولودًا. فبالمحبّة يدخل الذهول في الامتداد الزمنيّ حيث يصير انبهاره جوّ فرح عرسيّ قادر على الامتداد إلى اللانهاية. هنا يصمت العقل، وبدلاً من المفاهيم المتعلّقة بالإله والتي تمنعنا من لقائه تضعنا الدهشة في اتّصال مباشر **معه**.

براءة القدّيس والطفل

بهذا نتعرّف إلى القدّيس الذي أصبحت الدهشة عنده حالة، كما هي عند الطفل. فقد تحرّر من الأنا، وسقطت عنده الأقنعة والحواجز الثقافيّة، ثمّ انفتحت آفاق لا نهاية لها أمام نظرته المُبسِّطة. بالنسبة إليه، الكلّ مرتبط، الكلّ يعيش في تناغم عظيم، الكلّ يتجاوب مع بعضه البعض، كما لو أنّ وعيًّا واحدًا

[111] هو يوهان فولفغانغ فون غوته (١٧٤٩-١٨٣٢)، شاعر وكاتب ألمانيّ شهير من أهمّ رواياته «معاناة فيرتر الشاب» و«فوست ١» و«فوست ٢» التي نشرها صديقه إيكرمان بعد وفاته. من روّاد حركة «العاصفة والهجمة»، وهي حركة ألمانيّة أدبيّة ركّزت على العفويّة والفرديّة والابتعاد عن الشكلانيّة، وعاكست حركة «الأنوار» الفرنسيّة التي ركّزت من جهتها على العقل والفكر.

يتواصل مع نفسه عبر انعكاسات متعدّدة. لهذا نشعر دومًا بصدمة عندما نقترب من قدّيس، ولهذا أيضًا ننجذب إلى طفل صغير بالقوّة ذاتها، إذ نكتشف فيهما طريقة أخرى للوجود. دهشتهما الدائمة هي تخلّ عن الذات، وتحوّل بالنور الساكن فيهما، والتصاق تامّ به. بالنسبة إليهما، الماضي ما عاد موجودًا، والمستقبل لم يحصل بعد، فقط آنيّة اللحظة حيث الأمل والفرح لا ينضبان هي التي تحيا.

ولكن إذا كانت الدهشة تفتح باب التحرّر الداخليّ هذا، فالشياطين التي تغلقه تكون في الإدانة والاستهزاء. هنا يبقى العالم قديمًا مماثلاً لنفسه دائمًا، إنّه عالم خامد وميت؛ هناك، على العكس، نجد التجدّد في أساس الزمن الحاضر، والزخم الخلاّق الذي هو مصدر اكتشافات غير متوقّعة. هنا **الحضور والحياة**، هناك العدم والضجر. التعاسة الشيطانيّة هي ثقل على كلّ المتقوقعين على ذاتهم، فالأنا عندهم تقف دومًا حاجزًا معتمًا أمام شفافيّة فرحهم العميق. إنّهم عميان بسبب كلّ الأمور الحتميّة التي تكبّلهم، ولا يرون الألق الأزليّ للإله الذي يفيض داخل كلّ شيء. الأطفال الصغار والقدّيسون يرونه لأنّهم غير متمركزين في ذاتهم، هم لا ينظرون إلى أنفسهم، والأشياء بالنسبة إليهم ليست فقط للامتلاك أو مرآة للأنا، بل إشارات من الخالق وتاليًا فرصة للتسبيح. هنا يكمن القلب المتواضع المُحبّ لدرجة أنّه يبحث عن **الحبيب** ويجده في كلّ مكان.

وهكذا هذا الفرح الملتهب الذي يحدثه الاندهاش أو الإعجاب يقدّم عالمًا جديدًا لممارسيه. جديد، لأنّه نظرة من

دون ذاكـرة أو إسـقاطات، ومـن دون «سـبق ورأيتـه» الاعتيـاديّ. جديـد، لأنّـه يَظهـر دائمًـا مولـودًا تـراه العينـان للمـرّة الأولى: إنّـه آت مـن فعـل الإلـه الخـلاّق والإلـه لا يتكـرّر أبـدًا. ولكـنّ ذلـك يبقـى محجوبًـا عـن المتغطرسـين الذيـن يُدينـون، لأنّهـم لم يتحوّلـوا بالـروح وبقـوا معميـين في ظلـمات أنفسـهم.

هـذا يفـسّر لمـاذا كان يسـوع، المملـوء بالكامـل مـن **الـروح**، والـذي هـو **الطفـل** بجـدارة و**القدّيـس** الحقيقـيّ الوحيـد، يعيـش في حالـة اندهـاش دائـم. كان يفتـح للنـاس دومًـا آفاقًـا نحـو مـا يتجاوزهـم ويسـعى هـو لفعلـه عـبر نظـرات الإعجـاب: تأمّلـوا زنابق الحقـل وطيـور السـماء.كلّ الأمثـال قصـص فائقـة الروعـة تثبـت العمـق الكبـير لنظـرة التأمّـل هـذه! كان يسـوع غالبًـا يتأثـر حتّـى الأعـماق، فيخفـق فرحًـا أو يبتهـج بفعـل **الـروح**. انذهـل مـن إيمـان قائـد المائـة والكنعانيّـة وشـدّة إحسـان المـرأة الفقـيرة، وكان يمتلـئ بالإعجـاب بحـضرة الأطفـال، وحتّـى أمـام جثّـة صديقـه لعـازر، نـراه يشـكر لأنّهـا كانـت لحظـة التشـارك في حـبّ **أبيـه** الجنـونيّ، الـذي عنـده كلّ شيء مسـتطاع...

سيصلون إلى صهيون هاتفين

نحـن مدعـوّون إلى أن نلاقـي مـن جديـد، بـراءة القلـب هـذه ذاتهـا. تخلّصنـا الدهشـة مـن الأنـا الموجـودة فينـا وترسّـخنا في روحنـا، وتبقينـا في اتّصـال مـع **النـور البهـيّ**[١١٢] الـذي هـو أساسـها. عندئـذ، نـرى وجـه هـذا **النـور** الـذي هـو يسـوع المسـيح نفسـه،

[١١٢] لحن قديم، لا يزال مرتّلاً في صلاة الغروب عند الأرثوذكس، يبتدئ بعبارة: يا نورًا بهيًّا لقدس مجد الآب.

ونولد به تاركين دهشته تحيا فينا. إنّه تشارك في الوعي يدخلنا بالمسيح في حياة الثالوث. ما من أمر أسمى من هذا بالنسبة إلى الإنسان، فهو اختبار ولادته النهائيّة. حياته بالربّ هي حالة دهشة أبديّة، ونشوة محبّة كتلك التي يعيشها الآب والابن والروح القدس في ما بينهم. إنّها تبادليّة تامّة في إخلاء ذات تامّ للواحد من أجل الآخر.

ما أن نكتشف تعانق وعينا مع الوعي الإلهيّ، حتّى تتفجّر الدهشة. في هذه الحميميّة نتنفّس **حضوره**. في جميع الروحانيّات، يحرّك هذا اللقاء مع الإله الدهشةَ حتّى الإبداع؛ إنّه الغناء العرسيّ للخالق في صميم خليقته. عظيم إذًا أن نصل إلى هذه النتيجة غير العاديّة والتي مفادها أنّ الدهشة ليست إحساسًا عابرًا للنفس، بل **تقليد**، إنّه التقليد اليهوديّ - المسيحيّ في جوهره ذاته. التشويه الذي أصابه على مرّ قرون مأساويّة هو بلا شكّ إحدى أقوى ضربات الشيطان للمسيحيّة! هذه المسيحيّة التي لا تُفهم من دون الفرح كما كتب ألكسندر شميمان: الفرح العظيم هو المضمون الأساس للمسيحيّة، الذي منه يستمدّ كلّ شيء آخر ويكتسب في المسيحيّة معناه[113]. في كلّ مرّة فقدت فيها المسيحيّة الفرح في التاريخ، توقّف **التقليد** عن أن يكون هكذا؛ وسيطرت المؤسّسات «الحرفيّة الصارمة». ولكنّ هذه المؤسّسات تجلب الفراغ ولا تخلّص أحدًا! وحده الفرح الحرّ غير المشروط والذي بلا مقابل هو القادر على تغيير العالم[114].

---

[113] «Pour la vie du monde»، «من أجل حياة العالم»، منشورات Desclée de Brouwer، صفحة ٢٦.

[114] المرجع السابق، صفحة ٣٣، و٦٤-٦٥.

أسّس المسيح بنفسه التلاميذ على هذا **التقليد** المبنيّ على الدهشة والفرح عندما نفخ فيهم الروح القدس في اليوم الذي تلا القيامة (يوحنّا ٢٠، ٢٢). إنّه **روح** الحياة والفرح الذي أعلنه الأنبياء، والذي انتشر الآن إلى الملء لكلّ الناس.

لا يكفّ إشعياء عن هذا الموضوع في كلّ كتاباته؛ إنّه لمن الجيّد أن نقرأها ثانية وأن نجعلها تغمرنا:

«تفرح البرّيّة والأرض اليابسة ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس...، ويبتهج ابتهاجًا ويرنّم...هم يرون مجد الربّ، بهاء إلهنا... ومفديو الربّ يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنّم وفرح أبديّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهّد» (٣٥، ١-١٠).

تحقّقت الآن هذه النبوءات في ملئها بشخص يسوع المسيح نفسه، الذي تقاسم مع تلاميذه فرحه (يوحنّا ١٥، ١١). الآن صار الفرح، الذي مفتاحه غير المنفصل عنه هو الاندهاش، يجسّد أينما وُجد عطاء **روح** يسوع. حيث يوجد **الروح** يوجد الفرح، وحيث يوجد الفرح يضع **الروح** ختمه على **التقليد** ليجعله مُصَدَّقًا (غلاطية ٥، ٢٢ ورومية ١٧، ١٤).

الدهشة: استباق الحياة الأبديّة

التلاميذ الذين ولدهم يسوع عندما نفخ فيهم الروح القدس، ولدوا بدورهم **الكنيسة** بهذا **الروح نفسه**، مقيمين لها مستقبلاً جديدًا كلّيًّا. **الكنيسة** هي مَسكن **الروح**، إنّها لا تولد ولا تحيا ولا قيمة لها من دون الفرح.

منذ العنصرة، سيطرت حقيقة واحدة على ضمير الرسل الممتلئ بالبهجة والدهشة: قام يسوع المسيح من بين الأموات! ما من أمر أسمى من هذا الفرح الذي كان الرسل ينفخونه في كلّ من يلاقونه. تكفي قراءة أعمال الرسل والرسائل لنشترك مع الديناميكيّة المتفجّرة لدهشتهم التي دفعتهم إلى أن يشهدوا لهذا الفرح. إلى أقاصي الأرض، حتّى في العذاب والاستشهاد (٢كورنثوس ٧، ٤ وفيليبّي ٢، ١٧).

«مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حيّ بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات. ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا ينطق به ومجيد» (١بطرس ١، ٣-٨).

خُطِف القدّيس بطرس بهذه الدهشة لدرجة أنّه كان يعيشها كحياة أبديّة قبل أوانها، وكاستباق للمجد الإلهيّ منذ الآن. لهذا السبب نحن لا نتكلّم على **التقليد** بالنقاش، بل نشترك فيه بالعدوى كأيّ حياة. الكلام الذي يفسّر التجربة والذي يتداخل بذلك معها، أمات غالبًا اللاهوت في الغرب منذ القرن الثالث عشر. هناك الكلام المنظِّر والكلام الذي يَشهد. لا يتكلّم هذا الأخير إلاّ من ملء القلب، إنّه بزوغ **للفعل** الساكن فيه، حمم حارقة من الفرح والدهشة الآتيين من السماء الداخليّة واللذين يوقظان الآخر على **الحقيقة** ذاتها. هذا الكلام هو نار تنتشر لحظيًّا: عندما رأى يوحنّا يسوع مارًّا قال: «هذا هوحمل الله»، ثمّ تبعه التلميذان، ومن ثمّ قال أندراوس ذلك لسمعان، وفيليبّس لنثنائيل (يوحنّا ١، ٣٥-٥١).

عندما يُختطف كائن بالدهشة، يتحرّر فجأة من كلّ الشروط، يتحرّر من تملكّه لذاته كما قلنا، ولكنّه أيضًا يتحرّر من المكان والزمان، يصبح بلا حالة. ينصهر المندهش **بالكائن**، إنّه تلميذ في اتّحاد مباشر مع **المعلّم**، أكان هذا حيًّا أو ميتًا منذ زمن طويل. إنّه تبادل مطلق تختفي فيه المسافة. إنّه السرّ الحقيقيّ **في التقليد** المسيحيّ، وبدونه يمسي هذا التقليد تناقلاً ميتًا ومعرفة باليةً لماضٍ مجهول ومنصرم، لأنّه حدث منذ ألفي عام! ألا تؤكّد الإفخارستيّة ذلك بقوّة؟ على كلّ حال، هنا يكمن بالكامل جهد الرسل التربويّ. الحقيقة هي أنّه لا توجد على الإطلاق أيّ طرائق للتدريس: فالرسل يعيشون هذا الملء، وهذا الملء لا يُحسب ولا يقاس. وعندما نفقده نصير بحاجة إلى الطرائق والكتب والمؤسّسات!

الكلام الذي يشهد، والذي يعبّر للخارج عن هذه التجربة الآتية من أعماق الكائن وعن ملئه الأكثر عمقًا، هو المباركة التي تصل إلى ذروتها في الشكر غير المنقطع. في الدهشة التي هي مفتاح المعرفة، يكتشف الإنسان رويدًا رويدًا أنّ كلّ شيء نعمة، فيبارك كلّ شيء من دون استثناء! يلحّ القدّيس بولس، في رسائله، على فعل ذلك في الأوقات العاديّة والأوقات الصعبة التي تعاكسنا: «اشكروا في كلّ شيء» (١تسالونيكي ٥، ١٧-١٨). إذا كان يشكر تحديدًا في الأوقات المزعجة أيضًا، فلأنّ «المباركة» في التجارب، عندما لا يسير أيّ شيء على ما يرام، في المعاناة والموت، هي بالتأكيد لا تحصل من تلقاء ذاتها. وحدها المثابرة على «معاكسة» الأزمنة المعاكسة لنا، حتّى درجة التناقض واللاعقلانيّة

المطلقة، التي «تكشف»، بالمعنى الحرفيّ لهذه الكلمة المتضمّن إزالة الأغطية بالتدرّج الواحد بعد الآخر، النعمة الموجودة تحت كلّ شيء. هذا الإيمان الذي أعلنته **الكتب** يجعلني أبارك في المعاناة وفي الحزن؛ ولكنّ الاستمرار بلا توقّف في هذا الفعل، وجعله سلوكًا إزاء كلّ شيء وضدّه، يفتح طريقًا تصبح فيه **حقيقة** الإيمان تجربة حياتيّة. بمعنى آخر: يجب أن نغوص حتّى نصل إلى القلب، إلى عمق الحدث الحاليّ. هناك يكون «**التقليد**»، متجدّدًا دائمًا، وحاضرًا كنهر كبير مخفيّ دائم، يُخصّب كلّ شيء، ويعطي معنًى لكلّ أمر وقتيّ يحدث على سطح التاريخ.

المباركة: دَفع إلهيّ وقوّة محيية على الطريق

أداة هذا الغوص في كلّ العهد القديم هي المبارَكة التي تزهر شكرًا بشكل طبيعيّ في العهد الجديد، لأنّ ملء النعمة والحقّ، المسيح، يسكن معنا الآن (يوحنّا ١، ١٤ و١٧). المسيح هو **المبارَك** والبركة شخصيًّا، هو النعمة عينها النازلة بالتجسّد، إلى داخل كلّ شيء وكلّ حدث: المكان والزمان، التاريخ معبده. إن لم نلاقِ هذه «الحقيقة» في كلّ لحظة، فسنضلّ بالمظاهر وسطحيّة الحياة وسوف نعيش في الأوهام وفي ظلمات الجهل. قال التلمود ذلك: من يستهلك هذا العالم من دون أن يبارِك يدنّس شيئًا مقدّسًا!

المباركة حاضرة حتّى في أوّل حرف من الكتاب المقدّس. وذلك لإثبات أنّ كلّ ما سيتبع، كلّ العالم مبنيّ عليها! إحدى القصص اليهوديّة الجميلة تروي كيف أنّ الإله خلق العالم

باستخدام الأحرف العشرين من الأبجديّة، التي يملك كلّ واحد منها وظيفة خاصّة به. ولكنّ الحرف الوحيد الذي قُبل طلبه هو الحرف الأول «**بِت**» أي الباء. صلّى بِت إلى الإله قائلاً: «يا ربّ الكون، أرجوك، اخلق الكون بي، لكي يسبّحك جميع سكّانه كلّ يوم بي كما هو مكتوب: مبارك هو كلّ يوم إلى الأبد. آمين، آمين!» فقبل القدّوس الذي هو مبارَك طلب **بِت** وقال: «مبارك الآتي باسم الربّ». وخلق العالم بواسطة **بِت** كما هو مكتوب: «بيريشيت، أي في البدء، خلق الله السماوات والأرض» (تكوين ١، ١). من بين جميع الأحرف إذًا، خُلق العالم بواسطة حرف الباء، وابتدأ الكتاب المقدّس به لأنّه الحرف الأوّل من كلمة **بيراخة** العبريّة والتي تعني «بركة» أو «الإعجاب والدهشة والتسبيح». هناك أسلوب واضح لنقول إنّ العالم يستند إلى البركة: إنّها تُظهر هويّة العالم وتكشف معناه فقط لذاك الذي يعرف أن يلفظها بقلب مندهش. كلّما دخلنا في المباركة، نستنير أكثر بمعنى العالم والأشياء والأحداث[١١٥].

إذا كان الإله كوّن العالم بالقول المبارِك، فهذا يعني أنّ المباركة خلاّقة، إنّها تنقل من العدم إلى الوجود، إنّها وهب الحياة. قالت آنيك دوسوزينيل[١١٦] في تعليقها على النصّ العبريّ للإصحاحات الأولى من التكوين: المباركة دفع إلهيّ يضع «المبارَك» على طريق تحقيقه وتعطيه القدرة على بلوغ الإكليل. تضع المباركة الإلهيّة «النفوس الحيّة» على مساراها وتعطيها

[١١٥] بتصرّف من les dix-huit Bénédictions، «البركات الثماني عشرة»، منشورات طائفة التطويبات الفرنسيّة الكاثوليكيّة، الكتاب ٣، صفحة ٨.

[١١٦] كاتبة فرنسيّة معاصرة لها العديد من المؤلّفات في المجال الروحيّ.

دفعًا محييًا لنموّها. المباركة غير منفصلة عن فعل الخلق. «بارا» تعني «يخلق» و«باروك» تعني «يبارك»: تختلف هاتان الكلمتان بالحرف الأخير فقط ولهما الجذر ذاته «بار». بالبركة وُضع آدم على طريق صيرورته وأُعطي القوّة المحيية. وعليه أن يستخدم بنفسه القدرات التي أعطاه إيّاها إلوهيم[١١٧]. لهذا كان **التقليد** اليهوديّ يوصي بمباركة الإله مئة مرّة في اليوم حتّى منذ الصغر، لأنّ المباركة تذهب أبعد من أن تكون صلاة بسيطة؛ إنّها تَعَلّمُ أسلوب للعيش، يقيم به الطفل علاقته مع العالم ويكتسب الطريقة الصحيحة لكي يصبح إنسانًا في هذا العالم:

مدّت الطفلة يدها إلى طبق الفاكهة.

- جوديت، قال أبوها، هل باركت؟

- لا يا أبي.

فقامت جوديت البالغة من العمر أربع سنوات بهذا الواجب الأساس، وقالت بالعبريّة «مبارك أنت أيّها الربّ إلهنا الأزليّ، يا ملك الكون، لأنّك خلقت هذه الفاكهة وأعطيتنا إيّاها».

- الآن هذه الفاكهة لك، قال الوالد، في الأوّل كنت ستسرقينها من الإله لأنّها له.

المباركة: طريقة للعيش حسب الكتاب المقدّس

معنى جملة «مبارك أنت» هو: «أنت المصدر، كلّ شيء لك وأنت هو من يهبني إيّاه»، أو بالأصحّ: «أنت تقدّم نفسك

[١١٧] Alliance de Feu-Nouveau regard sur la Genèse، «اتّحاد ناريّ-رؤية جديدة للتكوين»، منشورات Albin Michel، صفحة ٢٩٧، ٣٩٧، ٣٩٩.

عبر كلّ ما تعطيني!». هنا يكمن المعنى عينه للاهوت الخلق المذهل الذي يُفتتح به كلّ الكتاب المقدّس. في أوّل إصحاحين من التكوين، يبارك الإله كلّ ما يصنع: يبارك العالم، يبارك الإنسان، يبارك اليوم السابع، أي الزمن، وهذا يعني أنّه يملأ كلّ ما هو موجود بمحبّته وصلاحه: «ورأى الله ذلك أنّه حسن وبارك...» (تكوين ١، ٢١). عندما طلب الإله من آدم أن يسمّي الأشياء، فعل ذلك لتكون للإنسان معها، إلى الأبد، علاقة عرفان بالمعنى المزدوج للكلمة: التعرّف إلى حضور الإله في كلّ شيء وأيضًا شكر الإله على ذلك.

منذ البدء، يدعو الإله الإنسان إلى أن يجعل من حياته احتفالاً، وأن يعيشها بالشكر والعبادة، لأنّ جوهر كلّ شيء يحوط بنا، والزمن الذي يغلّفنا والهواء الذي نستنشقه هو هبة من الإله. هذا الشكر الدائم هو **عملنا** الحقيقيّ من بين جميع الأعمال، إذ يحوّل الحياة إلى شركة مع الإله، يتلقّى الإنسانُ فيها العالمَ **منه** كما لو كان مادّة إفخارستيّة كونيّة. فالإنسان الذي أُعطي من الإله هذا العالم المبارَك، يبارِك الإله بالمقابل بهذا الشكر غير المنقطع.

أهمّ ما في المباركة هي أنّها تحوّل الحياة إلى حياة إلهيّة، بهذا الأمر يكون الإنسان كاهنًا للخليقة؛ قدرته على المباركة هي أعظم قدراته وهي التي تميّزه عن كلّ المخلوقات. يوجد في المباركة تقليد لفعل الخلق، هي إذًا إشعاعُ حبّ وحنان لا محدودين على الكائنات المتلقّية لها، ولكن أيضًا على الأشياء والأحداث التي نباركها. كلّ شيء يصبح مختلفًا عن ذي قبل حتّى

وإن كانت المظاهر الخارجيّة متشابهة: مثل الخبز والخمر على المذبح اللذين، يصيران حقًّا بالمباركة، جسد المسيح ودمه رغم أنّهما لا يتغيّران في الظاهر!

عندما خلق الإله الإنسان على صورته، دوّن في جينات خلاياه هذه البركة التي هي أساس ذاكرتنا والتي تعود بنا إلى آدم. معنى أن نبارك الحياة كما هي، هو أن نفرح بملئها إلى أعلى درجة، وأن نعود إلى الوراء بهذه الذاكرة التي تصير عندئذ وعيًا حيًّا للبركة الأوّليّة، التي وضعها الخالق إلى الأبد في أعماق سرّ كياننا ووجودنا! فجذور البركة هي في فرح الإله الخلاّق. معنى الحياة الوحيد و«برنامجها» هو أن نسمو من «الصورة إلى التشابه الإلهيّ»، أن نصبح نحن بنفسنا بركة، تمامًا كالإله الذي هو «**المبارَك**» شخصيًّا. طبع الإله في أعماق كلّ كائن هذا الاهتزاز الفَرِح؛ ينشد كلّ واحد علامته الخاصّة به ويتّصل باللحن الجماعيّ الكونيّ العظيم. هناك لحن عظيم وحيد للكون، إنّه **الفرح**، وهناك طريقة حقيقيّة وحيدة للعيش، وهي أن نتوافق مع نغمة الخلق الصحيحة هذه. وحدها هذه **النَعم** العظيمة للحياة التي تفتح الحياة **للمغامرة** التي تستحقّ العيش، وأن ننفذ إلى ما وراء الأخطار. «كونوا على صورتي» يعني «كونوا أحياء، كائنات متشاركة ومثمرة، كائنات من فرح!». هنا تكمن الشرارة الأولى **للحبّ** الخالق، الذي كان يجمّع الناس عبر كلّ تاريخ الكتاب المقدّس ليقودهم حتّى يتمّ الاتّحاد الذي صار فيه المبارَك من الإله، يسوع المسيح، الكلّ في الكلّ.

لذا كانت المبارَكة أساس كلّ مراحل **اتّحاد** الإله بالإنسان.

وعندما انقطع هذا الاتّحاد بالسقوط، جدّده الإله بمباركة نوح وأولاده (تكوين ٩، ١). وهكذا تكرّر الأمر مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وكلّ إسرائيل: يوسف وشمشون وأيّوب... كان الكهنة أيضًا يباركون باسم الربّ الآباءَ، والملوكَ والمشرّعين أيضًا. وهكذا كان نهر الفرح والمباركة التاريخيّ العظيم هذا يُنضج رويدًا رويدًا تجسّد الماسيّا. صار يسوع المسيح ساكنًا التاريخ والقصص واللحظات البسيطة، ما عاد كلّ شيء مبارَكًا من جديد كما كان في أوّل الخلق فحسب، بل هذه البركة هي **حضور** المسيح بنفسه.

من الآن فصاعدًا، أصبحت مباركة أيّ كائن أو شيء أو حدث تعني أن نلاقي في صميمه **الحيَّ** وأن نتيقّظ لهذا الوجود، أن نعقِد رباطًا بين النسبيّ و**المطلق**. الآن صارت المباركة دومًا المفتاح الذي يفتح السماء داخل كلّ شيء، أي أنّه يجعل أيّ شيء لحظيّ شفّافًا نرى فيه بعده الأزليّ. المباركة هي كشف العمق الغامض للحظة الحاضرة ولما تحمله، هي الغوص حتّى يتفجّر النبع الداخليّ الذي فيه مبدأ كلّ شيء والذي هو المكان الذي يتلقّى منه كلّ شيء ذاته.

دعوتنا العميقة

إذا كان بإمكاننا أن نقول ذلك بكلّ موضوعيّة وبالأخص أن نختبره، فلأنّ ملكوت السماء قد حلّ بالمسيح (يوحنّا ١٢، ١٣). المُدّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم (كولوسي ٢، ٣). عبّر بشخصه عن مجد الإله وعن تمجيده طوال حياته، في كلّ فعل أو قول له، حتّى في صميم العذاب والموت، **بحضوره** صار الأكثر

حزنًا بركة من الإله:

الآن تمجّد ابن الإنسان وتمجّد الله فيه،

إن كان الله قد تمجّد فيه،

فإنّ الله سيمجّده في ذاته ويمجّده سريعًا (يوحنّا ١٣، ٣١-٣٢).

نرى هنا أنّ بذل الذات حتّى التضحية الكاملة بالحياة هي المباركة الأسمى، ذبيحة التسبيح (عبرانيّين ١٣، ١٥).

أيضًا نقل المسيح إلى تلاميذه طريقة الوجود هذه، التي لا يُفلت منها شيء، في آخر فعل له قبل أن ينهي حضوره المرئيّ على الأرض: «ورفع يديه وباركهم، وانفرد عنهم» (لوقا ٢٤، ٥٠-٥١). التلميذ، أي المعتمد، هو إذًا حامل هذه البركة. هذا يعني أنّنا مدعوّون إلى أن نبارك وأن نهب الآخرين ما نحمل، أي أن نعلن للمحيطين بنا أقوالاً خيّرة، تصلهم بالحبّ الذي أحبّهم به الإله. هذا ما قاله القدّيس بطرس تحديدًا في رسالته الأولى (٣، ٩):

«غير مجازين عن شرّ بشرّ أو عن شتيمة بشتيمة بل بالعكس مبارِكين عالمين أنّكم لهذا دعيتم لكي ترثوا بركةً[١١٨]».

لا ننسى أنّ هذه الأقوال كانت موجّهة إلى مسيحيّين مضطهدين كلّيًّا، يعيشون ظروفًا صعبة. كلّ ما يفعله القدّيس بطرس بذلك هو أن يشهد بنفسه لقول المسيح الذي يحمله: «باركوا أعداءكم، وأحبّوهم»!

في ذلك وصيّة غير اختياريّة! إنّنا «مدعوّون» إلى أن نبارِك، لأنّ في ذلك دعوتنا العميقة. إذ ندخل مع المسيح في مهمّته الخلاصيّة: عندما نبارِك يحصل تحرّر في السماوات. يصبح ما

[١١٨] البركة باللاتينيّة bene dicere تعني «قول ما هو جيّد».

أعـدّه الإلـه للشـخص المبـارَك فعّـالاً. كـما لـو أنّ المبارَكـة تحدث شـقًّا في كتلـة اللعنـات الموجـودة عـلى رؤوسـنا لتسـمح بفعـل الإلـه. كلّ الأقـوال السـلبيّة والانتقـادات والأحـكام التـي قيلـت عنـا تحبسـنا. وبالمباركـة نتحـرّر.

البركـة هـي إذًا سـلاح لا يسـتهان بـه، لأنّهـا قـول محـبّ ومرمّـم غـيرُ زائـل آت مبـاشرة مـن المسـيح المخلّـص إلى الشـخص الـذي نباركـه. ومـن جهـة أخـرى، عندمـا نبـارك تتغـيّر نظرتنـا إلى الآخـر. إذ نتلقّـى النـور الإلهـيّ ونـراه كـما يـراه الإلـه، ومعـه نـرى فيـه خميرة القيامـة. المباركـة تعنـي إذًا نقـل **الحيـاة**، الحيـاة الإلهيّـة تنتقـل منّـي إلى الآخـر، ومـن الآخـر إليّ: هنـاك تبـادل رائـع في المباركـة.

«افرحوا كلّ حين، اشكروا في كلّ شيء»

(١ تسالونيكي ٥، ١٦-١٨)

منذ «افرحي» المُعلَنة لمريم،
حتّى ذاك اللقاء الذي تأجّج فيه قلبا تلميذي عمواس،
كلمة الإنجيل الأولى والأخيرة هي «**فرح**».
ستان روجييه

الشكر هو بالطبع مشابه للبركة، ولكنّه يجعل البركة تصل إلى التوهّج. به نلج قلب يسوع الملتهب، نبلغ ملء ما يستطيعه المرء بالنعمة: أن نُقبَل في صمت يسوع العميق، ونشارك في أقدس أسرار نفسه، وأن نحيا به متعلّمين بذلك منه الوجهة السرّيّة لكلّ وجوده، وما وراء كلّ فعل من أفعال هذا **الابن** الوحيد...

الاتّحاد العرسيّ للألم مع الفرح

بما أنّه الابن المطلق، فهو للآب فقط، هو وحده الذي يتقاسم معه هذا الحميميّة العجيبة، وهو وحده مالكها والمُمتَلك بها. في كلّ لحظة يحيا من **النبع** ولا يتلقّى **نفسه إلاّ** منه؛ كلّ ما هو عليه الابن يتلقّاه من الآب. في هذا الارتباط الكامل وهذا الانسلاخ الهائل يكمن كلّ فرحه والمصدر الفائق الوصف لشكره

الدائم. إنّه فيض حبّ في الروح القدس. حبّ يرفعه الابن نحو الآب وينزله نحو الناس، معطيهم إيّاه على دفعات كبيرة طوال حياته. الشكر هو عطاء بلا حساب، نصبح به فقراء من كلّ شيء ما عدا من **الفرح**! بالنسبة إلى المسيح، الذي كان دومًا في هذا التجاوب العميق، كانت السماء مفتوحة دومًا، كما أظهره تجلّيه ومعموديّته. يضعه الشكر في علاقة مباشرة مع الآب، الذي هو ماوراء كلّ شيء و**نبع** كلّ شيء.

ليست السماء مكانًا بعيدًا، والماوراء ليس موجودًا خلف الغيوم، بل هنا، إنّه الوجه الآخر لكلّ الظواهر، التي وحده الشكر يجعلها شفّافة. ويحدث هذا حتّى في أصعب اللحظات. عندما كان يسوع مسحوقًا بمعاناته، وغارقًا في مأساة محاكمته بالموت وعندما انقضّ عليه قلق العذاب الشديد، عندما تملّك الألم كلّ كيانه من دون أن يترك له أيّ مجال، بقي ثابتًا في شكره وحافظ على شدّته في هذا الوضع حتّى النهاية! حتّى وإن كنّا غير قادرين على أن نقرأ من الخارج رعدة الفرح هذه التي لطالما تحدّث عنها الإنجيل، فهنا بالتحديد تكمن **الساعة** المنتظرة منذ زمن طويل التي مجّد فيها يسوع أباه عبر أقصى التضحيات. أقواله الأخيرة قبل الذهاب إلى الجثسمانيّة تحاول أيضًا أن تقول ما هو فائق الوصف:

«أيّها الآب، لقد أتت الساعة،
مجّد ابنك،
ليمجّدك ابنك أيضًا...» (يوحنّا ١٧، ١).

علينا أن نقرأ مرارًا وتكرارًا هذه الصلاة الطويلة الموجودة

في هـذا الإصحـاح مـن إنجيـل يوحنّـا، بـل ربّمـا يجـب أن نحفظهـا عـن ظهـر قلـب، لنكتشـف رويـدًا رويـدًا خلـف الكلـمات روحهـا السرّيّ. هـذا يمكّننـا مـن أن نختـبر كيـف يحـوّل الشـكرُ آلامَ يسـوع رغـم أنّ الكلـمات تعجـز عـن التعبـير عـن ذلـك. بـل هنـاك مـا هـو أكـثر مـن ذلـك: آلام يسـوع هـي مـادّة الشـكر عينهـا!.

لا يمكـن لأيّ شيء عـلى الإطـلاق أن يزعـزع وعي يسـوع. يكمن صميـم شـكره تحديـدًا في وعيـه النـيّر بأنّـه ابـن الإلـه الوحيـد، وبأنّـه غـير منفصـل بتاتًـا عـن الآب مهـما حـدث ومهـما كانـت الظـروف، بأنّـه ملتحـم دومًـا بنبـع السـعادة، رغـم أن كلّ شيء يبـدو عـلى عكـس ذلـك. مـا مـن فعـل أسـمى مـن عمـل **مشـيئة** الآب حتّـى النهايـة، ذلـك هـو حقًّـا الشـكر، وتاليًـا النعمـة في أعـلى درجاتهـا. هنـا نصـل إلى المعنـى الجوهـريّ لـكلّ آلام المسـيح:

«يـا أبـا الآب، ليكـن لا مـا أريـد أنـا، بـل مـا تريـدُ أنـت» (مرقـس ١٤، ٣٦)

«قد أُكملَ» (يوحنّا ١٩، ٣٠).

أفعـال يسـوع المتمّمـة لمشـيئة الآب تجعـل وعيـه أوسـع مدًى. إذ يظهـر فيـه وعـي الآب بشـفافيّة تامّـة، إنّـه اتّحـاد مـن دون أيّ وسـيط، محبّـة متبادلـة لا نهايـة لهـا. يقـول القدّيـس غريغوريـوس بالامـاس (القـرن الثالـث عـشر): تكمـن روعـة هـذا الاتّصـال في تألّـق الـروح القـدس مـن الآب نحـو الابـن ومـن الابـن نحـو الآب. هنـا يكمـن فـرح الإلـه غـير المتزعـزع، الـذي لا يمكـن أن يُنتـزع (يوحنّـا ١٦، ٢٢). إنـهّ الدلالـة العظيمـة للمحبّـة. لهـذا السـبب، جعـل ألمُ المسـيح فـرحَ السـماء يجتـاح كيانـه: لأنّ **محبّـة** الإلـه هـي التـي

صُلبت في شخصه، وهذه المحبّة هي أساسًا **فرح، غبطة، عذوبة** لا نهاية لها[١١٩]. بل إنّ عذاب يسوع يتساوى مع فرحه، لأنّ هذا الفرح الإلهيّ جعل إحساسه في أقصاه. نجد هنا مفارقة لا يمكن لعقلنا أن يستوعبها، ولكنّها التجربة الرئيسة التي يدعو إليها يسوع كلّ واحد منّا:

«إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (متّى ١٦، ٢٤).

يريد المسيح أن يقودنا إلى هذه النقطة التي يتلاقى فيها الأفقيّ مع العموديّ، الأزليّة مع الزمن، والتي يكمن فيها، بشكل لا يُعبّر عنه بالكلمات، الاتّحاد العرسيّ للألم والفرح، سرّ الإله[١٢٠]. عندما يتّحد المسيح بمحبّته الجنونيّة مع صليبه، عندما يلتصق به لدرجة أنّه ليس بينهما أيّ مسافة، تتطابق المتناقضات، ويمكن للحزن أن يصبح فرحًا عظيمًا[١٢١]. وحدها المحبّة القادرة على ذلك، لهذا السبب هي تلخّص كلّ الناموس والأنبياء (متّى ٢٢، ٣٦-٤٠) ويسوع هو الطريق إليها (يوحنّا ١٤، ٦). منذ أن شقّ يسوع لنا هذا الطريق بعبوره إيّاه بنفسه، غدا كلّ واحد منّا مدعوًّا إلى أن يعيش في بعده الأزليّ، منذ الآن، وحتّى في صميم معاناته الإنسانيّة. يجب أن نتعلّم المحبّة لنتعلّم يسوع، فهو من قال: «تعلّموا منّي» (متّى ١١، ٢٩)؛ المحبّة هي الالتصاق الكامل بيسوع. ولكن لا يمكن أن نولد من المحبّة من دون الشكر. الشكر

---

[١١٩] M.D. Moliné، Le courage d'avoir peur، «شجاعة أن نخاف»، منشورات Le Cerf، صفحة ٢١١.

[١٢٠] F. Varillon، Souffrance de Dieu، «عذاب الإله»، منشورات Centurion، صفحة ١١٣.

[١٢١] A.D. Sertillanges، De la mort، «عن الموت»، منشورات Morel، صفحة ٩٠.

في كلّ مكان وزمان هو التحرّر من الشروط والقوانين الداخليّة والخارجيّة، هو أن نتحرّر من أيّ تعلّق: الفرح الذي لا يُنتزع موجود في ما وراء التناقضات، **المحبّة** غير مشروطة، إنّها شكر وعطاء من دون مقابل، هي الإله بنفسه.

لهذا فحياة المسيح على الأرض تصل إلى ذروتها في النقل والتقليد اللذين بهما يقدّم يسوع جسده ودمه للإنسان لنصير مثله ولنعرف كيف نحبّ مثله (يوحنّا ١٥، ١٢)، ولكي يثبت فرحه فينا (يوحنّا ١٥، ١١). كياننا المسكون بالمسيح الإله هو ذو جوهر إفخارستيّ، لقد صار التسبيح والشكر في جسدنا ودمنا، ودخلنا في فرح سيّدنا (متّى ٢٥، ٢١) مطيعين آخر طلب له: «اصنعوا هذا لذكري» (لوقا ٢٢، ١٩)، أي أقيموا الإفخارستيّة، اشكروا، حوّلوا العالم بالفرح، حرّروا الحياة من كلّ ما يمنع **الاحتفال**...

التشارك في الفرح الإلهيّ العظيم

ما عاد الأمر مجرّد تفاؤل ساذج، أو تساهل أو رؤية الوجه الجميل في الأشياء فقط: بشكر المسيح، انتشلنا الشرّ من جذره، بكلّ آثاره الكونيّة وبكلّ ثقله، وفهمنا أنّه تكمن هنا حقيقة جزئيّة فقط وبأنّه يجب أن نحيا النور في ملئه. ولكن يتوجّب علينا لذلك أن نتجاوز هذه الظلمات إلى هذا النور. الشكر هو بالتحديد هذا الفعل الإنسانيّ الإلهيّ الذي يدخلنا عبره المسيح في إفخارستيّته الخاصّة وينتزعنا به من الإنسان العتيق العالق في الخطيئة! تناولنا الخبز والخمر المتحوّلين مادّيًّا إلى جسد السيّد

المسيح ودمه، يعني رغبتنا في الدخول في حركة التحوّل الجذريّة هذه، وفي أن نصبح نحن نفسنا مادّة أخرى. نصبح ما نتناوله، عدم التغذّي من الحياة الإلهيّة، هو الاعتقاد بأنّنا لا نحتاج إلاّ إلى أنفسنا: هنا يكمن موت أيّ شكر وفي هذا النكران يختبئ جذر التكبّر ومحرّكه. فمنذ آدم، التكبّر هو الذي ينتزع الإنسان من الإله في كلّ لحظة مغرقًا إيّاه في المنفى و**السقوط**. الاعتقاد بأنّنا نملك الحياة من ذاتنا بدون الإله هوكالاعتقاد بوجود ماء من دون نبع...

الشكر هو تمامًا عكس التكبّر، أصل كلّ الشرور: بنوره وقوّته، يعيد توجيه قدراتنا الساقطة نحو قطبها الخالق ويجعل من الرغبة مكانًا للشركة مع الإله. كما أنّ الخطيئة هي حالة انفصال عن الإله، الشكر هو حالة شركة دائمة معه. لذا يقول القدّيس بولس: «عيشوا في الشكر» (كولوسي ٣، ١٥). هذا يعني أن نحيا، وأن نحيا إلى الملء؛ ولكن لا حياة إلاّ بالإله. إنّ «ملء» النعمة هذا هو لإله «يعمل دائمًا» فينا، في كلّ شيء وفي كلّ مكان (يوحنّا ٥، ١٧) ليحرّرنا من حياتنا الميتة.

الإنسان الذي يشكر الإله يحسّ في النهاية بفرح الإله عبر فعله الدائم ويتّحد بهذا الفرح الإلهيّ بأفعاله. ليس لفعلنا أيّ مدًى أو عمق إلاّ بالاتّحاد بفعل الإله. هذا التعاون هو دومًا عرسيّ لأنّه التعبير عن المحبّة عينها. وهكذا فالذين يقترنون، بشكرهم الدائم، بإرادة الإله في كلّ لحظة بالشكر، يجلبون سلامًا عظيمًا للناس. هم أناس مبارَكون يتمّمون كلّ شيء بخفّة وبسهولة، لأنّهم في تناغم مع **ناموس** الخليقة. حياتهم ترنيم.

وهـذا الترنيـم هـو في وقـت واحـد أقـوى فعـل وأسـمى تأمّـل، والاثنـان واحـد.

مـن يكـون عـلى توافـق تـامّ مـع ذلـك يولـد مـن جديـد: تحوّلنـا إلى إنسـان جديـد متعلّـق بالقـرار الصـارم والسريـع لروحنـا ولإيماننـا، القائـل «نعـم» ببسـاطة وتواضـع والـذي يتبـع المسـيح بفـرح: عندئـذ يصبـح كلّ شيء ممكنًـا وتحـدث المعجـزات[١٢٢]. في الواقـع، بمـا أنّ الإلـه ليـس خـارج تاريخنـا، فالمعجـزات يمكـن أن تبـزغ بكـثرة في أبسـط الأحـداث، مـن داخلهـا لا عـلى هامشـها، بواسـطة إيماننـا الـذي يجعـل الحـدث شـفّافًا مظهـرًا الإلـه. كانـت المعجـزات في البلـدان الأرثوذكسـيّة القديمـة خبـز الشـعب اليومـيّ الحقيقـيّ. ولكـنّ المعجـزة العظيمـة بامتيـاز، هـي أن يقـدِّس الشـكر كلّ جـزء صغـير مـن كيـاني ومـن العـالم كلّـه مـن أجـل تألّـه بطـيء، مُدخـلاً بذلـك بهـدوء في هـذا العـالم القائـم عـلى المصلحـة والنكـران والعنـف والتعصّـب فضيحـة المحبّـة المجـرّدة. تعتـبر هـذه المحبّـة مهينـة سـواء بالنسـبة إلى التقليديّـين الدينيّـين المحافظـين أو بالنسـبة إلى الظلاميّـين السياسـيّين أو الثقافيّـين.لم يسـتطع هـؤلاء يومًـا أن يلـدوا الإنسـان الجديـد ويقـودوه إلى الـشيء الوحيـد الـذي ينتظـره: الفـرح. بنظرهـم، القدّيـس إنسـان غـير نافـع ولا يفيـد في شيء! رغـم أنّـه الثـوريّ الوحيـد، فحياتـه فعـل رسـوليّ وسـياسيّ بالمعنـى الأقـوى لهـذه الكلـمات، بكيانـه غِنـى إلهـيّ يتحـدّى كلّ النظـم، يحمـل عـلى كتفيـه سرّيًّـا ثقـل العـالم ويوجّـه في الخفـاء تاريخـه العميـق.

لم تـترك الثـورات الإنسـانيّة خلفهـا إلاّ تماثيـل أمـوات، ولكـن

[١٢٢] بول إيفدوكيموف، L'amour fou de Dieu، «حب الإله الجنونيّ»، منشورات Le Seuil، صفحة ٧٧.

من يا ترى ذاك الذي سيقرأ يومًا الكتابات العظيمة لفرنسيس الأسّيزيّ أو سيرافيم ساروفسكي؟ فمع أنّهما ماتا منذ قرون، لكنّ إشعاعهما مازال يضيء ظلماتنا. لذا، لنقل مع ليون بلوي[١٢٣]: الحزن الوحيد هو ألاّ نكون قدّيسين. لأنّ القدّيس اكتشف **الحياة** الحقيقيّة بداخل هذا العالم وعلى ما هو عليه هذا العالم؛ إنّه الإنسان الذي يعيش يوميًّا ما هو وراء هذه الحياة اليوميّة، يسمّى إنسان اليوم الثامن، ذاك الذي يعيش الأزليّة في كلّ ما هو لحظيّ. أحد هؤلاء المتأجّجين، إيفاغريوس البنطيّ (القرن الرابع)، الذي هو أحد آباء الصحراء، وصف ببراعة القدّيس فقال:

منفصل عن كلّ شيء ومتّحد بكلّ شيء؛
صلب، وبه حسّ مرهف فائق؛
مقدَّس، ويعتبر نفسه وسخ العالم.
رغم كلّ شيء، هو فَرِح،
فَرِح بشكل سرّيّ إلهيّ[١٢٤]...

طبوغرافيّة العودة

أمن الممكن أن يوجد معنى للحياة غير هذا؟ معنى آخر مغاير لأن ندع **الحياة** تحيا بالكامل؟ ولكنّ هذا يتطلّب قرارًا. كلمة «قرار» هي أفضل تعبير لما يعنيه الفصح في حياة الإنسان. فالقرار يميت ما هو ليس للحياة ويجعلنا نولد من جديد بوعي

[١٢٣] كاتب كاثوليكيّ فرنسيّ (١٨٤٦-١٩١٧)، امتاز أسلوبه بحدّة الفرح وشدّة الإتقان.

[١٢٤] Les leçons d'un contemplatif-Traité d'oraison، «دروس متأمّل- بحث في الصلاة»، منشورات Beauchesne، صفحة ١٨٧.

مختلف تمامًا، إنّه يبني الإنسان ويضعه على طريق تحرّر. رغم ذلك، الموت هو تضحية، بها يقترن الشكر بعمق مع منطق الإفخارستيّة: التحوّل عبور، وكلّما كانت الجدران التي تحتمي بداخلها الأنا سميكة، كان تحوّل الكيان هذا مؤلمًا...

هذا هو التغيّر الذي يدعونا إليه المسيح بدون توقّف، هنا يكمن جوهر رسالته، وهو، بدخوله فصحه، كالمتسلّق الأوّل الذي يشدّ الحبل للذين يتبعونه. تتكوّن جغرافيّتنا الداخليّة في هذا العبور من ثلاث مناطق:

١. نواة كياننا خُلقت على صورة الله كما جاء في الكتاب المقدّس (تكوين ١، ٢٦). هذا المكان من أعماقنا جميل جدًّا وحَسن (تكوين ١، ٤)، إنّه عرش الإله في الإنسان، في روح الإنسان (يوحنّا ١٤، ٢٣). في «وسط» الإنسان هذا يكمن ملكوت الله (لوقا ١٧، ٢١)، وهناك يدعونا المسيح إلى أن نثبت (يوحنّا ١٥، ٥ و٩). في هذا المكان من جذورنا الذي تبزغ منه **الحياة** يمكننا أن نحسّ مباشرة بالوجود الإلهيّ وأن نغوص في محيط محبّته. وحده الإنسان الذي يعرف كيف يتلقّى ذاته من هذا المكان يأتي بثمر كثير، «لأنّكم بدوني لا تقدرون على أن تفعلوا شيئًا» (يوحنّا ١٥، ٥)، «كونوا إذًا متأصّلين ومتأسّسين في المحبّة» (أفسس ٣، ١٧). هناك تربض في الإنسان أعماق مليئة بالسلام والسكون تفوق كلّ عقل (فيليبّي ٤، ٧).

٢. نواة كياننا هذه محاطة بمنطقة مظلمة مليئة بالأشواك والتعب والمعاناة، بالفراغ والوحدة. منذ **السقوط** الذي اقتلع به الإنسان نفسه من الإله، تحنّ نفسه إلى ما فقدته، غائصة

في التناقض والقلق أمام الموت، في الأوجاع الدائمة والغمّ. إنّها منطقة الخطيئة والمرارة والكراهية. وكلّ ما يمكن أن يقود الإنسان من الاكتئاب حتّى الانتحار مرورًا بكلّ أنواع العلاج النفسيّ.

٣. إزاء ذلك، يبني كلّ واحد لنفسه نظام حماية ليبقى على قيد الحياة. إنّها المنطقة الثالثة التي تظهر فيها الأنا بقوّة لمواجهة كلّ هذا العذاب. ترتدي الأنا إذًا درعًا سميكًا من التملّك بكلّ أنواعه، من الوظيفة والمصلحة، الشهرة وحبّ الظهور. حتّى الدين في هذه الحالة يكون بالنسبة إلى كثيرين مجرّد واقي صدمات، ملجأ، أو ضمانًا للحياة الأبديّة. كلّ شغف يتغذّى الإنسان منه هو بديل **للحياة** الحقيقيّة التي يحيد الإنسان عنها باستمرار.

«لا نُحوّل إلاّ ما نقبل»

الموضوع إذًا هو القيام بعودة. في هذا يكمن القرار. يقول المسيح: «إن لم تعودوا، فجميعكم تهلكون» (لوقا ١٣، ٣). هذه المنطقة الثالثة التي هي حصّة كلّ واحد هي حياة للموت (هايدغر). الانتقال من المحيط إلى المركز، من العبوديّة إلى الحرّيّة، من مِصرنا الداخليّة إلى أرض الميعاد التي في أعماقنا، هو أطول طريق. لقد استمرّ أربعين عامًا عند العبرانيّين، إنّه زمن نضج بطيء وولادة في عمر الإنسان-الإله. في طريق الآلام هذا الذي نولد به في **الفرح** الحقيقيّ، يكمن جوهر التضحية، الذي يجعل من الشكر ذبيحة تسبيح.

عندما يقرّر الإنسان أخيرًا أن يغيّر اتّجاهه، يمتلئ في البدء بالفرح، لأنّه يتجاوب داخليًّا مع نعمة النداء المتواصل. ولكن ما أن يطبّق في حياته اليوميّة أداة الحفر التي هي الشكر، حتّى يدخل بسرعة في المنطقة المؤلمة حيث يصطدم في كلّ لحظة بقلعة أناه، لأنّ الفرح هو أكبر نقيض للأنانيّة. لا توجد الأنا إلاّ بالتذمّر، والفرح غير المشروط المعاكس لها هو موتها. هذا الموت بالتحديد، مع قشرته التي هي المعاناة، هو الذي يفسح الطريق إلى نواة كياننا. لا بدّ لهذا الطريق من أن يعبر المنطقتين المحيطتين بها. إنّه طريق صليب، يكون فيه قبول ما لا يقبل هو القانون الكبير. يقول يسوع: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي (أي حيث أوجد: في أعماق كيانك)، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإنّ من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها (المنطقة الثالثة)، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها»، (متّى ١٦، ٢٤-٢٥). ما من تحوّل حقيقيّ، ما من تحرّر ممكن بدون قبول معاناة.

المهمّ هو المثابرة. الزمن عامل مهمّ يجعلنا ننضج في هذا العمل، الذي هو **العمل** الحقيقيّ الوحيد للإنسان. إذ يلزم زمن كاف لاختراق يُنقّي ويُجمّع في آن واحد جميع قدرات الإنسان في قلبه. فالشكر هو منهج. عند الوصول إلى القلب يصبح الكيان مخطوفًا بالكلّيّة؛ فالأمر هو إذًا نمط حياة، ولكن ابتداءً من القلب فقط يختبر الإنسان الكمال. القلب هو مركز كياننا، فيه يتّحد العقل مع الإرادة والعاطفة، النفس مع الجسد، الماضي مع المستقبل. «فعل» النعمة هذا الذي يقود إلى القلب يطلق فيه الشكر تحديدًا. هذا الفعل هو هبة، ربّما **هبة الحياة** ذاتها، لا

يمكن أن نقوم به، بل أن نستقبله فقط. إنّه تلك القدرة المغيّرة؛ من يكتشفها يرى بشكل مختلف، ويرى ما هو مختلف، يرى **الحقيقة**. هو ليس فقط متوحّدًا في ذاته، بل يشعر بعمق أنّه واحد مع الآخرين ومع كلّ مخلوق في الكون، ففي القلب، يكون الإله أقرب إلى نفسي منّي أنا (المغبوط أوغسطينوس، القرن الخامس).

ذبيحة التسبيح

عندما أدخل في هذا القرب مع الإله يصبح قلبي مذبحًا وتقدّم الأنا محرقة عليه. إنّه احتفال بموت من أجل **الحياة**. يصل هذا «الطقس الانتقاليّ» إلى ذروته عندما يصل الإنسان بالكلّيّة إلى الإله ويؤكّد بحقّ: «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غلاطية ٢، ٢٠). عندئذ تحترق الذبيحة: ما من تسبيح أسمى، وتاليًا ما من تحرّر أعمق؛ يتلقّى الإنسان النعمة بالكامل ويشكر بفرح تامّ، لأنّ إرادته تستند إلى **إرادة** الإله الذي أسلم إليه نفسه بالكامل.

أدخل المسيح تلاميذه إلى ساعة مجده هذه تحديدًا عندما قال لهم أثناء الاحتفال بالإفخارستيّة، أي الاحتفال بالشكر، «اصنعوا هذا لذكري» (لوقا ٢٢، ١٩). ولكنّه لم يقل عن هذا الشكر: كلّ شيء قد أكمل إلاّ لحظة التضحية العظمى، لحظة موته (يوحنّا ١٩، ٣٠). فإن كان ما خرج من جنبه المطعون هو ماء ودم، فهذا يعني أنّه هنا تكمن أسسنا: المعموديّة، والإفخارستيّة. عندما نحيا هذين السرّين بقوّة تنفتح أمام كلّ واحد منّا **ساعته**

الخاصّة، أي الأبديّة في الزمن، أو المسيح في حياته.

لذا يتلاشى تناقض «ذبيحة التسبيح» عبر الحياة ذاتها. فالموضوع ما عاد تصنيفًا للأمور بين العذاب والفرح، بل أن نعيش بالشكر ملء الحياة كما هي عليه. كما يقول مارتن بوبير[١٢٥] بخصوص الروحانيّة الهازيديّة اليهوديّة: أبسط رجل في الشارع يجد فرحه، الفرح الملتهب، في هذا العالم وعلى ما هو عليه، في هذه الحياة وعلى ما هي عليه، حتّى في هذه الساعة من حياة العالم، ومهما كان محتواها. يضيف: كلّ تناقض يجرحك به العالم باستمرار، يثيرك لتكتشف حقيقة ما ينطوي عليه. وكلّ معاناة متأصّلة تريد أن تساهم في فرحك الملتهب. أساس الإيمان الهازيديّ هو أنّ كمال الإنجاز الماسيّانيّ يتحقّق حاليًّا، ويطلق ذلك فرحًا متأجّجًا يغمر كلّ الوجود. هنا يكمن البرهان على أصالة أيّ ديانة وعلى طاقتها المحيية. يشهد الهازيديّ الحقيقيّ بأنّه رغم عذاب المخلوق الذي يفوق الوصف، فإنّ الفرح السماويّ هو نبض قلبه، وهو قادر على أن يغوص إليه في أيّ لحظة وأيّ مكان. الشرط الوحيد المطلوب لذلك هو أن يركّز بشغف كلّ طاقاته في هذا المكان، وأن يكون بالكلّيّة حيث يجب أن يكون في تلك لحظة بالتحديد، ليقوم بما يتوجّب عليه بتركيز صحيح للحواسّ[١٢٦]. بالنسبة إلى الحاخام ناحمان دو براتسلاف، أحد معلّمي الهازيديّة الكبار، كلّ شيء يكمن في هذا الفرح، فمن دونه تتدهور الحياة وتسيطر جميع الأمراض على الإنسان.

---

[١٢٥] فيلسوف يهوديّ من أصل نمساويّ (١٨٧٨-١٩٦٥)، استندت فلسفته إلى اللقاء والحوار، ناضل من أجل الحوار اليهوديّ العربيّ.

[١٢٦] مارتن بوبير، Die Erzählungen des Chassidim، «حكايات الهازيديّة» منشورات Manesse، صفحة ١٥-٢٧.

ولكن يعطينا هذا الحاخام أيضًا قولاً مأثورًا أساسيًّا تمامًا: عندما يختطف الفرح جسد الإنسان، ترتفع يداه ورجلاه، فيصبح غير قادر على أن يمنع نفسه عن الرقص[١٢٧].

أنا أرقص إذًا أنا موجود

الرقص هو فرح الكيان تحديدًا، لذا يمكن أن نحياه من دون أيّ حركة؛ الحركة مجرّد تعبير حرّ، إنّها لعبة الحياة عندما يسكنها الرقص بشكل واع. عندما نعي أنّ الابتهاج موجود بشكل دائم في عمق كياننا نزيل كلّ توتر يعوق تركيز طاقاتنا. إنّه انتباه في استرخاء كلّيّ، إصغاء بسيط بلا إرادة، استقبال حرّ لكلّ انفعال، استسلام. يتمدّد حينئذ الجسم إلى أقصى درجة، ولا تتدخّل النفس في أيّ شيء، وتصبح الروح وجودًا صافيًا، وعيًا من دون مادّة. في سكون الكيان هذا تكمن ذروة التضحية، وفيه يكون التسبيح هو الشفافيّة التي نشعر مباشرة عبرها **بالحضور**. عندما يكون الاستقبال انفتاحًا مطلقًا غير مشروط وغير موجّه، في حالة من الاسترخاء العميق، تستحوذ علينا النعمة التي هي ابتهاج الكيان.

هنا يكمن سرّ كلّ الإنجازات الفنّيّة العظيمة التي بزغت بهذه الطريقة. ولكن على كلّ إنسان أن يصبح فنّانًا ينجز تلك التحفة العظيمة التي هي حياته. ومع ذلك فإنّ هذه الحياة تذهب عندما نتملّكها، عندما تصبح ملكيّة. الحياة، نعمة، هبة، لا تعطي ذاتها بالكامل إلاّ لمن يعرف كيف يتلقّاها من دون أن

[١٢٧] مارك آلان أواكنن، Tsimtsoum، «انقباض» منشورات Albin Michel، صفحة ١٢٧.

يحتويها. هي دومًا مفاجأة لمن يعرف كيف يندهش منها، ولمن لا يُسقط عليها ذكرياته السابقة وتعبير «حدث في ما مضى»، هي أصليّة لا مثيل لها وبازغة من أعماق الأزل المتجدّد دومًا. بدون العراقيل، تكون الحياة، في غاية البساطة، تعبّر عن ذاتها لمجرّد فرح التعبير عن الذات البسيط، الحياة **لعبة**، تلعب مع ذاتها، الحياة مجّانيّة.

في هذا التحرّر التدرّجيّ، تظهر «الأنا» الحقيقيّة للإنسان، والحياة التي تعبّر عن ذاتها في هذه الأنا هي «الأنا» الإلهيّة بالتحديد. هنا نصبح في المعرفة بحالتها الصافية، ولادة الواحد في **الآخر**، ولادة الواحد **بالآخر، من** دون تدخّل الأنا. إنّها تبادليّة وعي من دون علاقة ثنائيّة: الإله بداخل كلّ ما فيّ، هو عقل عقلي، قلب قلبي، إرادة إرادتي، فعل فعلي، نَفَسُ نَفَسي... الحياة هي المسيح (فيليبّي ١، ٢١). كلّ الموضوع هو في الإحساس، في الطريقة التي نرى بها وفي كيفية وعينا ما نراه.

ما هو حماسي وأين يكمن نبعه؟ إنّه في معجزة «عدم الفعل» الدائمة، الاستسلام، جهد لا جهد فيه. كلمة اتبعني التي قالها يسوع تتضمّن الثورة الحقيقيّة التي أدخلها الإله في تاريخ الإنسان. هذا يعني «كُن-أنا» أو بأسلوب آخر: توقّف عن التدخّل، ضع خطاك على خطاي، ضع أفكارك في أفكاري، اجعل اختياراتك في اختياراتي، دع نفسك تُلهَم!

يكمن الفرح في ممارسة هذه اليقظة كلّ لحظة. اليقظة غير المنقطعة والمتكرّرة تولّد الثبات، الذي هو **الطريق**. الالتصاق التامّ بها يُظهر **ذاك** الموجود بداخلنا وخارجنا نفسه. بما أنّ

الحياة هي المسيح، يمكننا إذًا أن نتلقّى أيّ شيء بالفرح والابتهاج، الأمور الصغيرة والكبيرة، الجميلة والمؤذية، لأنّه **هو** الذي يظهر في كلّ لحظة عبر كلّ شيء! بتجسيد فرح المسيح تثبت المسيحيّة ذاتها وتقول للعالم إنّ الموت ليس له الكلمة الأخيرة في التاريخ: لم يحمل المسيحيّون الأوائل أيّ برنامج أو أيّ نظريّة. ولكن أينما ذهبوا كانت بذور مملكة السماء تثمر، والإيمان يتأجّج، والحياة تتحوّل، والمستحيل يصبح ممكنًا... كان كلّ كيانهم منارة تسبيح حيّة للمسيح القائم؛ كان هو، هو وحده فرح حياتهم الوحيد، وكان هدف **الكنيسة** يقتصر على جعل فرح المسيح القائم حاضرًا في العالم وفي التاريخ، فبالمسيح ابتداء كلّ شيء وانتهاؤه.

الفهرس

سلسلة «الإيمان والإنسان» ٥
مقدّمة لجنة التعريب ٩
إهداء بفرح ١٣
مقدّمة ١٥
مفتاح السعادة ١٩
«حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكًا وألسنتنا ترنّمًا» ٢٨
«أفيض فرحًا وسط كلّ اضطرابي» ٤٠
«كلّ نسمة فلتسبّح الربّ»: بنَفَس المزامير ٥٥
مريم ومراحل نموّنا الروحيّ ٧٣
الاستسلام، طريق حياة ١١٤
لتكن مشيئتك احتفالاً! ١٢٩
لهيب الأشياء ١٤٦
النفاذ نحو الماوراء ١٥٩
المسيحيّة: تقليد قائم على الدهشة والمباركة ١٧١
«افرحوا كلّ حين، اشكروا في كلّ شيء» ١٨٨

الإيمان والإنسان

١. فصح البيولوجيا — الدكتور جورج معلولي
٢. الفرح — الأب ألفونس غوتمان

الفرح غناء، ضوء، تبادل، شعاع يخترق دفّتي الكتاب المقدّس من طرف إلى طرف. إنّه كنز كلّ كائن حيّ حتّى الأكثر بؤسًا. تكمن جذور كلّ فرح في الفرح الخلاّق للإله الحيّ القائم من بين الأموات. إنّه يُعبّر في كلّ كائن عن حيويّته المميّزة واهتزازه البهج ليكون علامةً فريدةً في سيمفونيّة الكون.

نُقش هذا الفرح الأساس في جينات خلايانا. إنّه الـ«نعم» للحياة، إنّه أعظم انتصار للإنسان على كلّ التجارب التي تثقل كاهله، إنّه أقوى وسيلة نتغيّر بها. تقاس مصداقيّة أيّ حياة روحيّة بدرجة الفرح الساكن فيها. إنّه إذًا ذروة التصوّف وذروة كلّ إنجاز.

الواجب الوحيد إذًا هو أن نكون فَرِحين، والخيانة الوحيدة هو ألاّ نكون كذلك. فإن كان معنى أن نحيا هو أن نجد الفرح، فكيف يمكن إذًا أن نصير الفرح؟

ألفونس غوتمان كاهن أرثوذكسيّ، أسّس مع زوجته راشل مركز لقاءات روحيّ يدعى «Béthanie» في مدينة Gorze بمنطقة Moselle. ونشرا أيضًا مجلّة «Le chemin الطريق»، وألّفا العديد من الكتب.